مكتبة
Telegram Network
2019

الأم

رواية

بيرل باك

ترجمة: محمود مسعود

آفاق
للنشر والتوزيع
AFAQ BOOKS

مكتبة

Telegram Network

«المكتبة النصية»

قام بتحويل رواية:

(الأم)

ل- «بيرل باك»

إلى صيغة نصية:

(فريق الكتب النادرة)

تنسيق

ماجدة علي علي

قناة التليجرام

الأم

رواية

بيرل باك

ترجمة

محمود مسعود

الأم

رواية

بيرل باك

رقم الإيداع: 20348 / 2017

الترقيم الدولي: ISBN 978 - 977- 765 - 132 - 5

جميع الحقوق محفوظة. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه. أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات، أو نقله بأي شكل من الأشكال دون إذن مسبق من الناشر.

All rights are reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form, or by any means without prior permission in writing from .the publisher

Afaq Bookshop & Publishing House 1
Kareem El Dawla st

From Mahmoud Basiuny st. Talaat Harb
CAIRO – EGYPT - Tel: 00202 25778743
Mobile: +202-01111602787

afaqbooks@yahoo.com :E-mail

www.afaqbooks.com –
1 شارع كريم الدولة- من شارع محمود بسيوني - ميدان طلعت حرب- القاهرة - جمهورية مصر العربية ت: 25778743
00202 - 25779803 00202 - موبايل: 01111602787
بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية
باك، بيرل.
الأم
- ترجمة: محمود مسعود
- الأدباء (روايات) - باك، بيرل

مقدمة

إذا ذكرت الروايات الإنسانية التي خلدت في الآداب العالمية من طراز «البؤساء» لفكتور هوجو و«كوخ العم توما» للكاتبة الأمريكية ه. ب. ستو و«دافيد كوبر فيلد» لتشارلز دكنز، فإن رواية «الأم» تحتل بينها مكان الصدارة بما حفلت به من الصور الإنسانية العميقة والمشاعر التحليلية الدقيقة والنماذج البشرية التي وإن كانت وليدة بيئة بعينها فإنها في تقلباتها ومنازعها قاسم مشترك في كثير من البيئات على اختلاف المكان والزمان، حتى لتحس وأنت تتابعها بين فصول الرواية بأنك إزاء شخوص بشرية معهودة لديك، وأن ما تتأثر به هذه الشخوص من الانفعالات والأحاسيس وما تنحو إليه من التصرفات وتسلكه من المسالك هو جزء من النفس البشرية في ضعفها وتساميها وفي انقيادها وتمردها وفي خنوعها وعسفها وفي أطماعها وقناعاتها وفي غرورها وتواضعها وفي زللها وتندمها وفي سخطها ورضاها.

والواقع أن ذلك يتجلى على أشده في هذه الرواية التي صورت فيها الكاتبة الأمريكية الكبيرة بيرل باك حياة الريف الصيني تصويرًا مستفيضًا رائعًا في شخص هذه الأم الفتية التي تدأب على العمل نهارها في الحقل مع زوجها متفانية كادحة ثم تتوفر آخر اليوم على رعاية الزوج والأطفال وتقبل على الإنجاب كل عام قريرة العين دون أن تجد في دورة هذه الحياة المتكررة المتجددة ما يصرفها إلى شيء آخر- لولا ضيق الزوج الشاب المفتون

بنفسه بحياة يعدها رتيبة مملولة وغيابه من حياتها هربًا إلى المدينة مما كان بداية للكارثة التي عصفت بحياة الأسرة وقوضت سعادة الأم وعرضتها لزلة كانت في اعتقادها هي السبب فيما امتحنت به من صروف وأرزاء في ذاتها وفي أبنائها. وبغير رغبة في الاستطراد مع أحداث الرواية تفاديًا لضياع عنصر الجدة والتشويق في هذه العجالة، تراك وأنت ماض في السياق مشدودًا إلى شخصية الأم التي لا يثنيها شيء عن احتمال مشاق العمل وأعباء رعاية الأسرة مدفوعة بغريزة الأمومة وبهذا الدأب الذي ينتظم البيئة كلها كوحدة ناصعة منتجة. وأنت واجد في صورة الأم خاصة وأفراد الأسرة الصغيرة وفي محيط البيئة من حولهم وفي شتى مسالكهم وتأثرهم بكل ما يعرض لهم في حياتهم البسيطة العادية شبهًا غير قليل بما تراه وتقرأه وتسمع به في بيئات كثيرة أخرى من هذا العالم المتباعد الأطراف المتقارب في الخصائص والسمات البشرية، مما يجعلك تحس إحساسًا غير قليل بوثاقة الروابط الإنسانية بينك وبين هذه الصور المجلوة في قالب البساطة والصدق والواقعية. ومن ثم كان للرواية طابعها الإنساني الذي يسلكها في عداد الأدب العالمي ويهيئ لها مقومات الخلود.

ولن يكون من دواعي العجب أن تختص بيرل باك بهذه القدرة الباهرة في تصوير الحياة والأحياء في الصين وهي التي عاشت فيها منذ نعومة أظافرها حتى شبت وترعرعت ثم تزوجت وأصبحت أمًّا ولا تكاد تبعد عنها حتى تعود إليها لتستأنف الحياة فيما عدته وطنها الثاني. فهي إذن قد خبرت هذه الحياة وأحبتها وشغفت بها إلى الحد الذي جعلها تؤلف ثماني روايات عنها من

جملة رواياتها السبع عشرة. وكذلك كان تصويرها للحياة الصينية صادقًا ينبض بالحيوية والنفاذ إلى أعماق الناس وأغوار السرائر. أضف إلى هذا قدرتها كامرأة على تحليل طبائع المرأة وانفعالاتها ذلك التحليل البارع الذي يتأدى إلى أدق البواطن وأخفى الخلجات ويميط اللثام عن مكنون المشاعر التي تنضج بها طبيعة المرأة في شتى المواقف مما يجلي للقارئ ذخيرة نفيسة رائعة من الصور النفسية والتحليلات العاطفية يندر أن يوفق إلى مثلها الكتاب والمؤلفون من الجنس الآخر. وربما كان من أبرع هذه الصور ما أزجته المؤلفة في تحليلها لشخصية الأم التي وصفتها بأنها كانت منذ شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة وأحاسيس عميقة ولكنها ساكنة صامتة ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء أن اتجهت بخواطرها إلى الرجال من حيث هم رجال، وكانت إذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط إلى الرجال لترى كنههم، بل كان تطوي الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها في صبر وسكون وانتظار. فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين العميق الذي كان يجيش في صدرها وعرفت أنها لا تستطيع الحياة دون وجوده معها. «على أن الرجل وحده لم يكن يكفي، بل كان ينبغي أن تحمل منه وأن تستشعر الطفل يتكون في أحشائها وتدب فيه الحياة، وبهذا تتم الزوجية، وعندئذ كانت تغمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها. وكانت إذا طالعتها علائم حمل جديد ساورها إحساس رضاء جسدي مستعذب وكأنها شبعت وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد

المادية... لقد كان هذا الإحساس أسمى وأعظم حتى من الطفل نفسه، بل كان أسمى وأعظم من شخصها ومن شخص الزوج أيضًا. فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء في نظرها يمثل جزءًا من الأمومة، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل».

فهل رأيت أروع من هذا التحليل في تصوير طبيعة المرأة في عذريتها، وزوجيتها وأمومتها؟

بل إن هذه الصور الدقيقة المستمدة من عمق البصر بطبائع النفس البشرية عامة وطبيعة المرأة خاصة تتعاقب في سياق الرواية تعاقب اللوحات الرائعة في معرض فني حافل. ولعل أغزرها بالمشاعر المؤثرة تلك التي تتصل بالكارثة الكبرى التي نزلت بالأم بعد أن هجرها الزوج نذالة وعرضها لامتحان رهيب أفضى بها إلى الزلل في لحظة غواية عمياء. لقد كانت هذه الخطيئة هي اللعنة الكبرى التي عصفت بحياتها عصفًا شديدًا وجلبت عليها غضب الآلهة حتى لاحقتها الكوارث التي تمثلت في عمى ابنتها ثم وفاتها في ظروف مؤسية، وفي انحراف ابنها الأصغر إلى اعتناق ذلك المذهب الهدام الذي أفضى به إلى الإعدام. واستمع إلى صرختها المؤثرة إذ ناءت بهذه الأرزاء: «إذا كنت أذنبت في حياتي فلِمَ أنل من الأحزان ما يكفي؟ إذا كنت أذنبت فلِمَ لا أموت وحدي وأضع حدًّا لكل شيء؟... لكن أين هي المرأة الفاضلة المبرأة من الذنوب؟... ولِمَ أحتمل وحدي هذه الأحزان كلها؟ ألم أنل كفايتي من العقاب؟».

وفي غمرة هذه الغواشي، وكأنما استجيب لتندمها وابتهالها، تجيء البشرى بمولد حفيد لها بعد طول يأس من الإنجاب، وسرعان ما تتبدد أحزانها وتهتف والدموع تغمر وجهها الذي كلله المشيب وقد رفعت المولود بين يديها: «انظروا... إنني أشك في امتلاء نفسي بالذنوب كما خيل إليَّ فيما مضى».

هكذا تنتصر الحياة الوليدة على الموت والعدم ويتغلب الأمل البازغ على اليأس والإحباط، ومن هذا المنطلق كان للكيان البشري عند قومها مكانته الأولى في حياة إن تكاثرت على هذه الصورة المعهودة حتى أشرف تعدادها على ألف مليون نسمة، فإن أفراده جميعًا كخلية نحل هائلة تنتج دائبة وتبلغ من أسباب القوة ما طوع للأمة كلها أن تحتل مكانتها المرموقة في المجتمع الدولي وأن تكون قوة مؤثرة تناجز إحدى القوتين العظميين في عالمنا المعاصر، وتخطب ودها القوة الأخرى.

محمود مسعود

الفصل الأول

جلست الأم في مطبخ الدار الريفي الصغيرة، فوق مقعد منخفض من الخيزران، وراحت تدس الأعشاب في فتحة الفرن الطيني حيث شبت النار منذ قليل تحت القدر الحديدية. وأخذت تضيف إليها بين وقت وآخر غصنًا صغيرًا، أو حفنة من الأوراق والحشائش اليابسة التي اقتطعت في الخريف الماضي من سفح التلال.

وفي أحد أركان المطبخ انكمشت قرب النار عجوز شديدة النحول والتهدم، مدثرة بجلباب سميك أحمر اللون مصنوع من القطن، يعلوه رداء أزرق مرقع.

كانت العجوز تشكو في عينيها مرضًا أليمًا كاد يفقدها البصر ويطبق أجفانها. على أنها برغم ذلك كانت تستطيع أن تميز المرئيات من خلال الثقبين الضيقين، وأخذت تراقب وهج ألسنة اللهب التي كانت تتواثب وتضطرم بين يدي الأم المدربتين. ثم تكلمت أخيرًا، فخرجت الكلمات كالفحيح من فم غائر تجرد من أسنانه، قالت:

- عليك بالاقتصاد في الوقود، لا توجد سوى حزمة واحدة من الحشائش، ونحن لم نزل في أول الربيع وسيطول بنا الوقت قبل أن تنمو الحشائش وتصلح للقطع.

وأنت ترين حالي وما صرت إليه من الشيخوخة والضعف، وأنا أشك في قدرتي بعد على الخروج لإحضار بعض الوقود، فقد

صرت عجوزًا لا نفع منها، وأفضل لها أن تموت.

ألفت العجوز أن تكرر كلماتها الأخيرة مرات في اليوم. وفي كل مرة كانت تنتظر من زوجة ابنها أن تجيبها بهذه العبارة التي قالتها لها الآن حقًّا:

- لا تقولي هذا الكلام يا أمي! ماذا كنا نعمل لو أنك كنت غير موجودة لحراسة البيت أثناء ذهابنا إلى الحقل، للإشراف على الأولاد الصغار حتى لا يقعوا في الترعة؟

فسعلت العجوز سعالًا حادًّا وقالت وهي تلهث:

- صحيح أنا أفعل هذا. يجب حراسة البيت في هذا الزمن الفاسد، زمن اللصوص والنهابين في كل مكان. ولو جاءوا يا ابنتي لرفعت الصوت عاليًا. وأذكر أن الحال كانت تختلف عن هذا في شبابي. كان الإنسان يترك فأسه خارج البيت في أول الليل فيجده مكانه في الفجر، أو يقيد حيوانه خارج الباب فيجده كما تركه في اليوم التالي... و....

ومع أن الأم ضحكت مجاملة وقالت لها: «صحيح يا أمي؟»، فإنها لم تقف للإصغاء إلى العجوز التي لم تكن تفتأ تثرثر طول النهار، بل تركتها تتكلم وراحت تتساءل في نفسها عما إذا كان الوقود سيكفي حتى نهاية الربيع إذ يتم نماء النبت ويتسنى لها أن تذهب بسكينها إلى حيث تقتطع أفرع الأشجار الصغيرة وتلتقط ما تيسر من الحشائش والأوراق. وصحيح أنه كانت توجد في فناء البيت حزمتان من قش الأرز مضمومة أعواده بعناية ومغطاة بطبقة من الطمي الكثيف الصلب صونًا لها من فعل الأمطار

والثلوج. لكن قش الأرز كان أثمن من أن يستخدم وقودًا، فإن أهل المدن هم الذين يجوز لهم وحدهم أن يصطنعوا الوقود من قش الأرز. وكانت هي أو زوجها يذهبان به إلى المدينة بعد جمعه في حزم كبيرة حيث يجنيان من بيعه نقودًا فضية طيبة. وهكذا لم يكن يجوز أن يوقد قش الأرز في غير بيوت المدن.

جعلت الأم تغذي الفرن بالحشائش، واستغرقت هذه المهمة عنايتها فصرفتها عما عداها. وانعكس وهج النار على محياها العريض القوي ذي الشفتين الممتلئتين، والذي لوحته حرارة الشمس ولفحته الرياح فاكتسى لونًا أسمر قاتمًا، ولمعت عيناها السوداوان الصافيتان في ضوء النار. وإذا قيل إن وجهها لم يكن جميلًا ولا وسيمًا فقد كان يشف عن حرارة العاطفة وفرط الطيبة.

كانت زوجة مخلصة وأمًّا بارَّة. كما كانت رفيقة بحماتها العجوز.

واسترسلت العجوز في لغوها، فقد كانت تمضي نهارها وحيدة لا يؤنسها غير حفيديها الصغيرين، إذ كان ابنها وزوجته يسلخان بياض النهار كدًّا في الحقل. فلما عادت الزوجة التي كانت العجوز تحبها أخذت تنهال عليها بمختلف الحديث وهي تسعل بين حين وآخر بسبب الدخان المتدفق من فتحة الفرن، فراحت تقول:

- قلت دائمًا إنه متى جاع الرجل، وخصوصًا إذا كان شابًّا قويًّا كولدي، فإن بيضة مخلوطة بالأرز...

ورفعت العجوز صوتها عاليًا حين قاطعتها مناوشة طفلين تشبثا بكتفي الأم التي انحنت لإمداد النار بالوقود.

لكن الأم ما فتئت منهمكة في إنجاز عملها، وما برح وجهها

محتفظًا بهدوئه. أجل، كانت هادئة وكأنها لم تسمع مناوشة الولد والبنت، ولا صوت العجوز المسترسلة في الحديث.

كانت تفكر في تأخرها قليلًا هذه الليلة عن الموعد المألوف، فقد كان فصل الربيع يقتضيها عملًا كثيرًا، وقد بقيت في الحقل لكي تبذر آخر قدر من الفول. ولم يكن بد من أن يستغل الإنسان إلى أقصى حد هذه الأيام الدافئة والليالي الرطيبة، وهكذا فعلت حينما أتمت هذا البذر. وستدب الحياة هذه الليلة في ذلك الفول الجاف.

وملأت نفسها هذه الفكرة بشعور الغبطة والرضاء، بل ستدب الحياة في سائر نواحي الحقل هذه الليلة حيث التربة دافئة رطبة، وحيث لم يزل زوجها يعمل هناك ويدفن البذور في الأرض بقدميه العاريتين، وقد تركته يعمل وحده إذ سمعت وهي في الحقل بكاء الطفلين وهتافهما باسمها وسارعت بالعودة إلى الدار.

ولما وصلت إلى باب المطبخ ألفت الطفلين يبكيان جوعًا، وكان الولد يبكي بكاءً رفيقًا متصلًا لا أثر فيه للدموع، والبنت تبكي بصوت خافت وتلعق يدها الصغيرة.

وكانت العجوز تنصت إليهما في غير ضيق ولا برم، فقد لاطفتهما حينًا، لكنهما بلغا الآن حدًّا لا تجدي معه ملاطفة، ولذلك تركتهما وشأنهما.

على أن الأم لم تخاطبهما بكلمة، بل تقدمت مسرعة إلى الفرن وانحنت في طريقها وتناولت بعض الوقود. لكن هذه الدلالة كانت أبلغ من كل حديث، فإن الطفل كف عن البكاء وركض خلفها بكل ما تسمح له سنواته الخمس، وتلته الطفلة بقدر ما وسعتها قواها،

إذ كانت لا تجاوز الثالثة إلا قليلًا.

أخذ الطعام يغلي في القدر، وانبعثت من رجات الغطاء الخشبي سحائب البخار مشبعة برائحة سائغة، فتلاحقت أنفاس العجوز وأخذت تطحن فكيها العتيقين طحنًا خفيفًا. وتعالت ألسنة اللهيب تحت القدر حتى بلغت قاعها. ولما لم تجد منصرفًا تمددت وانتشرت، واستحالت دخانًا كثيفًا انصب في فضاء الغرفة الصغيرة، فتراجعت الأم إلى الخلف، وجذبت الطفلة معها، لكن الدخان الخانق وصل إلى الطفلة فأخذت تغمض وتفتح عينيها وتدلكهما بيديها القذرتين، وصرخت باكية وسرعان ما نهضت الأم وحملت الطفلة وأجلستها خارج المطبخ قائلة لها:

- اقعدي هنا! الدخان دائمًا يؤذي عينيك ولا تكفين عن القرب منه.

ونشرت العجوز سمعها شأنها حينما تسمع زوجة ابنها تتكلم، ووجدت في هذا مادة جديدة للكلام، فراحت تقول:

- نعم.. قلت دائمًا إنه لولا اضطراري لإشعال النار طول حياتي الماضية، لما أصبت بهذا العمى. الدخان وحده هو سبب عماي. والدخان...

لكن الأم لم تستمع لكلام العجوز، بل كانت ملقية بسمعها إلى بكاء الطفلة الصغيرة التي انبطحت على الأرض وراحت تصرخ وتدلك عينيها محاولة فتحهما.

والحق أن عيني هذه الطفلة كان بهما حمرة دائمة ورمد متصل. بيد أنه لو قال قائل للأم إن بعيني ابنتها مرضًا لبادرت بهذا الجواب:

- ليس بها شيء. وكل ما هناك أنها تدس رأسها في الدخان كلما أشعلت النار في الفرن.

ما كان بكاء الطفلة ليهز من نفسها وترًا حساسًا كما حدث في الماضي. فقد كان عملها متواصلًا هذه الأيام، والأطفال يأتون سراعًا. وحينما رزقت بطفلها الأول لم تحتمل سماعه يبكي بتاتًا. فقد تصورت في ذلك الحين أنه ينبغي للأم عندما يبكي الطفل أن تسكنه على أي وجه من الوجوه. ولذلك كانت إذا بكى الطفل تكف عما هي آخذة به وترضعه ثديها. وما تكاد تفعل حتى يكون زوجها قد غضب لإمساكها عن العمل في الحقل، ويصيح فيها قائلًا:

- ما هذا؟ هل تفعلين هكذا وتتركين العمل كله لي؟ أنت الآن في أول عهدك بالأولاد وستقضين العشرين سنة القادمة في إرضاع الأولاد. فهل أحتمل هذا؟ لست زوجة لرجل غني حتى ينحصر عملك في الولادة والرضاع واستئجار من يقوم بالعمل؟

وكانت إذا سمعت منه هذا الكلام تواجهه غاضبة مهتاجة، فكلاهما في عنفوان الشباب وحدة الطبع وفورة العاطفة، ثم تصيح في وجهه:

- وهل لا أجد تعويضًا يسيرًا لآلامي؟ هل تعمل الشهور مثلي مثقلًا بالحمل؟ وهل تعاني آلام الوضع؟، لا، إنك لا تذهب إلى البيت حتى تستريح. أما أنا فأطهو الطعام وأهتم بالطفل وألاطف العجوز وأنظر في هذا وذاك.

وهكذا كانت تنشب بينهما مشادات حامية لا غالب فيها ولا مغلوب

إذ كانا متكافئين. لكن هذا الشجار لم يدم طويلًا، فسرعان ما جف ثدياها، إذ كان تحمل في سرعان وخصب الحيوان القوي الصحيح، بل إن لبنها قد نضب في الوقت الحالي، وإن كانت قد أجهضت في الصيف الماضي على إثر اصطدامها بالمحراث وسقوطها على الأرض.

وإذن فقد كان على الأطفال أن يصبروا. وإذا لم يكن بد من بكائهم فليبكوا ما شاءوا. فلم يكن بوسعها أن تركض إليهم لإرضاعهم ثديها. ولا مفر لهم من الانتظار والصبر على الجوع حتى تعود إليهم.

وهكذا كانت الأم تتكلم، لكن الواقع أن قلبها كان أرق من حديثها. ولم يكن يسعها إلا أن تسارع إلى أطفالها حينما تسمع نداءهم لها.

ولما غلت القدر وقتًا وامتزج الدخان بشذى الأرز جاءت الأم بصحفة وملأتها للعجوز ثم وضعتها على الخوان في الغرفة الكبرى حيث يعيش الجميع، وسارت بالعجوز إليها وهي لا تكاد تعي لغوها وقولها: «وإذا خلطت البازلاء بالأرز نتج منهما لون شهي لذيذ». ثم جلست العجوز إلى الخوان وأمسكت بالصحفة بين يديها الجافتين الباردتين ولزمت الصمت وقد عرتها فجأة رعشة النهم، وسال اللعاب من جانبي فمها المغضن. وقالت مستاءة:

- أين الملعقة؟ لا أجد ملعقتي!

فوضعت الأم الملعقة في يد العجوز وخرجت من الغرفة إلى المطبخ، حيث جاءت بصحفتين أخريين أصغر حجمًا وملأتهما أرزًا، وتناولت ملعقتين من خشب الخيزران وحملت إحدى

الصحفتين إلى الطفلة التي ما زالت تبكي وتفرك عينيها بيديها. وكانت الطفلة جالسة على الأرض وقد امتزج الوحل فوق وجهها بالدموع.

فأنهضتها الأم على قدميها ومسحت وجهها براحة يدها الخشنة السمراء، ورفعت طرف جلبابها المرقع وجففت دموعها.

فعلت الأم هذا مترفقة، فقد كانت عينا الطفلة حمراوين، وتدلت أجفانها وشابتهما حمرة شديدة. ولما أشاحت الطفلة برأسها وهي تغمض وتفتح عينيها باكية تركتها الأم ولم تعرضها وقد تألمت وقلقت لحالها. وضعت الصحفة فوق خوان خشن خارج الباب وقالت للطفلة بصوتها المرتفع:

- تعالي... كلي.

وتقدمت الطفلة متعثرة ووقفت متشبثة بالخوان وهي تكاد تغمض عينيها المحمرتين في أشعة الشمس الآفلة، ومدت يديها إلى الصحفة. فهتفت الأم:

- حاسبي... سخن..!

فترددت الطفلة، وأخذت تنفخ في الطعام لتبريده. لكن الأم جعلت تحدق فيها قلقة، وغمغمت لنفسها:

- حينما يقصد إلى المدينة حاملًا قش الأرز سأطلب منه أن يذهب إلى أحد حوانيت الأدوية لشراء دواء لرمد العيون.

وما لبث الولد أن تذمر لأنها لم تقدم له صحفته مثل أخته. فذهبت إليه ووضعتها فوق الخوان. وساد الصمت بعض الوقت.

وأحست الأم بتعب شديد حال دون أن تأكل، فزفرت زفرة عميقة وحملت مقعدًا صغيرًا من الخيزران ووضعته قرب الباب وجلست فوقه. وتنفست من أعماق رئتيها وجعلت تسوي شعرها الأشعث الأغبر بيديها، وأدارت نظرها فيما حولها.

أخذ الظلام ينسدل فوق التلال المنخفضة المحيطة بالوادي، وشحب وجه الأفق. وفي بطن الوادي حيث قامت المزرعة الصغيرة بدأت سحب الدخان تنبعث من مساكن القرية مؤذنة بانهماك أهليها في إعداد طعام العشاء وجعلت الأم تراقب الدخان المتصاعد بطيئًا في الهواء الساكن وهي راضية قريرة. فقد خطر لها فجأة أنه ليس بين أمهات المزرعة المؤلفة من بضعة بيوت لا تجاوز أصابع اليدين من تعنى بأطفالها خيرًا من عنايتها بأطفالها. وصحيح أن بعضهن كن أغنى منها مالًا، فإن زوجة صاحب الخان مثلًا كانت تملك بعض الأقراط والخواتم التي كانت الأم تشتهيها في طفولتها دون أن تنالها. لكن الأم كانت تفضل أن تمنح طفليها أفضل ما عندها من طعام حتى ينشآ صحيحين قويين. وقد أذاعت امرأة المزارع الثرثارة أن صاحب الخان اعتاد أن يطعم أولاده فضلات اللحم المتبقي في صحائف نزلائه.

أما الأم فكانت تقدم لطفليها خير ما تنبت أرضهما من الأرز، ولولا رمد عين الطفلة لما وجد ما يشكون منه. فقد كان الجميع صحاح الأجسام مكتملي النمو، ويكاد الناظر يحسب الطفل في السابعة أو الثامنة من عمره. أجل، فقد كانت الأم توهب أبدًا أطفالًا صحاحًا. ولو لم يلفظ ذلك الطفل الذي أجهضت فيه أنفاسه حينما صافحت عيناه نور الوجود لعاش الآن وكان ولدًا ناميًا

صحيحًا كأخيه، يحاول أن يدب على قدميه.

تنهدت الأم ثانية، ومهما يكن من شيء فهي توشك أن تضع وليدًا جديدًا في غضون شهر أو شهرين، وفي هذا ما يستغرق تفكيرها. لكنها كانت جذلة راضية. نعم...

كانت شديدة الجذل والرضاء كلما حملت طفلًا وامتلأت أحشاؤها بكائن جديد تدب فيه الحياة.

ثم رأت الأم شخصًا يخرج إلى شارع المزرعة الصغيرة من أحد البيوت، وعرفت فيه امرأة عم زوجها. فقالت لها:

- آه. أنت تطهين أيضًا طعامك. إني فرغت منذ قليل.

فأجابتها المرأة:

- نعم. وكنت أقول لنفسي الآن إنك فرغت، وإنك سريعة في عملك. لكن الأم قالت بصوت مرتفع وبلهجة المجاملة:

- لا، لا. الحقيقة أن أولادي يجوعون بسرعة!

فهتفت زوجة العم:

- بل أنت امرأة قديرة، سريعة.

ثم دلفت ثانية إلى داخل بيتها بعد أن حملت الحشائش التي خرجت لتناولها. وجلست الأم في ضوء الشفق تعلو وجهها ابتسامة. فقد كان لها أن تفخر حقًّا بنفسها، وبقوتها، وبطفليها، وبزوجها. وفجأة رن صوت الولد قائلًا وهو يدفع صحفته إلى الأمام:

- أمي. (كمان).

فنهضت الأم لكي تملأ الصحفة، ولما خرجت ثانية إلى الباب رأت قرص الشمس ينحدر بين التلال المحيطة بالحقل حيث قضت نهارها في العمل. ثم شاهدت زوجها عائدًا إلى البيت متأبطًا فأسه سائرًا بخفة ونشاط. وفجأة سمعته يغني، وكان صوته عاليًا متموجًا صافيًا. وكان يلم بكثير من المقطوعات الغنائية. وكثيرًا ما كان يدعى أيام الراحة للغناء في حانوت الشاي حيث يزجي وقت الحضور ويسليهم... ولما وصل الآن إلى الدار لم يكف عن غنائه، ولكنه جعل يغني بصوت أقل ارتفاعًا.

ثم وضع فأسه قرب الجدار. ولما سمعت العجوز صوته أفاقت من غفوة انتابتها بعد شبعها، واستأنفت الكلام وكأنها لم تسكت، فقالت:

- قلت إن ابني يحب البازلاء المخلوطة بالأرز، وهو طعام شهي لذيذ.

فضحك الرجل ضحكة طبيعية متكاسلة ودخل البيت، وقال بصوت عذب:

- نعم يا أمي، أنا أحب هذا اللون فعلًا.

وفي خارج البيت كانت الابنة قد شبعت وجلست جامدة، ولما ذهبت الشمس فتحت عينيها قليلًا ووتطلعت حولها في يسر وفي غير ألم. وذهبت الأم إلى المطبخ وملأت للرجل صحفة حتى حافتها ووضعت في وسط الأرز الساخن بيضة اقتصدتها من بيض الدجاج القليل الذي يملكونه. فقد كان حقًّا للرجل أن يظفر ببعض اللحم أو البيض وهو يكد طول يومه. ومهما حدث بينهما

من التشاد فقد كانت تحب أن تراه ينال قسطًا وفيرًا من الطعام، وكانت ترى أن هذا التشاد والتشاحن لم يكن يتجاوز اللسان إلى القلب. وقالت المرأة للعجوز:

- إني وضعت بيضة طازجة في أرز ولدك. وقدمت له أيضًا بعض الكرنب.

فما كادت العجوز تسمع هذا الكلام حتى قالت من فورها:

- آه، نعم، بيضة طازجة. قلت دائمًا بيضة طازجة. هي أفضل شيء للشاب، هي تعيد القوة.

لكن أحدًا لم ينصت إليها، فقد كان الرجل شديد الجوع وجعل يأكل مسرعًا، وطلب إلى الأم أن تملأ صحفته من جديد وهو يضرب بها فوق الخوان حتى يستحثها. ولما ملأتها وقدمتها له جاءت لنفسها بصحفة، لكنها لم تجلس بجانب زوجها، بل تناولت مقعدًا منخفضًا وجلست فوقه قرب الباب وجعلت تلتهم طعامها راضية متلذذة. وبين وقت وآخر كانت تنهض وتقتطع لنفسها بعض الكرنب من صحفة الرجل. وجاء الطفلان واستندا إليها وفتح كلاهما فمه لكي يتلقفا منها بعض الطعام، فلم تبخل عليهما، ومع أنهما تناولا نصيبهما وشعرا بالامتلاء فقد كان الطعام من صحفة الأم أحلى مذاقًا وألذ طعمًا. بل إن الكلب الأصفر تقدم نحوها مطمئنًا، فقد انكمش حينًا تحت خوان الرجل طمعًا في بعض الفتات، لكن الرجل ركله بقدمه وطرده بعيدًا، فجاء إلى الأم وجعل يلتقط بعض الأرز الذي كانت تلقيه إليه.

كررت الأم ملء صحفة الرجل ثلاث مرات، ولما شعر بالامتلاء

غمغم راضيًا.. وصبت الأم في صحفته الخاوية ماء مغليًّا، فأخذ الرجل يحتسيه، ثم خرج إلى الباب وجعل يحتسي الماء بصوت مرتفع. ولما فرغ حملت منه الصحفة ودخلت بها. ووقف في مكانه يردد نظره في هذه المنطقة الزراعية التي شملها الظلام، وبزغ الهلال ضئيلًا في صفحة السماء، فحدق الرجل فيه وأنشأ يغني أغنية رقيقة.

ثم أخذ الرجال يخرجون من بيوتهم مثله، وجعل بعضهم يتنادى مع بعض بشأن لعبة ابتدأوا فيها في الخان. ووقف آخرون عند أبوابهم يتثاءبون.

وكف الزوج الشاب عن الغناء فجأة واستقر نظره عند الشارع.

كان هناك رجل واحد يواصل العمل والكل مستسلم للراحة، ذلك هو عمه الذي لا يكف عن العمل حتى في الليل، وألقى عليه نظرة وهو جالس أمام داره منهمكًا في صنع سلة من أغصان الصفصاف. لكن هذا العم إذا رضي لنفسه هذا العمل المتصل فإن الزوج الشاب ما كان يرضى ذلك لنفسه. ولا بد له من الراحة والترفيه عن النفس. ولا بد له من المقامرة قليلًا، فأدار رأسه لمخاطبة زوجته في هذا الشأن. وسرعان ما قابلته بنظرتها العدائية وقد أدركت قصده. فلم يتمالك الرجل أن لعنها في سره. أليس من حقه أن يقامر بعض الوقت في ليله بعد أن قضى نهاره في الكد والعمل الشاق؟ هل كتب عليه أن يفني حياته في العمل المستمر على أنه لم يستطع أن يصمد لتلك النظرة الصارمة الغاضبة، ولم يلبث أن هز كتفيه كالطفل المغلوب على أمره،

وقال:

- سأنام بعد هذا النهار الشاق؟ أنا متعب جدًّا، ولا أقدر على اللعب هذه الليلة.

ودلف إلى داخل البيت وألقى بنفسه فوق الفراش وتمدد وتثاءب. وفجأة قالت العجوز وهي لم تستطع أن تبصر شيئًا في الغرفة المظلمة:

- هل ذهب ابني إلى فراشه؟

فأجابها غاضبًا:

- نعم يا أمي. وهل يمكن غير ذلك في مثل هذا المكان المحدود الفارغ؟ شغل ونوم! شغل ونوم!

فقالت العجوز في جذل دون أن تفطن إلى لهجة الغضب التي مازجت صوته:

- نعم، نعم. شغل ونوم.

ونهضت من مكانها وجعلت تتحسس طريقها إلى فراشها، وهو مرتبة من القش في ركن الغرفة خلف ستار أزرق من القطن. وفي هذا الوقت كان الرجل قد استغرق في النوم.

ولما سمعت الأم صوت غطيط زوجها نهضت وتبعها الطفلان وهما يتشبثان بجلبابها، فغسلت الصحاف بقليل من ماء (الزير) البارد الموضوع قرب باب المطبخ، ووضعتها في تجويف في الحائط المشيد بالطين... وذهبت إلى الجهة الخلفية للدار وملأت دلوًا خشبيًّا من بئر ضحلة وصبت الماء في (الزير).. ثم عادت

إلى الخارج وفكت عقال الجاموسة وأطعمتها بعض القش وقليلًا من الحبوب. وقادتها إلى داخل الدار حيث قيدتها إلى إحدى قوائم الفراش الذي نام الرجل فوقه.. وفي هذا الوقت كان الدجاج يوشك أن يستسلم للنوم أسفل الفراش.. وأخذ ينق قليلًا عند دخولها، ثم لزم الصمت.

وخرجت مرة أخرى من الدار ورفعت صوتها منادية، فجاوبها خنزير من خلال الظلام، وكانت قد أطعمته وقت الظهر، ولذا لم تقدم له الآن شيئًا من الطعام.

وجعلت تدفعه أمامها برفق حتى أدخلته، وتركت الكلب الأصفر وحده في الفناء ليقوم بواجب الحراسة.

وفي أثناء ذلك كله كان الطفلان يتبعانها جيئة وذهابًا، وما لبثا الآن أن تشبثا بساقيها باكيين، فوقفت ورفعت الطفلة فوق ساعدها وقادت الولد من يده، ودخلت بهما إلى الدار وأوصدت الباب خلفها.

وتقدمت إلى الفراش ومددت الطفلين عند قدمي الرجل، وجعلت تنزع ملابسهما وملابسها الخارجية في رفق وهدوء. ولما تم لها ذلك تمددت بدورها بين الرجل والطفلين، وجذبت الغطاء فوقهم جميعًا.

انطرحت الأم في مكانها ساكنة وقد أحس جسدها القوي بوطأة التعب، وكانت في تمددها هذا كتلة من الرقة والحنو. ومهما نفد صبرها في غضون النهار، ومهما امتلأ صدرها بنزوات الغضب العارمة فقد كانت في ليلها تستحيل مخلوقة رقيقة عاطفة. عاطفة

على الرجل الذي يرقد بجوارها... عاطفة على الطفلين اللذين استسلما لسلطان النوم. عاطفة على العجوز إذا انتابها السعال ليلًا، فتنهض من مكانها لموافاتها بقليل من الماء... بل عاطفة حتى على الحيوانات إذا تدافعت وأثار بعضها بعضًا. إذ كانت تخاطبها بقولها: «اسكتوا... ناموا... النهار بعيد»... ولا تكاد الحيوانات تسمع صوتها الأجش الرحيم حتى تهدأ وتعود للنوم.

وفي إبان الظلام تقلب الطفل في مضجعه والتمس ثديها، فتركته يرضع وهي مستسلمة للخدر اللذيذ، ومع أن ثديها كان جافًّا فقد كان فيه للطفل ذكرى مريحة مسكنة، ولن يلبث أن يمتلئ عن قريب. وبجانب الطفل تمددت الطفلة موصدة العينين شديدة التصاق الجفنين، وكانت لا تنفك تفركهما بيديها حتى في نومها لفرط ما تحس من ألم والتهاب.

لكن سرعان ما استسلم الجميع للنوم، ولو نبح أحد الكلاب في الليل ما استيقظ منهم أحد. فقد كانت هذه الأصوات مألوفة في أسماعهم، إلا الأم التي كانت تستيقظ وتنصت، حتى إذا لم تجد ما يدعوها للنهوض عاودت النوم من جديد.

* * *

الفصل الثاني

ترى هل كانت الأيام تختلف وتتغاير في نظر الأم؟

كانت الأم تنهض في الفجر والكل نيام، فتطلق الدجاج والخنزير والجاموسة وتقودها إلى الفناء. ثم تنظف مرابطها وتحمل الروث المتخلف منها إلى الكوم الموضوع في أحد أركان الفناء السالف الذكر. وتذهب إلى المطبخ حيث تغلي الماء لكي يشربه زوجها وأمه العجوز وتضع بعض هذا الماء المغلي في وعاء لكي تغسل به عيني الطفلة.

كانت هذه الطفلة تنهض صباح كل يوم موصدة العينين لا ترى بتاتًا حتى تغسل الأم عينيها. وقد فزعت الطفلة أول الأمر وجزعت الأم لكن الجدة العجوز راحت تقول:

- كانت هذه حالي في طفولتي، ولم أمت بسبب عيني!

والآن قد ألف الجميع هذه الحال واطمأنوا إليها وعلموا أن هذا هو شأن الأطفال وأنهم لا يموتون بسببه. وما كادت الأم تصب الماء حتى جاء الولد يقود أخته من يدها، فقد انسل كلاهما من الفراش بسكون حذرًا من إيقاظ الأب والاستهداف لغضبه، إذ كان رغم مرحه يغضب أشد الغضب إذا أوقظ قبل أن يستوفي قسطه من النوم، ولا يتردد في لطمهما بيديه.

وقف الطفلان لدى الباب ساكنين، وجعل الولد يفتح ويغمض عينيه من تأثير النوم، وراح ينظر إلى أمه وهو يتثاءب. أما البنت

فقد وقفت في مكانها صابرة ممتثلة وهي مطبقة الجفنين.

ثم نهضت الأم مسرعة وتناولت المنشفة السمراء المعلقة في وتد خشبي بالحائط، فغمست طرفها في ماء الوعاء وجعلت تمسح بتؤدة عيني الطفلة، فأخذت الطفلة تئن وتبكي بكاء خافتًا لا يكاد يسمع. وراحت الأم تناجي نفسها كما كانت تفعل صباح كل يوم:

- لا بد من البحث عن دواء لعيني البنت، سأطلب منه حينما يذهب لبيع قش الأرز، إذا لم أنس، أن يذهب إلى أحد حوانيت الأدوية، فإني أعرف حانوتًا عند باب المدينة في شارع ضيق هناك.

وفيما هي تناجي نفسها بهذه الخواطر جاء الرجل إلى الباب وهو يلتف بملابسه ويتثاءب ويحك رأسه. وما لبثت الأم أن أعربت عما يخالج نفسها قائلة:

- عندما تذهب لبيع قش الأرز في المرة القادمة، فاقصد إلى حانوت الأدوية القريب من باب المدينة، واطلب دواء للعيون المريضة كعيني هذه البنت.

لكن الرجل كان ضيق الصدر من تأثير النوم، وقال متبرمًا:

- ولم نضيع مالنا القليل في شراء دواء للعيون المريضة ما دام يستحيل أن تموت بهذا السبب؟ إني كنت أشكو مرض العينين في صغري، ولم ينفق أبي شيئًا عليَّ لهذا السبب، رغم أني كنت ابنه الوحيد الذي بقي على قيد الحياة.

رأت الأم أن الوقت غير صالح للجدل، فلم تزد شيئًا عما قالت. وصبت للرجل ما يحتاج إليه من الماء. غير أنها كانت غاضبة

كذلك، فلم تقدم الماء إليه، بل وضعته فوق الخوان حتى يأخذه بيده.

وفجأة استيقظت العجوز ونادت بصوت منخفض، فحملت لها الأم إناء من الماء الدافئ لكي تشربه قبل أن تنهض. وجعلت العجوز تحتسي الماء بصوت مسموع، ثم تجشأت وأخذت تشكو ما ينتابها من الضعف في الصباح.

ثم قصدت الأم إلى المطبخ وأخذت في إعداد طعام الإفطار. وجلس الطفلان فوق الأرض متضامين بسبب برودة الصباح الباكر، ثم نهض الولد أخيرًا وذهب إلى حيث كانت أمه تشعل النار، أما البنت فقد لزمت مكانها.

وفجأة أشرقت الشمس وغمرت أشعتها أرجاء المزرعة وسقطت فوق عيني الطفلة فأغمضتهما بسرعة، وكاد الألم يدفعها للبكاء غير أنها أخذت تلهث وغالبت نفسها كما يفعل الإنسان البالغ، وجلست في مكانها ساكنة وقد أطبقت جفنيها المحمرين ولم تتحرك حتى وافتها أمها بالطعام ودفعته بين يديها.

أجل... هكذا كان شأن الأم كل يوم... لكنها لم تتململ مرة من تعاقب الأيام على هذا النحو ولم تتبرم بتشابهها وتماثلها. ولو خاطبها أحد في هذا الصدد لحدقت فيه دهشة بعينيها السوداوين، وقالت له:

- لكن الأرض تتطور بين زمن البذر والحصاد، ثم يُجنى المحصول من أرضنا ويُدفع نصيب مالك هذه الأرض التي نستأجرها حبوبًا. ثم هناك أيام الأعياد والسنة الجديدة. نعم، وحتى

الأطفال يتغيرون ويشبون، ثم أحمل من جديد. كل شيء يتغير في نظري، بل كل شيء يتطور ويحملني على العمل من مطلع الفجر إلى مغرب الشمس.

وإذا انفتح أمامها الوقت رأت نساء المزرعة بين حامل توشك أن تضع، وأخرى تندب وليدًا لها مات، وثالثة اهتدت إلى طريقة جديدة لتفصيل الثياب.

لكن الواقع أن هذه المرأة كانت من طراز لا يستهويه في الدنيا سوى مجاورة الرجل والأطفال ولا يغريها شيء بالتفكير في غيرهم.

كل ما كان يعنيها من الدنيا هو أن تلمس عاطفة الرجل، وأن تحس الحياة تدب وتنمو في أحشائها، وأن تضع وليدًا تقدم له ثدييها.

ثم تنهض في الفجر فتقدم الطعام لأهل البيت وتقيت الدواب، وتبذر الحب وتجني الثمار، وترفع الماء من البئر لكي يشرب منه ذووها، وتمضي إلى الروابي والتلال فتجمع الحشائش البرية وتستشعر حرارة الشمس ولفح الهواء.

كانت تستمتع بمظاهر حياتها وتعاقب أدوارها فيها. تستمتع بالوضع والعمل في الحقل، والأكل والشرب والنوم، وكنس الدار وترتيبها، وسماع نساء المزرعة يثنين على براعتها في العمل والحياكة، بل إن التشاحن مع الرجل كان أمرًا طيبًا وعاملًا على إذكاء عاطفتهما. ومن أجل هذا كله كانت تستقبل اليوم الجديد بنشاط وحمية.

وفي هذا اليوم الذي تقدم وصفه، أفطر الرجل وحمل فأسه وقصد إلى الحقل متباطئًا كعادته، فتقدمت الأم إلى الصحاف لغسلها، وجلست العجوز في حرارة الشمس، وأمرت الطفلين باللعب قرب البيت، بعيدًا عن الترعة، ثم حملت فأسها وسارت في طريقها، غير أنها وقفت مرة أو اثنتين وألقت نظرة إلى الخلف.

حمل النسيم إلى سمعها صوت العجوز الرقيق يتردد خافتًا، فابتسمت وواصلت طرقها، فقد كانت حراسة الدار هي قصارى ما تضطلع به هذه العجوز. وكانت تقوم بهذا القسط فخورة مزهوة، فهي رغم شيخوختها واضمحلال بصرها لم تزل بها القدرة على النظر وتمييز المخلوقات، ولو دنا من الدار كائن غريب لرفعت الصوت عاليًا صائحة مستنجدة.

وصحيح أن العجوز كانت حملًا ثقيلًا، وعالة كالأطفال الصغار أو أشد كثيرًا، فكلما طعنت في السن زادت عنادًا واستعصت على الزجر والتأديب. لكن الأم حينما سمعت زوجة العم تقول لها يومًا هذه العبارة: «سيكون من دواعي راحتك وحسن حظك إذا ماتت هذه المخلوقة الطاعنة في السن، فقد شاخت وعميت وتكاثرت عليها الأمراض والأوجاع وازدادت خرفًا وعنادًا»- لم يكن منها إلا أن أجابت بلهجتها الوادعة الرقيعة: «نعم لكن ما زال بها نفع كبير لنا، فهي تقوم بحراسة الدار، وأرجو أن تعيش حتى تكبر البنت ويشتد عودها».

أجل... لم يكن من طبع الأم أن تقسو على العجوز وتشتد في معاملتها، وكانت قد سمعت عن النساء اللائي يشهرن الحرب على

أمهات أزواجهن ويضقن ذرعًا بهن. لكن العجوز لم تكن في نظر هذه الأم الطيبة الشابة أكثر من طفل صغير، وكثيرًا ما كانت تحملها على ارتياد الروابي أو التلال لجمع بعض الأعشاب التي تشتهيها. على أنه حينما مرضت العجوز ذات يوم وأيقن الجميع من قرب موتها وجيء لها بنعش لنقل جثتها، كم كان فرح الأم إذ رأت العجوز تتشبث بالحياة وتغالب الموت فتغلبه. نعم... لقد أفنت هذه العجوز كفنين، لكن الأم كانت تفرح كل مرة بعودتها إلى الحياة، وكان أهل المزرعة يتندرون بجلد العجوز ويتفكهون بمغالبتها للفناء. وكانت العجوز ترتدي اللباب الأحمر الذي صنعته الأم كفنًا لها، تحت جلباب آخر أزرق، كما كانت العادة في تلك الجهات... حتى إذا بليت أطرافه وتناثرت خيوطه صنعت لها الأم جلبابًا ثانيًا فلبسته العجوز فرحة به. وكلما سألها سائل: «ألا تزالين أيتها العجوز على قيد الحياة؟»- أجابته في جذل:

«نعم... لا زلت أعيش، وأرتدي كفني، وسأبليه كما أبليت سابقه... ولست أعلم كم سأبلي غيره!».

وهكذا كانت العجوز تضحك وتغرق في الضحك كلما رأت أنها ما زالت تستروح نسيم الحياة وتقصر عنها يد الموت والفناء.

ألقت الأم نظرة أخيرة خلفها باسمة حينما استعرضت هذه الذكريات وسمعت العجوز تقول لها: «اطمئني يا ابنتي، أنا موجودة لحراسة الدار».

أجل... إنها ستحرم من معاونة هذه العجوز إذا طواها الموت. لكن الموت غالب لا يقهر، ولا سبيل إلى دفع عواديه إذا حم

القضاء.

وهكذا مضت الأم في طريقها هادئة النفس ساكنة الخاطر.

الفصل الثالث

ما كاد نبات الفول الذي غرست الأم بذوره ينمو ويزدهر ويمتلئ الهواء بشذاه حتى وضعت الأم طفلها الرابع. ولم تكن توجد قابلات في هذه المزرعة كما هو الشأن في المدن والبلدان والقرى الكبيرة. لكن نساء المزرعة كن يتعاون في مسائل الوضع، وكان بها جدات قادرات على التلقين والإرشاد إذا وقع خطأ أو استعصى وليد أو تحيرت أم في الولادة. بيد أن الأم كانت حسنة التركيب لا عيب في بنيانها. بل إنها لم تعان مشقة حتى حين أجهضت، فقد وضعت في يسر ولم تقاس شيئًا من الألم إلا ألم الحسرة على الوليد الذي لم يستكمل عدته، وذهاب جهود الحمل في غير طائل.

كانت الأم إذا حضرتها الولادة تستعين بزوجة العم، كما تستعين هذه بها إذا حانت ساعتها.

ففي يوم من أيام الربيع رق نسيمه وصفت سماؤه أحست الأم بأن ساعة الوضع قد حانت، فاجتازت الحقل حتى إذا أشرفت على الدار تركت الفأس من يدها ونادت زوجة العم التي كانت تغسل ملابس ذويها عند حافة الترعة، فسارعت إلى الأم وهي تجفف يديها.

كانت زوجة العم امرأة طيبة القلب صافية السريرة، ذات وجه مستدير أسمر وأنف أفطس وفم كبير أحمر، وهي فوق هذا ثرثارة بعكس زوجها الصموت. وما كادت تسمع النداء حتى ركضت وهتفت ضاحكة:

- من حسن الحظ يا أختي أننا لا نلد في وقت واحد. إني راقبتك زمنًا وجعلت أتساءل من منا تسبق الأخرى في الوضع. لكني تأخرت في الحمل هذه السنة عن مألوف عادتي، وأنت على وشك الولادة في الوقت الذي بدأت أنا أحمل فيه.

فاهت زوجة العم بهذه الكلمات في صوت مرتفع رنان كعادتها، فسمعتها نساء المزرعة ونادين من بيوتهن فرحات:

- جاءت ساعتك يا أختي؟ نتمنى لك حظًّا... وولدًا..

وكان بين نساء المزرعة أرملة ثرثارة، فقالت من بيتها:

- نعم، استنفدي زوجك ما دام معك، فهأنذا امرأة صالحة للحمل والولادة ولا رجل عندي.

لكن الأم لم تجب، وإنما ابتسمت ابتسامة يسيرة وقد بدا لونها شاحبًا لما شابها من الغبار والعرق، ثم دلفت إلى داخل الدار.

وتبعتها العجوز إلى الداخل وهي تثرثر وتضحك سرورًا بهذه المناسبة، وقالت:

- كنت أقول كلما جاءت ساعتي، وأنت تعلمين يا ابنتي أني وضعت تسعة أولاد كانوا جميعًا أصحاء أقوياء حتى مماتهم... كنت أقول دائمًا..

لكن الأم لم تنصت إليها، بل تناولت مقعدًا صغيرًا جلست فوقه دون أن تتكلم، وجعلت تسوي شعرها الأشعث بيديها اللتين غمرهما العرق، لا عرق الحقل، وإنما عرق الألم، ثم تناولت طرف جلبابها ومسحت وجهها وفكت جدائل شعرها الطويل

الكثيف وعقدته من جديد. وفجأة انتابها ألم حاد، فانحنت إلى الأمام صامتة، وجعلت تنتظر.

وكانت العجوز مسترسلة في الكلام بجانبها زوجة العم تضحك منها، فلما رأت هذه انحناء الأم أسرعت إلى الباب وأغلقته ووقفت تنتظر. لكن سمع طرق الولد فجأة على الباب، فقد رأى الباب يوصد بالنهار وأمه في الداخل، فأخذه الخوف وصرخ وطلب أن يفتح الباب، فقالت الأم أول الأمر: «دعوه في الخارج حتى أنتهي بسلام». وتقدمت زوجة العم إلى الباب وصاحت من فتحته: «انتظر مكانك حتى تنتهي أمك» وأعقبتها العجوز قائلة: «انتظر مكانك يا ولدي، وسأعطيك ما تشتري به بعض الحلوى إذا بقيت تلعب، وسترى ما تجيء به أمك بعد قليل!».

لكن الولد تملكه الخوف إذ رأى الباب يوصد في النهار وصمم على الدخول، وأخذت البنت تبكي كذلك كعادتها كلما رأت أخاها يبكي وتقدمت تتحسس طريقها إلى الباب وأخذت تضربه بقبضتي يديها النحيلتين، فغضبت الأم آخر الأمر وزاد غضبها حينما اشتد بها ألم المخاض. ونهضت من مكانها واندفعت إلى الباب ولطمت الولد بشدة وصاحت في وجهه: «طول عمرك تعذبني ولا تسمع كلامي! وهذا ولد آخر سيجيء مثلك!».

لكنها ما كادت تضرب الولد حتى لان قلبها وذهب غضبها وقالت في لهجة أرق: «لكن تعال ادخل إذا لم يكن بد من دخولك. ولن ترى شيئًا غريبًا»... ثم استطردت تخاطب زوجة العم: «اتركي الباب مفتوحًا قليلًا فهم لم يعتادوا هذا».

ثم عادت إلى الجلوس وأمسكت رأسها بيديها واستسلمت للألم صامتة. أما الولد فقد دخل ولما لم ير شيئًا وأحس بزوجة العم تحدجه بنظرات صارمة وكأنه ارتكب شيئًا فقد خرج ثانية. لكن البنت دخلت وجلست على الأرض قرب أمها وظللت عينيها بيديها تخفيفًا لألمها.

وهكذا جلسن جميعًا منتظرات... الأم صامتة متألمة... والمرأتان الأخريان تتجاذبان أطراف الحديث عن شئون المزرعة وأحوال أهليها، وتكلمت زوجة العم عن ذلك الرجل المقيم عند طرف المزرعة، الذي انهمك في المقامرة تاركًا أرضه خواء، وكيف أنه تشاجر اليوم مشاجرة حامية مع زوجته واغتصب آخر ما يملكان من دراهم، وغادر بيته للمقامرة، فخرجت الزوجة البائسة إلى باب الدار تندب حظها وتبث الجميع شكواها. وقالت زوجة العم:

- «وهذا الرجل لم يكسب مرة في حياته، فهو يخسر دائمًا، وهذا ما يحزن زوجته ويزيد كربها».

فلما سمعت العجوز هذا الكلام تنهدت وبصقت على الأرض وقالت:

- نعم، من المحزن أن يخسر الرجل دائمًا ولا يربح شيئًا، لكني أعرف رجالًا كثيرين بهذا الوصف. على أني أحمد الآلهة أن هذا بعيد عن بيتنا، فإن ولدي يربح دائمًا في المقامرة.

لكن العجوز ما كادت تتم كلامها حتى صرخت الأم واستدارت في مكانها بعيدًا عن الابنة وفكت حزامها وانحنت فوق المقعد، فأسرعت زوجة العم إليها وتناولت في يدها المولود الذي

ينتظرنه... وإذا هو ذكر..

أما الأم فقد ذهبت إلى الفراش وتمددت فوقه تستريح من جهدها الشاق، وكم كانت الراحة عذبة على نفسها في هذا الوقت، فنامت نومًا عميقًا متصلًا.

وعمدت زوجة العم إلى المولود فغسلته ولفته ووضعته قرب الأم النائمة التي لم يوقظها صراخه، ثم انصرفت زوجة العم عائدة إلى دارها بعد أن أوصت العجوز أن تبعث بالولد في طلبها عندما تستيقظ أمه.

ثم جاءها الولد بعد ذلك صائحًا: «هل تعرفين أن لي الآن أخًا؟» فغادرت زوجة العم دارها على الأثر حاملة إناء به حساء، وقالت للولد تعاكسه ضاحكة: «وكيف لا أعرف وقد حملته بين يدي؟».

فوقف الولد يفكر قليلًا، ولما أعلن إشفاقه وخوفه ألا يبقى الوليد في بيت والديه، لم تتمالك زوجة العم أن ضحكت من سذاجته وشاركتها العجوز ضحكها.

وتناولت الأم الحساء الذي حملته إليها زجة العم ممتنة شاكرة، وغمغمت قائلة: «هذا كرم منك يا أختي».

لكن زوجة العم أجابتها قائلة:

- ألست تفعلين مثل هذا لأجلي إذا جاءت ساعتي؟

وهكذا شعرت المرأتان بهذه الرابطة الوثيقة التي تجمع بينهما صديقتين متعاطفتين متساندتين! رابطة الولادة، تلك التي تتجدد وتتكرر كل عام.

* * *

الفصل الرابع

ذلك كان شأن الأم.

أما الأب فكان له شأن آخر. فقد كانت الحياة لا تتغير في نظره ولا أمل أمامه في جديد.

بل إن ولادة الأولاد التي كانت الأم تجد فيها لذة وسعادة لم تكن بالجديدة في عينيه، فقد كان الأولاد يولدون جميعًا سواء متشابهين، لهم عليه واجب القوت والكسوة. وإذا كبروا وجب تزويجهم، ثم يولد لهم أبناء بدورهم فيجيئون جميعًا سواء متشابهين. وهكذا كانت الأيام تتعاقب متماثلة. وكل يوم لا يأتي بجديد.

وهو نفسه قد ولد في هذه المزرعة الصغيرة، ولم ير في حياته جديدًا إلا ما كان من ذهابه أحيانًا إلى البلدة الصغيرة الكائنة وراء التل على ضفاف النهر. وهو إذا استيقظ في الصباح صافح عينيه منظر التلال المنخفضة والسماء التي لا تتغير ولا تتبدل. ثم يذهب إلى الحقل فيظل يكد ويكدح حتى يجن الليل. ثم يعود إلى البيت الذي ولد فيه وينام فوق الفراش الذي نام فيه من قبل مع والديه حتى كبر وأعدت له «مرتبة» خاصة.

أجل... وها هو ذا الآن ينام فوق هذا الفراش مع زوجته وأولاده وتنام أمه العجوز فوق «المرتبة». وهو هو نفس الفراش ونفس البيت. بل لم يكن من جديد في هذا البيت سوى بعض الأدوات القلائل التي جيء بها عند زواجه. وهي إناء لغلي الشاي وغطاء

أزرق فوق الفراش وشمعدان جديد وإله جديد من الورق نصب فوق الحائط. وكان هذا الإله يمثل رجلًا كهلًا عليه مظاهر الغنى والمرح يرتدي ثوبًا مؤلفًا من ألوان حمراء وزرقاء وصفراء متعانقة مؤتلفة. لكنه رغم هذا المظهر الباذخ لم يجيء بالغنى المنشود إلى هذه الدار. وطالما تطلع الرجل إلى هذا الإله ولعنه في ضميره لأنه كان يشرف في مرح على هذه الغرفة الحقيرة التي كانت حقارتها لا تتغير ولا تتبدل.

وكان أحيانًا يعود إلى البيت من المدينة بعد يوم راحة، أو عقب المقامرة في يوم مطير مع بعض الكسالى المتسكعين في الخان. وما يكاد يبلغ هذا البيت الصغير الضيق ويعود إلى هذه المرأة الولود التي تضع له أولادًا عليه أن يكدح لإطعامهم حتى يرى وقد ملك عليه الجزع والرعب شعاب نفسه أنه لن يجد في حياته ما عاش إلا أن يستيقظ في الصباح ويذهب إلى هذه الأرض التي لا يملكون منها إلا قليلًا والتي استأجروها من المالك الذي يحيا حياة الدعة والرفاهية في إحدى المدن القاصية، وإلا أن يسلخ يومه في هذه الأرض المأجورة كما فعل أبوه من قبل، وإلا أن يؤوب إلى البيت ويطعم هذا القوت الجاف الخشن وهو أسوأ ما تغل الأرض التي يكدح فيها، أما الطيب فيباع لغيره لكي يستمتعوا به، وإلا أن يأوي إلى فراشه ليلًا ثم ينهض في الصباح لكي يستأنف يومه على النحو الذي بدأ.

بل إن غلة الأرض لم تكن ملك يمينه، فقد كان مضطرًا لإعطاء نصيب منها لمالك الأرض، وآخر لوكيل المالك المنوط به جباية المحصول، وكان إذا فكر في هذا الوكيل لم يطق ذكراه. فقد كان

رجلًا من أهل المدن طالما تاقت نفسه أن يكون على غراره. إذ كان يرفل في الحرير وعليه مظاهر الدعة والرخاء التي تطبع أصحاب المدن ممن يؤدون عملًا يسيرًا ويطعمون طعامًا طيبًا كثيرًا.

كان الرجل إذا ألحت عليه هذه الأفكار والخواطر يضيق صدره ويشتد تبرمه وسخطه ولا يخاطب المرأة بشيء إلا لكي يسبها لبطئها فيما تقوم به من عمل. وشد ما كان يسره، إذا استفز طبعها الحاد فانبرت له غاضبة، أن يشتبك معها في شجار حامي الوطيس. وكان يجد في هذا ترفيهًا عن نفسه وشفاء لوجده، وإن كانت دائمًا تظفر عليه وتتم لها الغلبة في النهاية إذ هي أحدّ منه طبعًا وأقوى شكيمة.

على أنه لم يكن يستطيع أن يصمد للغضب طويلًا فقد كان يكل ويعمد إلى شيء آخر يسري به عن نفسه وينسى غضبه.

وكان غضبها يبدو في أشد صوره وأعنف مظاهره إذا ضرب أحد الطفلين أو صاح فيه منتهرًا لبكائه، فهي لم تكن تطيق هذا منه، بل كانت تهتاج وتواجهه مواجهة عنيفة وتستنقذ الطفل منه، فيخرج هو أبدًا مهزومًا ويجيء الحق دائمًا في جانب الطفل. ولذلك كان يحنقه منها أن تفضل الأطفال عليه وتؤثرهم دونه. أو هذا ما كان يتصوره.

أجل كان إذا تحالفت عليه تلك الخواطر، يضيق بكل شيء ولا يجد لذة في شيء، حتى في أيام العطلة القلائل وأيام الأعياد وأيام الشتاء الطويل الذي لا يؤدي فيه عملًا، بل يلزم فراشه، وإذا لم

يستطع إلى النوم سبيلًا قضى وقته في المقامرة.

وكان في المقامرة رجلًا مجدودًا موفقًا، وطالما عاد إلى بيته حاملًا أضعاف ما خرج به، وكم خيل إليه أن حياته تكون هانئة على هذا المنوال لو أنه كان وحده. وكان يحب المقامرة وما تقترن به من لذة الانفعال والحماسة، كما كان يستهويه أن يرى الرجال يحفون به وهم يبدون إعجابهم ببراعته وخفة أصابعه. والواقع أن الحظ كان يكمن في أصابعه الرشيقة الخفيفة التي لم تتصلب بتأثير المحراث والفأس. فقد كان فتى في ميعة الشباب ونضارة الصبا، لا يجاوز الثامنة والعشرين من عمره، ولم يشتغل يومًا أكثر مما يجب.

لكن الأم لم تطلع يومًا على قلب الأب ولم تقف على شيء مما يساوره. وكانت تعرف هيامه بالمقامرة. ولكن ماذا يضيرها من هذا وهو لا يخسر في اللعب؟ والحق أن براعته في اللعب كانت موضع زهوها وفخارها. وحين كانت رفيقاتها من أهل المزرعة يندبن حظهن إذ يفقد أزواجهن على مائدة الخان ما يربحونه من الدراهم المعدودة أثناء العمل في الحقول، كانت تبتسم راضية مسرورة من مقدرته على الربح ولا تنحي عليه باللائمة إلا إذا أرادت أن تتخذ من هذا ذريعة لشجار جديد.

ولم تكن تشتد في لومه إذا لم يواصل العمل في الحقل ويثابر مثابرتها، وإن كان في هذه المناسبات لا يسلم من لسانها اللاذع. فقد كانت تعلم أن الرجال لا يقوون على العمل كالنساء. وقد ألفت أن تستمر في عملها بينما يلقي زوجها فأسه ويتمدد فوق الحشائش

النامية بين الحقول وينام ساعة أو ساعتين. لكنها إذا عاتبته مؤنبة بحكم العادة، أجابها قائلًا: «نعم. من حقي أن أنام، فقد اشتغلت ما يكفي لقوتي».

وكانت تود في مثل هذه المناسبات أن تقول له: «أليس لنا إذن أطفال ومن واجبنا أن نعمل كل ما في وسعنا لكي نوفر القوت لهم؟» لكنها كانت تمسك عن مثل هذا الكلام لأنه كان يبدو لها حقًّا أن الأطفال هم أطفالها وحدها ما دام زوجها لا يعمل شيئًا لأجلهم. وفوق هذا فلم يكن لها حضور بديهته في الجواب.

لكنها كانت تغضب أحيانًا وتشتد في الغضب حين تراه يبتاع من المدينة بعض الحلي التافهة من النقود التي باع بها شيئًا من غلة الأرض، أو حين يسكر في غير أيام الأعياد.

كان غضبها يبلغ مداه في مثل هذه المناسبات، ويكتسب مرارة تنسيها أنها تحبه في أعماق قلبها. ويظل هذا الغضب يعمل في نفسها ساعات طوالًا حتى يعجز عن مجاراتها ويلتمس ما ينسيه غضبها.

ففي أحد أيام الخريف عاد إليها متحليًا في إصبعه بخاتم من ذهب، أو زعم أنه من ذهب، وما كادت تراه حتى ثار غضبها وصاحت فيه مهتاجة حانقة:

- أنت.. أنت.. لا تحب أن تساهم بنصيبك في بؤس حياتنا.. بل تذهب وتبذر مالنا القليل في شراء خاتم تلبسه في إصبعك! هل سمع أحد أن رجلًا فقيرًا مسكينًا يلبس خاتمًا في إصبعه؟ إن الغني هو الذي يحق له أن يفعل هذا ولا لوم عليه. لكن إذا فعله رجل

فقير، فهل لذلك من معنى مشرف؟ ذهب؟! من سمع أن خاتمًا من ذهب يشترى بدراهم من نحاس؟

وما كاد الرجل يسمع هذا الكلام حتى صاح فيها وقد ثارت ثائرته وتمرد عليها:

- هو من ذهب كما قلت لك! إن الرجل الذي باعه أخبرني أنه مسروق من بيت أحد الأغنياء، وقد أرانيه سرًّا في الطريق أثناء سيري وكان يخفيه تحت سترته، وسمح لي أن أراه حينما كنت في طريقي.

لكنها قالت له ساخرة:

- نعم.. فقد رأى أمامه مغفلًا يسهل خداعه، وإذا صح أنه من ذهب فهل لم يخطر ببالك أنهم قد يرونه معك في المدينة ويقبضون عليك ويزجون بك في السجن بتهمة السرقة؟ فكيف إذن نعيد لك حريتك، أو نطعمك في السجن؟ أرنيه حتى أنظر إن كان حقًّا من ذهب.

لكنه لم يرض أن يعطيها الخاتم، وهز كتفيه متبرمًا كالطفل، فلم تطق هذا منه، وهجمت عليه وخمشت وجهه الأملس الوسيم وانهالت عليه بضرب عنيف حتى ارتاع منها ولم يسعه إلا أن يخرج الخاتم من إصبعه ويلقيه إليها بازدراء، ولكن في خوف أيضًا قائلًا:

- خذيه! أعرف إنك غاضبة لأني اشتريته لنفسي ولم أشتره لك أنت!

ساورها غضب جديد حين سمعت منه هذه الكلمات، فقد كانت تعلم أنه يقول الحقيقة، وكانت تعاني في نفسها ألمًا خفيًّا إذ تراه لا يبتاع لها حلية تضعها في أذنيها أو في أصابعها كما يفعل الأزواج لزوجاتهم، وقد ساورها هذا الخاطر حين وقع نظرها على الخاتم. وجعلت تحدق فيه، فقال لها في صوت متهدج بالأسى لحظه السيئ وحياته القاسية:

- أنت دائمًا تستكثرين عليَّ أتفه الأشياء، وتحبين أن يتحول كل شيء لهؤلاء الأطفال الذين تربينهم!

وأخذ يبكي بكاء لا ريب فيه وذهب إلى الفراش فانطرح فوقه واستمر في بكائه بصوت عال حتى يصل إلى سمع زوجته. وكانت أمه قد سمعت هذا الشجار خائفة مشفقة، فأسرعت إليه تواسيه وتسري عنه حتى لا يلم به مرض. ورمقت زوجته بنظرات عدائية وقد كانت تحبها دائمًا وتعطف عليها. وبكى الطفلان لبكاء أبيهما، ورأيا في أمهما امرأة قاسية غليظة القلب.

لكن الأم لم تهدأ ثائرتها بعد... فتناولت الخاتم الذي ألقاه الرجل على الأرض ووضعته بين أسنانها وعضت عليه حتى ترى إن كان حقًّا من الذهب ليفيدوا منه فائدة محققة، فقد كان المعروف أن الأدوات المسروقة تباع دائمًا بثمن بخس. على أن المعدن لم يلن تحت أسنانها كما كان يجب لو أنه من ذهب حقًّا، وهتفت في غضب متزايد:

- إذا كان من ذهب، أفلم يكن يلين تحت أسناني؟ هو معدن صلب من نحاس.

وعضت عليه مرة ثانية ثم قالت وهي تبصق الطلاء الزائف الذي يعلوه:

- انظر! إنه لم يكد يطلى حتى بماء الذهب!

لم تطق الأم أن ترى الرجل يغرر به على هذا النحو الصبياني، فابتعدت عنه وخرجت إلى الحقل لكي تشتغل وقد قسا قلبها حتى لم تلق نظرة على الطفلين الباكيين، ولم تستمع للعجوز التي راحت تقول في صوت متهدج يشف عن القلق:

- عندما كنت في شبابي كنت أترك زوجي يلهو ويتمتع، يجب على الزوجة أن تترك زوجها يتمتع قليلًا.

نعم. لم تستمع الزوجة لهذا الكلام، ولم تر فيه ما يهدئ غضبها ويخفف حنقها.

على أنها بعد أن عملت بعض الوقت في الحقل ذهب غضبها دون أن تشعر بتأثير هواء الخريف العليل، وسكنت نفسها قليلًا، وعادت إليها طيبتها. وفيما كانت يدها تنثر الحنطة الشتوية في التربة المحروثة تسلل الهدوء إلى نفسها وتذكرت أنها تحب هذا الرجل حبًّا جمًّا وارتسمت أمام عينيها صورة محياه الضاحك فهزت من فؤادها وترًا حساسًا، وقالت لنفسها مؤنبة:

- سأصنع له في الغداء لونًا لذيذًا، ومهما يكن فإني أسرفت في الغضب بسبب دراهم يسيرة.

اشتدت بها اللهفة إذن وعادت إلى البيت لإعداد الطعام اللذيذ لكي تبرهن له على أنها تبدلت وصفحت. لكنها ألفته لم يزل في

الفراش غاضبًا، وقد تمدد موليًا وجهه شطر الحائط ولم يشأ أن يقول كلمة واحدة. ولما أتمت إعداد الطعام الذي يحبه ونادته لم ينهض ولم يقبل أن يأكل. وقال بصوت شديد الخفوت وكأنه مريض:

- لا يمكن أن آكل. إنك قتلت شهيتي.

لم تجب بكلمة. بل وضعت الصحفة جانبًا وذهبت لاستئناف عملها في الحقل وقد زمت شفتيها، ولم تنضم إلى العجوز وهي تحاول أن تحمل ابنها على الأكل.

تذكرت الأم غضبها ورفضت أن تتقدم نحوه بالرجاء، وفيما هي تغادر الدار لحق بها الكلب وهو يهمهم جائعًا مستعطفًا، فعادت إلى المطبخ حيث كانت الصحفة التي أعدتها للرجل ومدت يدها نحوها قائلة:

- لا بأس. سأقدمها للكلب.

لكنها لم تفعل، ومهما يكن فقد كان هذا الطعام لبني الإنسان، ولا يمكن إضاعته على حيوان. ولذلك أعادت الصحفة إلى الكوة الصغيرة في الحائط وجاءت بقليل من الأرز وقدمته للكلب.

على أنها ما كادت تستلقي ليلًا في الفراش بجانب الطفلين من ناحية والرجل من ناحية أخرى حتى تلاشى غضبها. في هذا الوقت بدا لها أن هذا الرجل لا يعدو أن يكون طفلًا كذلك، وأنه يعتمد في وجوده عليها مثل غيره من أفراد البيت.

ولما طلع النهار نهضت هادئة النفس وادعة الخاطر، وبعد أن

أفطر الجميع إلا زوجها ذهبت إليه وأخذت تلح عليه لكي يقوم ويأكل. فلما بدا له ذلك منها نهض متباطئًا كأنما يقوم من مرض وتناول قليلًا من الصحفة التي أعدتها له، ثم أتى عليها حتى آخرها إذ كانت من لون يحبه. وفيما كان يأكل راحت العجوز تنظر إليه في محبة وهي تطرق مختلف الأحاديث.

لكنه لم يشأ أن يعمل في هذا اليوم، وفيما كانت الأم تغادر البيت ذاهبة إلى الحقل جلس فوق مقعد منخفض في مدخل البيت تحت أشعة الشمس، وهز رأسه في ضعف وقال:

- إني أحس بفتور وألم في قلبي، وسأستريح اليوم.

ورأت الأم أنها أخطأت في حقه حينما أغلظت في معاملته على ذلك النحو، وندمت على ما بدر منها من الغضب، وقالت له مواسية:

- لك أن تستريح إذن.

وذهبت إلى الحقل.

على أنها ما كادت تذهب حتى دب الملل إلى نفسه وضاق ذرعًا بثرثرة أمه، فإن العجوز لذّ لها أن تنفرد بولدها طول اليوم واسترسلت في الحديث. أما هو فقد تبرم بكلامها وسئم رؤية الطفلين يلعبان.

ولذلك نهض من مكانه وقال لأمه إنه يريد أن يتناول بعض الشاي حتى يستدفئ به، ومضى في الشارع الصغير إلى الخان الذي يديره عمه الخامس. وفي هذا الخان رأى أناسًا يشربون الشاي

ويجاذبون أطراف الأحاديث. وألفى خوانات ممدودة تحت قماش مشدود في عرض الطريق حيث يمر المسافرون وينالون قسطًا من الراحة والشراب. وكان يتاح للجلوس إذا مر أحد هؤلاء المسافرين أن يسمعوا بعض القصص الطريفة في مختلف الشئون. كما يمر بالخان أحد القصاص ويلقي ما عنده من القصص والسير. وهكذا كان الخان مكانًا حافلًا بالمسرة والنشاط.

على أنه صادف في طريقه عمه الصموت عائدًا من الحقل لتناول الطعام بعد أن قام بقسط من العمل منذ الفجر. وسأله العم قائلًا:

- إلى أين تذهب؟ ولم لا تشغل؟

فأجاب الرجل بلهجة الضعف والشكوى:

- إن امرأتي استنزلت عليَّ المرض لاختلافنا على مسألة لا أكاد أعرفها ولم أستطع إرضاءها. ونتج عن هذا إصابتي بمرض جزعت منه هي نفسها حتى إنها أمرتني أن أستريح اليوم وأن أذهب لشرب بعض الشاي تدفئة لمعدتي.

فما كاد العم يسمع هذا الكلام حتى بصق وسار في طريقه دون أن يقول شيئًا، فقد كان قليل الكلام، وكان بطبعه يحتفظ بآرائه القليلة لنفسه.

وهكذا كان الرجل متبرمًا بزوجته، ولم يطق التفكير في جمود حياته وسيرها على هذا النحو يومًا بعد يوم وعامًا بعد عام، حتى يهرم ويموت. وشق عليه أن يسمع من المسافرين القلائل الذين كانوا يعرجون على الخان عن وجود أشياء عجيبة مدهشة فيما وراء هذه الروابي والتلال وعند مصب النهر.

هنالك، على حد قولهم، كان النهر يلتقي بالبحر... وهناك توجد مدينة عظيمة حاشدة بالناس من مختلف الأجناس والألوان. والمال ميسور نيله بعد جهد قليل.

ونوادي المقامرة منتشرة في كل مكان. وفيها فتيات مغنيات حسان لا يحلم أصحاب هذه القرية برؤية مثلهن مدى الحياة.

وفي المدينة بعد ذلك مشاهد أخرى عجيبة... ففيها الشوارع الممهدة، والمركبات المختلفة، والدور الشاهقة كالجبال، والحوانيت ذوات الواجهات الحافلة بصنوف السلع المجلوبة في السفن من وراء البحار. وقد يمضي الإنسان حياته كلها في التطلع إلى هذه الواجهات دون أن يحيط بها. وفيها الطعام الجيد الموفور واللحوم والأسماك المنوعة. وإذا أكل الإنسان انتقل إلى ملاعب كبيرة تمثل فيها مختلف المشاهد الحية والمتحركة. فيها ما يضحك الناظر حتى يتشقق بطنه. ومنها العجب المخيف المروع. ومنها المليء بالدهاء والشر. بل أعجب وأروع من هذا كله أن الليل في هذه المدينة العظيمة ساطع كالنهار، تضاء فيه مصابيح لا توقد بالأيدي ولا باللهب، بل بنور صافٍ يستمد من السماء.

وإن الرجل يلعب أحيانًا مع أحد هؤلاء المسافرين، فلا يملك هذا إلا أن يبدي عجبه ودهشته من وجود مثل هذا اللاعب الماهر في مثل هذه المزرعة الصغيرة، ويقول له: «أنت تلعب يا صاحبي كأهل المدن، وبإمكانك أن تلعب في أي ملهى في المدن!..».

فإذا سمع الرجل هذا الثناء ابتسم وقال بلهجة الجد: «هل تحسب أنني أستطيع أن أفعل هذا حقًّا؟»، ثم يناجي نفسه في ازدراء

ولهفة بهذه الكلمات: «صحيح أنه لا يوجد في هذا المكان الكئيب من يجاريني في اللعب، إني أصمد في البلدان الصغيرة لكل واحد من لاعبيها».

كان كلما فكر في هذا الشأن اشتدت لهفته لهجر هذه الحياة الريفية التي يمقتها، وطالما ناجى نفسه وهو ينهال بفأسه على الأرض بهذه الكلمات: «هأنذا شاب جميل في أصابعي حظ وبراعة، ولكني محصور كالسمكة في قاع بئر... وكل ما أراه هو هذه السماء المستديرة فوق رأسي، في صحوها ومطرها... وهذه الزوجة التي تلد أطفالًا متتابعين متشابهين يبكون ويصرخون ويطلبون القوت... فما الذي يحملني على إفناء قوتي لإطعامهم، وما الذي يضطرني ألا ألتمس لنفسي تسلية في حياتي الخاصة؟».

والواقع أنه لم يستطع أن يكتم تبرمه بزوجته وحنقه منها حين حملت ووضعت هذا المولود الأخير، وما برم بها وحنق منها إلا لأنها كانت تحمل في سرعة ويسر، وإن كان يعرف أن هذه طبيعة تحمد للمرأة ولا توجب لومها، وكان يوجد أساس لشكواه لو أنها كانت عاقرًا، لا ولودًا تنجب له أبناء كل عام.

لكنه لم يكن يستمع لصوت الحكمة والعدل في هذه الأيام، فقد كان فتى في بعض أطواره، وكان أصغر من زوجته بعامين كما هي العادة في تلك الجهات حيث يستحب أن يكون الرجل أصغر من زوجته سنًّا، وكان فؤاده ينبض في صدره بالحياة الدافقة والعاطفة الفائرة، ولم يكن يعنيه في شيء أن يكون أبًا لأطفال، بل كان يعنيه اللهو والمرح والمشاهد الطريفة والمسرات التي يستطيع أن

يلتمسها في أية مدينة بعيدة.

والواقع أن تركيبه الجسدي كان يهيئه لهذا اللهو. فقد كان متناسق الجسم، قوي البنية خفيف الحركات، رشيق الإيماءات. وكان صبوح الوجه بارق العينين بشوش المحيا. وهو يتقن الغناء ويجيد إلقاء العبارات التي تبدو بسيطة في ظاهرها، ولكنها مليئة بالدلالات الخفية التي يحبها أهل المدن. وكان بوسعه أن يضحك الناس بأغانيه ونكاته، وكان القوم من أفراد الجنسين يحبونه ويستطيبون مجلسه، وكان إذا سمعهم يضحكون رقص فؤاده طربًا لقدرته وبراعته، فإذا عاد إلى بيته ورأى وجه زوجته الرزين الساكن وقوامها المتين خيل إليه أنها وحدها لا تعرف قدره في الرجال، إذ كانت لا تتوجه إليه بأي مدح أو ثناء. ومن المقرر أنه لم يكن يمزح في بيته وقلما كان يداعب أطفاله، بل يؤثر الأجانب بدعاباته ونكاته.

وكانت المرأة تعرف فيه هذه الصفات، فتغضبها هذه المعرفة حينًا وتثير ألمها حينًا آخر. إذ كانت رغم حبها له لا تظفر منه بهذا المرح الذي يختص به قومًا غيرها.

ثم حدث بعد مولد الطفل الرابع في مطلع فصل الصيف أن نشب بينهما شجار حاد، بل لعله أسوأ وأحدّ ما شجر بين زوجين.

حدث هذا في الشهر السادس من العام، في يوم صفت سماؤه واعتل نسيمه وغردت أطياره وتمايلت خمائله وأفنانه وفاح شذاه عطرًا يسكر النفوس ويبعث الأحلام العذبة والأخيلة الجميلة في الرؤوس.

في هذا اليوم اشتدت حرارة الطقس فلم يستطع الرجل أن يذهب للعمل في الحقل، بل لم يستطع أن ينام لفرط ما كان اليوم ينبض بالحياة والمرح.

وحوالي ظهر هذا اليوم المشرق مر بالقرية رجل يبيع أقمشة صيفية مختلفة الألوان والرسوم- يحملها على كتفه- وكان ينادي في طريقه عليها.

ولما جاء البائع إلى هذا البيت حيث جلس الرجل والمرأة والعجوز والأطفال الصغار في ظل شجرة الصفصاف يتناولون غداءهم ونادى:

- «هل أقف يا سيدتي وأريك أقمشتي؟».

لكن الأم أجابته قائلة:

- لا نقود عندنا، إلا إذا كان عندك فضلة من قماش عادي رخيص لهذا المولود الجديد. نحن فلاحون فقراء لا نملك شراء أقمشة جديدة إلا ما كان ضروريًّا لستر أجسادنا.

ولم يكن بد من أن تضيف العجوز شيئًا من عندها كشأنها أبدًا فقالت في صوتها الراعش:

- نعم. إن زوجة ابني قالت الحقيقة. والأقمشة في هذه الأيام أصبحت ضعيفة تبلى بعد غسلها مرة أو مرتين. وأذكر أني في شبابي لبست جلباب جدتي، وقد عاش حتى تزوجت وكان في حالة صالحة، ولم أغيره إلا عملًا بالمظاهر.

وما كاد البائع يسمع هذا الكلام حتى آنس فرجًا ودنا من أهل

الدار. وكان رجلًا شديد اللباقة واسع الحيلة كأهل مهنته. فأجاب الأم والعجوز بكلمات طيبة، واستطرد:

- يا أمي، عندي قماش جيد كالأقمشة القديمة التي تتكلمين عنها، وهو يصلح أيضًا لحفيدك. وهذه يا (ست) فضلة بقيت من ثوب كبير اشترته مني سيدة غنية في إحدى القرى الكبيرة التي مررت بها. وقد ابتاعتها لولدها الوحيد. وقد أخذت منها ثمنًا مناسبًا لأنها كانت قطعة كاملة سليمة. ولكن ما دامت هذه الفضلة قد بقيت معي فإني أمنحها لك أيتها الزوجة الطيبة إكرامًا لهذا الطفل الجميل الذي تحملينه فوق صدرك.

فاه الرجل بهذه الجملة في نعوم وفي نفس واحد، ثم أخرج من بضاعته فضلة جميلة خضراء اللون منقوشة بورود حمراء كبيرة.

وما كادت العجوز تراها حتى هتفت سرورًا إذ استطاعت تمييز لونها في يسر وفي غير عناء. كما أعجبت بها الأم، ثم ألقيت نظرة على الطفل الرضيع فوق صدرها وكان عاريًا لا يكاد يستره سوى خرقة بالية حول وسطه. وكان حقًّا طفلًا بضًّا جميلًا، بل كان أجمل أطفالها الثلاثة، وهو أقربهم شبهًا بأبيه، ولو أنه لبس هذا القماش المنقوش بالورد لبدا أكثر جمالًا.

دارت هذه الخواطر برأس الأم، وأحست بقلبها يلين ويستسلم، وقالت مكرهة:

- ما هو ثمنها إذن؟ لكني مع ذلك لا أقدر على شرائها لأننا لا نكاد نملك ما يكفي لإطعام هؤلاء الأطفال وهذه العجوز ودفع أقساط المالك. لا يمكننا شراء أقمشة طيبة كالتي تشتريها النساء الغنيات

لأطفالهن الوحيدين.

بدت على العجوز دلائل الكآبة حينما سمعت هذا الكلام، وتسللت البنت من مكانها ودنت من البائع لإلقاء نظرة على القطعة، وجعلت تحدق فيها بنظرات الكليل عن كثب. واستمر الولد يأكل دون أن يحفل بشيء. أما الرجل فجلس في مكانه متكاسلًا يغني قليلًا ولا يعنيه شيء من هذا الذي يدور لا لشيء إلا لشراء قماش لوليد صغير.

ثم أدنى الرجل قطعة القماش من الطفل وقال يستحث المرأة بصوت خافت:

- قماش متين! بضاعة طيبة! لون جميل! إن يدي أمسكت قماشًا كثيرًا، لكني لم أحمل أفضل من هذه القطعة. لو كان لي ولد لاحتفظت بها له. لكن زوجتي امرأة مسكينة عاقر. ولا يمكن أن أفسد مثل هذه الفضلة بإعطائها لها.

ما كادت العجوز تسمع قصة الزوجة العاقر حتى وجدت فيها مادة طيبة للكلام، فهتفت:

- مسكين، وأنت رجل طيب، ولكن لم لا تتزوج مرة ثانية وتجرب حظك من جديد؟

لم تسمع الأم هذه الكلمات... وجلست في مكانها مترددة مفكرة وزاد قلبها ضعفًا واستسلامًا... وألقت نظرة ثانية على الطفل فإذا هو قد زاد جمالًا حينما طرح البائع قطعة القماش فوق جلده الذهبي ووجنتيه الموردتين، واستسلمت آخر الأمر قائلة:

- ما هو أقل ثمن تطلبه إذن؛ لأني لا أقدر على دفع ثمن كبير.

حدد البائع ثمنًا، ولم يكن كبيرًا كما خافت، فرقص قلبها فرحًا، لكنها هزت رأسها وعرضت عليه نصف هذا الثمن كما كانت تقاليد المساومة في هذه الجهات.

ولكن هذا الثمن كان ضئيلًا فلم يسع البائع إلا أن يسترد القطعة ويعيدها إلى بضاعته واستدار في مكانه متظاهرًا بالانصراف. ثم تذكرت الأم طفلها الجميل وعرضت عليه ثمنًا وسطًا وظلت المساومة سجالًا بين البائع والشارية حتى ألقى الأول بضاعته ثانية وأخرج منها الفضلة السالفة الذكر بعد أن قبل ثمنًا أدنى قليلًا مما حدده... فنهضت الأم لإحضار النقود من الكوة الكائنة بالجدار.

حدث هذا كله والأب جالس في مكانه متكاسلًا يغني تارة ويشرب الماء المغلي الذي اعتاد شربه بعد الأكل تارة أخرى، دون أن يساهم بشيء في هذه الصفقة.

لكن البائع كان رجلًا بارعًا قديرًا على انتهاز الفرص، فبسط قطعة من الكتان الأزرق متظاهرًا بعدم الاكتراث واختلس نظرة إلى الرجل حتى يرى إن كان ملتفتًا إليه، وقال له ضاحكًا:

- هل اشتريت جلبابًا لنفسك هذا الصيف؟ إذا لم تكن فعندي جلباب لك. وأحلف أنه أرخص مما تشتريه في أي حانوت في المدينة.

لكن الرجل هز رأسه وظللت وجهه سحابة قاتمة وقال بمرارة:

- ليس عندي نقود في هذا البيت أشتري بها شيئًا، وليس لي إلا أن

أشتغل دون أن أنال شيئًا. وكل ما أربحه يذهب في القوت.

كان البائع قد طاف كثيرًا وتوفرت له خبرة بأحوال الرجال. ورأى بنظرة واحدة أن هذا الرجل يميل إلى اللهو والسرور، وأنه مضطر أن يحيا حياة لا يميل إليها، فقال له متظاهرًا بالشفقة والرثاء:

- في وسعي أن أرى أنك رجل تعيش عيشة قاسية. لكن إذا اشتريت جلبابًا جديدًا فستراه كالدواء الشافي يدخل السرور على قلبك، وليس كالرداء الصيفي يجلب السرور إلى نفس الإنسان. وإذا جلوت هذا الخاتم وصففت شعرك بالزيت ولبست هذا الرداء، فلن أجد في المدينة رجلًا أجمل منك منظرًا.

طرب الرجل حينما سمع هذا لكلام، وضحك عاليًا في شيء من الحياء، ثم تذكر نفسه وقال:

- ولِمَ لا أشتري لنفسي رداءً جديدًا مرة في حياتي؟ لا يوجد أمامي إلا الأطفال يولدون واحدًا بعد الآخر. وهل كتب عليَّ أن ألبس الخرق البالية إلى الأبد؟

ومال إلى الأمام بسرعة وجعل يتحسس القماش بأصابعه، وكانت العجوز قد سمعت كلامه وتحمست لرأيه، فهتفت:

- هذا قماش جميل يا ولدي، وإذا كان لا بد من رداء فليس أجمل من هذا الرداء الأزرق الذي هو أجمل ما رأيته في حياتي. وأذكر أن أباك اشترى رداء مثله، وهل....

لكن الرجل قال فجأة بخشونة:

- كم ثمن الرداء من هذا القماش؟

وما كاد البائع ينطق بالثمن حتى عادت الأم ومعها النقود، فهتفت في جزع:

- لا يمكن أن ننفق أكثر من هذا!

فلما سمع الرجل صيحتها تصلب قلبه وقال بإصرار:

- لكني سآخذ رداء من هذه القطعة وأنا أفضلها ولا بد أن أنالها في الحال. ويوجد عندنا تلك القطع الفضية الثلاث التي أعرف أننا نملكها.

كانت هذه القطع ذات قيمة مالية طيبة وقد جاءت بها الأم حين زواجها هدية من أمها. وهي لذلك كانت تقدرها وتعتز بها ولم تشأ يومًا أن تفرط فيها. بل إنها حين ابتاعت نعش العجوز وقد كان الظن أنها توشك أن تموت اقترضت من هنا ومن هناك ولم تنفق شيئًا من هذه القطع، فقد كانت تعدها ثروة مدخرة لأيام الشدائد كالحروب والكوارث التي تنزع منهما أرضهما. وكانت مطمئنة إلى أنهم يستطيعون إذا نزلت بهم هذه الملمات أن يتقوا شر الجوع حينًا من الزمن بفضل هذه القطع الفضية الثلاث. ولذلك لم تتمالك أن هتفت:

- لا يمكن أن ننفق هذه الفضة.

لكن الرجل وثب من مكانه بسرعة الصقر ومرق بجانبها في عنف وذهب إلى كوة الجدار وفتش عن الفضة حتى وجدها... بيد أن الأم لحقت به واستوقفته وتشبثت به، لكنها لم تكن في مثل

خفته ونشاطه، فقد دفعها جانبًا فسقطت على الأرض وهي تحمل الطفل بين ذراعيها، وركض صائحًا:

- اقطع اثني عشر قدمًا من هذا القماش ولا تنس القدم الزائدة كالعادة!

أسرع البائع بتلبية هذه الرغبة وتناول النقود في عجلة رغم أنها كانت أقل مما طلب، لكنه كان متلهفًا للابتعاد وبيع القماش في وقت واحد. ولما جاءت الأم كان البائع قد مضى في طريقه ووقف الرجل في ظل الشجرة حاملًا الثوب الأزرق الزاهي الجديد بين يديه، وقد ذهبت نقودها الفضية.

وجلست العجوز خائفة مشفقة، ولما رأت الأم تدنو سارعت بالكلام قائلة في صوتها المتهدج:

- هذا جلباب جميل يا ولدي، وهو ليس غاليًا، ولم تشتر رداء صيفيًّا منذ زمن طويل.

لكن الرجل رمى زوجته بنظرة صارمة وقد احتقن وجهه، وصاح هادرًا وقد جعل منه الغضب رجلًا مستأسدًا:

- هل تصنعينه إذن، أو أذهب به إلى امرأة أخرى، وأدفع لها أجرًا وأقول لها إن زوجتي رفضت صنعه؟

لكن الأم لم تنبس بكلمة، بل جلست فوق مقعدها الصغير صامتة شاحبة اللون مرضوضة بتأثير سقطتها، وكان الطفل يصرخ بين يديها مذعورًا خائفًا، فلم تهتم به وأجلسته على الأرض وتركته في صراخه وعقدت شعرها المهدل. وأخذت تلهث قليلًا وازدردت

ريقها، ثم قالت أخيرًا دون أن تنظر إلى الرجل:

- هاته! سأصنعه!

فقد خجلت أن تصنع الثوب امرأة أخرى وتقف على تفصيلات المشاجرة أكثر مما عرفت سائر النسوة التي كن يرقبن من بيوتهن ما يجري بعد أن سمعن صيحات الزوجين.

لكن الأم أسرت في نفسها هذا الموقف لزوجها، ومع أنها أخذت تصنع الثوب ببراعة؛ لأنها كانت بارعة في ذلك ولأن القماش كان من نوع طيب، فإنها لم تجد أقل لذة في هذا العمل، ولزمت الصمت والصلابة إزاء الرجل طول الفترة التي استغرقها صنعه.

ونقم الرجل منها هذا المسلك وضاق بها، فكف عن الغناء، وكان إذا تناول طعامه يسرع إلى الخان حيث يجلس مع الرجال ويشرب الشاي ويقامر إلى وقت متأخر في الليل، وذلك لكي يستيقظ متأخرًا في اليوم التالي.

وكان إذا فعل ذلك في الأيام العادية انحت عليه باللوم حتى يذعن إيثارًا للسلم. أما الآن فقد كانت تتركه ينام وتذهب وحدها إلى الحقل، وقد أمعنت في صمتها وجفائها مهما بدا لها منه، وإن كانت تحس في نفسها وحشة وألمًا كلما قست عليه وجفته.

ولما تم صنع الرداء أخيرًا بعد أن استغرق وقتًا طويلًا لانهماكها في زراعة الأرز لم تقل له رأيها فيه حينما لبسه. أما هو فقد جلا الخاتم بمسحوق الأحجار وصفف شعره بزيت صبه من زجاج المطبخ، وخرج إلى الشارع يسير متهاديًا.

وقد جعل الناس يهتفون معجبين بزيه الجديد ممتدحين حسن هندامه، ولكنه لم يطرب ولم يطب نفسًا كما كان يجب.

أما هي فلم تقل له كلمة واحدة. ولما وقف متسكعًا عند الباب قليلًا استأنفت كنس الأرض حول البيت دون أن ترفع رأسها أو تسأله هل تناسب الرداء مع قوامه وهيكله، كما كان شأنها حتى حين كانت تصنع له حذاء جديدًا، ولم يتمالك آخر الأمر أن قال في حياء:

- يبدو لي أنك صنعت هذا الرداء أفضل من أي رداء غيره، وهو يناسبني كأنه رداء أحد أهل المدن.

لكنها مع ذلك لم تتطلع إليه، بل وضعت المكنسة القصيرة في أحد الأركان وجاءت بقدر من الصوف المنقوش وجعلت تغزله خيوطًا بعد أن استنفدت ما كان عندها من الخيط في صنع الثوب الأزرق. وأخيرًا قالت بمرارة:

- بل يجب أن يبدو كرداء الإمبراطور بعد أن كلفني هذا الثمن.

على أنها مع ذلك لم تنظر إليه، بل لم تنظر إليه حتى حين سار في الشارع، ولم تختلس نظرة واحدة خلفه بعد أن أدار لها ظهره وذهب.

فقد أحست في نفسها بمرارة أليمة منه، وإن كانت تعترف بأن الرداء كان متسقًا فوق جسده.

* * *

الفصل الخامس

جعلت الأم طوال هذا اليوم تترقب عودة الرجل إلى البيت. وكان يومًا يستطيع الإنسان فيه أن يترك في الحقول رؤوس النبت الصغير الغض تتمايل في الهواء اليسير تحت أشعة الشمس الدافئة. ولم يكن بالزراع من حاجة للذهاب إلى الحقول في يوم كهذا.

وهكذا جلست الأم في ظل شجرة الصفصاف تغزل خيط الصوف، وجاءت العجوز فجلست قربها وقد لذ لها أن تجد من يستمع لها. وفيما كانت تسترسل في الحديث، فكت ثوبها وبسطت ذراعيها النحيلتين المغضنتين تحت أشعة الشمس وجعلت تستشعر حرارتها الطيبة في عظامها. وجعل الطفلان يتراكضان عاريين في أشعة الشمس كذلك. لكن الأم لزمت الصمت وأغرقت في صمتها. وجعلت تغزل خيوط الصوف بيد مدربة قديرة. وكلما غزلت منه قدرًا لفته حول عود من الخيزران أعدته لهذا الغرض. وكانت الخيوط قوية متينة.

ولما توسطت الشمس كبد السماء تركت الغزل ونهضت قائلة بلهجة جافة:

- سيعود إلى البيت بعد قليل وقد اشتد جوعه رغم ثوبه الأزرق.

وقالت العجوز وهي تضحك ضحكتها الضعيفة:

- نعم، إن الذي فوق بطن الرجل يختلف عن الذي في داخله.

قامت الأم إذن وملأت كيلًا من الأرز من سلة تخزنه فيها، وسوت سطح الأرز بيدها الثانية حتى لا يسقط منه شيء، وأفرغت الأرز في سلة أخرى مصنوعة من الخيزران الدقيق المشقوق، ثم قصدت إلى حافة الترعة وصوبت نظرها في الشارع وهي في طريقها، لكنها لم تلمح أثرًا لثوب أزرق جديد.

انحدرت الأم محاذرة فوق شاطئ الترعة وأخذت تغسل الأرز، فدست السلة في الماء وجعلت تفرك حبات الأرز بيدها السمراء القوية، وكررت هذه العملية مرات حتى بدا الأرز ناصع البياض كاللؤلؤ.

وفي طريقها إلى الدار انحنت وانتزعت رأسًا من الكرنب النامي، وألقت بعض الحشائش إلى الجاموسة المقيدة إلى أحد الأشجار، ثم عادت إلى البيت.

ثم جاء الولد من الشارع يقود أخته من يدها، فسألته الأم بهدوء:

- هل رأيت أباك في الشارع، أو في الخان، أو عند بيت من البيوت؟

فأجاب الولد:

- إنه جلس قليلًا في الصباح يشرب الشاي في الخان، وأنا رأيت ثوبه جديدًا وأزرق ولامعًا. ولما رآه عمي وعرف ثمنه قال إنه كلف أبي كثيرًا.

فقالت الأم وقد اكتسب صوتها فجأة رنة الصلابة:

- نعم! وأيم الحق قد كلفه كثيرًا!

وقالت الابنة تردد كلام أخيها:

- تمامًا، كان ثوبه أزرق، وأنا أيضًا رأيت أنه كان أزرق.

لكن الأم لم تزد شيئًا عما قالت. فقد كان الطفل الوليد نائمًا في سلة مضفورة واستيقظ وأخذ يبكي. فانحنت الأم وفتحت رداءها وحملته إلى صدرها وجعلت ترضعه، بينما ذهبت لطهي الطعام، لكنها قالت أولًا للعجوز:

- اقعدي مكانك يا أمي وراقبي الشارع، وإذا رأيت لون ردائه الأزرق نبهيني حتى أضع له الأكل فوق الخوان.

فقالت العجوز راضية مسرورة:

- حسنًا يا ابنتي.

لكن الأرز تم نضجه ولم يأت الرجل بعد. ثم نضجت الكرنبة وصبت الأم فوقها بعض الصلصة كما يحب الرجل. لكنه مع ذلك لم يرجع إلى البيت.

انتظر الجميع قليلًا ودب الجوع في أحشاء العجوز ونفذت رائحة الطعام إلى خياشيمها فكاد يغمى عليها، وهتفت غاضبة لفرط جوعها:

- لا تنتظري هذا الابن أكثر من ذلك. إن اللعاب يسيل من فمي وبطني خاوية كالطبل، وهو لم يأت بعد.

وهكذا قدمت الأم إلى العجوز صحفتها وأطعمت الطفلين كذلك وقدمت لهم جميعًا جانبًا من الكرنبة، لكنها استبقت قلبها للرجل. ثم أكلت بدورها، وإن لم تصب من الطعام سوى قدر يسير إذ أحست

بازورار هذا اليوم. هكذا بقي للرجل نصيب وافر من الأرز، وشطر كبير من الكرنبة. ثم أرضعت الطفل فنهل حتى ارتوى ونام في أشعة الشمس الحامية قوي البنية ممتلئ الجسم موفور الصحة مورد الوجه. وتمدد الولد والابنة في ظل شجرة الصفصاف واستسلما للنوم وأغفت العجوز فوق مقعدها. وخيم فوق المزرعة الصغيرة سكون القيلولة وهدأة الظهيرة. بل حتى الدواب جمدت في مرابطها مدلاة الرؤوس خدرًا.

لكن الأم وحدها لم تنم، فقد تناولت مغزلها وجلست في ظل شجرة الصفصاف واستأنفت الغزل ولف الخيط. لكنها لم تستطع أن تواصل الغزل بعد قليل، فقد كانت تفعل هذا في ضحوة النهار في يسر وسهولة، لكنها لم تستطع الآن أن تلزم السكون. فقد خيل إليها أن قلقًا غريبًا يستقر في نفسها، وهي لم تعهد من الرجل قط إبطاء في العودة لتناول طعامه. وغمغمت قائلة: لا بد أنه ذهب إلى البلدة للمقامرة أو لأي شيء آخر.

لم تكن قد فكرت في هذا الشأن من قبل، لكنها كلما فكرت فيه الآن خيل إليها أنها تزيد اقتناعًا. ثم خرج العم من داره ذاهبًا إلى الحقل. وبعد قليل أفاقت زوجته من نومها حيث تمددت قرب إحدى الأشجار وسألتها:

- هل ذهب زوجك إلى مكان ما؟

فأجابت الأم ببساطة:

- نعم، ذهب إلى البلدة لبعض شأنه.

وقال العم وهو يفتش بين فؤوسه ومجارفه:

- نعم، وأنا رأيته مسرورًا بثوبه الأزرق الجديد ذاهبًا إلى البلدة.

سرى عن الأم قليلًا بعد هذا الحديث، وأنشأت تغزل أوفر نشاطًا وأكثر انبعاثًا، فقد رآه العم يمضي إلى البلدة. ولا ريب أنه ذهب يلتمس بعض اللهو والمرح انتقامًا لنفسه منها. وهذا ما يمكن أن يفعله بعد أن لبس الرداء الجديد الأزرق وجلا الخاتم النحاسي وصفف شعره بالزيت. وقد حاولت أن تغضب قليلًا إزاء هذا الخاطر، لكن غضبها كان قد خمد. ولم يكن بوسعها أن تحييه من جديد، فقد شابها قلق غريب رغم كلمات العم.

وأخذ النهار ينصرم متثاقلًا مشحونًا بالحرارة، واستيقظت العجوز وهي تهتف شاكية من جفاف حلقها، فنهضت الأم وجاءتها بقليل من الشاي واستيقظ الطفلان وأخذا يتمرغان في التراب قليلًا ثم نهضا أخيرًا وأنشآ يلعبان. واستيقظ الطفل وتمدد، طروبًا في سلته سعيدًا بنومه.

لكن الأم لم تذق طعم الراحة والسكون، ولو استطاعت لعالجت النوم. ولو كان يومًا غير هذا لأخذتها سنة من النوم حتى وهي تغزل، فقد كانت سليمة البنية موفورة الصحة وكان النوم يلم بها عميقًا هنيئًا دون أن تلتمسه. لكنها اليوم كانت تحس لذعًا في قلبها جعلها دائمة اليقظة والإصغاء لكل صوت.

ثم نهضت أخيرًا متبرمة من طول الانتظار متضجرة من إقفار الشارع الذي بدا مقفرًا في نظرها مذ كانت لا ترى فيه من تترقبه. فحملت الطفل ووضعته خلف ظهرها وتناولت الفأس قاصدة إلى الحقل، وقالت للعجوز:

- سأذهب لتنقية القمح عند التل الجنوبي.

وفيما هي تمضي في طريقها رأت أنه أيسر لها ألا تبقى في الدار وأن الساعات تمر سراعًا إذا تشاغلت بعمل شاق مضن.

وهكذا أمضت ساعات العصر تشتغل في حقل القمح، وحجبت وجهها بمنديل أزرق من القطن دفعًا لحرارة الشمس. وجعلت ترفع وتهوي بفأسها بين سنابل القمح الخضراء اليانعة. ولم يكن هذا الحقل سوى منطقة صغيرة محدودة، أما الأرض فقد زرعت أرزًا؛ لأن الأرز طعام أقوم وأجلب للربح.

وكانت أشعة الشمس تنصب فوق سطح التل المكشوف وتغمرها، وسرعان ما ابتل رداؤها بالعرق، لكنها لم تشأ أن تستريح إلا بعد أن بكى الطفل، فافترشت الأرض وأرضعته وجففت وجهها الملتهب وسرحت طرفها في أرجاء الحقول المشرقة، فلم تر شيئًا.

ولما شبع الطفل وضعته ثانية على الأرض ونهضت واستأنفت عملها وظلت تكدح حتى دب الألم إلى جسدها وكلت قواها. وأخيرًا استقرت الشمس عند حافة الأفق، وخيم الظل فوق الوادي فجأة. وإذ ذاك استقامت في مكانها ومسحت وجهها بردائها وغمغمت بصوت عال:

- لا بد أنه الآن ينتظر في البيت، ويجب أن أعود لإعداد طعامه.

وحملت الطفل وعادت به إلى البيت.

لكن الرجل لم يعد.

لما وصلت إلى الدار لم تجده، ورأت العجوز تحدق في قلق شطر

الحقول. وجلس الطفلان فوق عتبة الباب ينتظران في إعياء واستقبلاها بالصياح حينما وقع نظرهما عليها. فقالت في حيرة:

- أبوكم. ألم يأت بعد؟

فهتف الولد:

- كلا، وأنا جوعان.

ورددت الابنة كلام أخيها في صوتها المتقطع، وجلست مطبقة الجفنين في أشعة الشمس الغاربة. ونهضت العجوز وسارت متمايلة ونادت العم إلى بيته قائلة:

- هل رأيت ولدي في أي مكان؟

لكن الأم هتفت فجأة متبرمة:

- كفى يا أمي.

فقالت العجوز وهي تحدق في اضطراب:

- حسنًا، لكنه لم يعد.

لكن الأم لم تقل شيئًا، بل قدمت للطفلين أرزًا باردًا، ودفأت بعض الماء وصبته فوق الأرز وقدمته للعجوز، وألقت للكلب ببعض الفضلات، وتركتهم جميعًا يأكلون وخرجت إلى الشارع حاملة طفلها فوق ذراعها وقصدت إلى الخان.

لم تجد في الخان سوى أشخاص قلائل، وصادفت في الطريق رجلًا أو اثنين عائدين إلى القرية المجاورة، فقد انتهى عمل النهار وأذنت الساعة بالإياب إلى البيوت.

وقد خطر لها أنه قد يكون جالسًا إلى خوان قريب من الشارع حتى يرى ويسمع ما يجري، أو جالسًا إلى خوان مع أحد الأشخاص لأنه لم يكن يتأخر في العودة ما استطاع، أو ربما كان مشتركًا في بعض اللعب الدائر.

ولكن لما وصلت إلى الخان وأدارت النظر لم تلمح أثرًا لرداء أزرق ولم تسمع صوت لعب دائر، فدخلت الخان ونظرت فيه، بيد أنها لم تجده في الداخل، وإنما وجدت صاحب الخان واقفًا يستريح بعد انتهاء العشاء مستندًا إلى الحائط قرب الفرن. وكان وجهه أسود اللون بالدخان والشحم المتراكم أيامًا، فقد رأى من العبث في مثل هذه المهنة أن يغسل وجهه، إذ يعود سيرته الأولى من السواد بعد قليل.

وقالت له الأم:

- هل رأيت أبا أولادي؟

لكن الرجل جعل يقضم أظفاره السوداء وقال متكاسلًا:

- إنه جلس هنا فترة في الصباح بردائه الأزرق الجديد، ثم ذهب إلى جهة البلدة.

ولما آنس في هذا الشأن مادة للحديث والتعليق هتف فجأة:

- هل حدث شيء؟

فأجابت الأم مسرعة:

- لا شيء. لا شيء. إنه انشغل في البلدة وتأخر. ولا شك. ولربما بات الليلة في الخارج وعاد إلى البيت غدًا.

فقال صاحب الخان وقد استفزه الفضول فجأة:

- وما الذي شغله؟

فأجابته قائلة:

- وكيف أعرف، ولست إلا امرأة؟

عادت الأم إلى البيت، وفي طريقها إليه كانت تجيب سائليها بطرف اللسان وتفكر في شأن آخر. ولما وصلت إلى الدار قصدت إلى كوة الحائط وفتشت فيها، فإذا هي خاوية.

كانت تعلم أن فيها مبلغًا لا بأس به من العملة النحاسية وقدرًا يسيرًا من النقود الفضية أيضًا. فقد باع قش الأرز بثمن طيب منذ نحو يومين إذ هو بارع في مثل هذه الصفقات، وعاد إلى البيت بقسط كبير من هذه النقود. وهي قد أخذتها منه ووضعتها في الكوة، وكان يجب أن تبقى حيث كانت، لكن لم يكن لها الآن أثر.

إذ ذاك أيقنت وهي في ذهول أنه ذهب حقًّا. فجلست فوق الأرض الطينية وأمسكت الطفل بين ساعديها وجعلت تهتز إلى الخلف وإلى الأمام في صمت وتؤدة.

إذن فقد ذهب حقًّا!

وبقيت وحدها مع العجوز والأطفال الثلاثة.

وفجأة أخذ الطفل يتململ ويتبرم، فأخرجت له ثديها دون أن تفكر فيما تفعل. وجاء الطفلان إلى الداخل، وكانت البنت تبكي بصوت خافت وتفرك عينيها.

وجاءت العجوز أيضًا متكئة على عصاها وهي لا تفتأ تبدئ

وتعيد:

- ترى أين ولدي؟ هل قال ابني إلى أين ذهب يا ابنتي؟ عجيب أين ذهب ابني؟

فما كادت الأم تسمع هذا الكلام حتى نهضت وقالت:

- سيعود غدًا ولا شك يا أمي. فارقدي الآن ونامي. سيعود غدًا.

أصغت إليها العجوز ورددت قولها وقد سرى عنها:

- نعم. سيعود غدًا ولا ريب.

ثم ذهبت إلى فراشها تتحسس الطريق في الغرفة المظلمة.

أما الأم فقد ذهبت بالطفلين إلى الفناء لكي تغسلهما كما كانت عادتها في ليالي الصيف قبل النوم. فصبت إناء من الماء فوق كل منهما، وجعلت تدلك جسديهما الأسمرين الأملسين براحة يدها. لكنها لم تلتفت إلى ما قال كلاهما، ولم تعبأ بأنين البنت وشكواها من عينيها.

ولما ذهبوا للنوم في الفراش دهش الولد لغياب أبيه، وهتف:

- إذن أين سينام أبي؟

وفي هذه اللحظة فقط أفاقت الأم من ذهولها، وأجابت:

- سينام في البلدة بغير شك، ويرجع غدًا أو بعد يومين.

ثم أردفت وقد انتابها الغضب فجأة:

- سيعود ولا ريب بعد أن تنفد منه تلك النقود.

واستطردت في لهجة مريرة:

- وبعد أن يتسخ رداؤه الجديد ولا يبقى بد من غسله.

وداخلها السرور إلى حد ما إذ رأت أنها استطاعت أن تغضب منه وتحنق عليه، وتشبثت بهذا الغضب وهذا الحنق، فقد بدا لها أنه أقرب إليها كذلك. واستمسكت بهذا الإحساس المبتسر وهي تؤوي الدواب وتوصد الباب... وغمغمت:

- لا ريب أني سأكون سابحة في النوم حينما يعود في الليل ويطرق الباب.

لكن سرعان ما فارقها الغضب وانتابها الخوف في جنح الظلام وفي هدأة الليل الحار وفي سكون الغرفة الموصدة.

ترى ماذا تفعل إذا لم يعد، وهي امرأة وحيدة شابة؟

بدا لها الفراش في خوائه رحبًا ممتدًا، ولم تر بها من حاجة إلى التضييق على نفسها، فقد كان يمكنها أن تبسط ذراعيها وساقيها كما شاءت.

وفجأة هبط عليها حنين حار وتلهف شديد إلى رجلها. فقد تمددت بجانبه طوال هذه الأعوام الستة الأخيرة. ومهما غضبت منه في النهار فقد كانت تنسى قربه في الليل عبثه وصبيانياته. وتذكرت في هذه اللحظة جماله ووسامته، فلم يكن خشن الفم كريه الأنفاس كأغلب الرجال، بل كان شابًّا لطيف الصورة، ناصع بياض الأسنان.

وهكذا تمددت في مكانها يهفو بها الحنين إليه، وتلاشى من صدرها كل أثر للغضب.

ولما طلع النهار نهضت متعبة مسهدة، واستطاعت أن تعود إلى الصلابة. ولما زايلت الفراش ولم يأت بعد وأخرجت الدواب وأطعمت الأطفال والعجوز، تزايدت صلابتها وغمغمت بصوت مسموع:

- سيعود بعد أن تنفد منه النقود. عند ذلك فقط سيعود إلى البيت.

ولما حدق الولد في الفراش الخاوي قال في دهشة وعجب:

- أين والدي؟

فأجابته فجأة في صوت مرتفع:

- قلت إنه غائب يومًا أو اثنين. وإن سألك أحد في الشارع فقل إنه غائب يومًا أو اثنين.

ثم ذهب الطفلان للعب والعبث هنا وهناك، لكنها في هذا اليوم لم تذهب إلى الحقول. بل جلست فوق مقعدها الصغير مستقبلة شارع القرية الوحيد حتى ترى من يأتي من بعيد. وفيما كانت تجيب على لغو العجوز قالت لنفسها إن الرداء الأزرق ذو لون واضح تسهل رؤيته عن بعد، وجعلت تغزل الصوف وهي تختلس النظر بين حين وآخر إلى الشارع. وراحت تحصي في خيالها النقود التي أخذها وتقدر كم تكفيه من الأيام، فبدا لها أنها لن تدوم معه سوى ستة أو سبعة أيام، إلا إذا قامر بأصابعه الرشيقة وربح قدرًا آخر من النقود، فيستطيع أن يطيل الغياب. وخيل إليها أحيانًا أنها لن تصطبر على سماع لغو العجوز وثرثرتها، بيد أنها وطنت نفسها على الاحتمال طمعًا في رؤية الرجل عائدًا إلى البيت.

ولما عاد الطفلان وقت الظهر جائعين ورأى الولد صحفة الكرنب المهيأة لأبيه وطلب شطرًا منها، لم تجبه الأم إلى ما طلب. ولما ألح في الطلب لطمته بشدة، وقالت بصوت مرتفع:

- لا، إنها لأبيك، فهو حين يرجع في الليل سيكون جائعًا ولا شك أنه سيأكلها كلها.

وتعاقبت ساعات بعد الظهر الطويلة ولم يأت بعد. وغربت الشمس كدأبها، متثاقلة تفيض بالأشعة الذهبية، وتغمر الوادي في ضوئها حينًا من الزمن، ثم جن الليل وانتشر الظلام، وإذ ذاك لم تستطع أن ترفض، فقدمت الصحفة للطفلين قائلة:

- كلوا كفايتكم، لئلا تفسد لو بقيت يومًا آخر. ومن يدري.

وقدمت إلى العجوز قلب الكرنبة المغموس في الصلصة قائلة:

- كليها، وسأطهو له غيرها إذا عاد غدًا.

فقالت العجوز:

- وهل سيعود غدًا إذن؟

فأجابت الأم في كآبة:

- نعم، ربما عاد غدًا.

وفي هذه الليلة تمددت فوق الفراش محزونة النفس شديدة الخوف والجزع. وكاشفت نفسها في غير مواربة بارتيابها في احتمال عودته حقًّا.

غير أنها مع ذلك جعلت تعلل النفس بنفاد النقود منه بعد انصرام

الأيام السبعة.

* * *

ثم تتابعت هذه الأيام يومًا بعد يوم. وكان يبدو لها لفرط الانتظار كلما أقبل يوم جديد منها أنه سيعود حقًّا.

ولم يكن من دأبها أن تنطلق في القرية تقتل الوقت باللغو مع نسائها، لكن نساء القرية جئن إليها واحدة بعد الأخرى ورحن يسألنها:

- نحن جميعًا بيت واحد في هذه القرية، وتجمع بيننا وبينه صلة نسب.

وأخيرًا دفعتها الكبرياء إلى اختلاق قصة، فقالت لهن بجرأة:

- إن له صديقًا في مدينة بعيدة، وقد أخبره هذا الصديق بوجود مكان يعمل فيه ويربح أجرًا طيبًا، فلا نحتاج إلى إجهاد أنفسنا بالعمل في الحقول. وإذا لم يناسبه هذا العمل فسيعود سريعًا. أما إذا طابق هواه فلن يعود حتى يمنحه سيده عطلة.

فاهت الأم بهذه الكلمات في هدوء وكأنها تقرر حقيقة، حتى لقد ذهلت العجوز وهتفت:

- ولم لم يخبرني بهذه القصة الطيبة، وأنا أمه؟

فانتحلت الأم قصة أخرى وأجابت:

- طلب مني يا أمي ألا أخبرك بها لأنه يعرف لسانك المحلول ويخاف أن يعرف أهل القرية أكثر مما يجب؛ ولأنه يريد ألا يعرفوا شيئًا إذا لم يستطب هذا العمل.

فقالت العجوز وهي تنحني فوق عصاها وتحدق في زوجة ابنها، وقد آلمها هذا القول:

- هل قال هذا حقًّا؟ صحيح يا بنتي إنني كثيرة الكلام، لكن لساني غير محلول.

وجعلت الأم تكرر هذه القصة لكل من يسألها، وكانت كلما أعادتها أضافت إليها ما يكسبها رنة الحقيقة التي لا يداخلها كذب ولا زور.

وكان بالقرية أرملة تعيش في بيت أخيها، ولم يكن لها عمل تؤديه سوى قضاء اليوم في نقش أزهار فوق حذاء تصنعه لنفسها. وكانت تبدئ وتعيد في كل خاطر غريب يمر ببالها. وذات يوم طاف برأسها خاطر فأسرعت ركضًا إلى الأم وقالت لها:

- لكن لم يصل إلى هذه القرية منذ زمن أية رسالة، ولم أسمع عن رسالة وردت من زوجك!

وذهبت الأرملة سرًّا إلى رجل في القرية يتولى تحرير وقراءة الرسائل القليلة المتبادلة فيها، فسألته:

- جاءت رسالة باسم (لي) الأول بن (لي) الثالث في الجيل الأخير؟

فلما أجاب الرجل بالنفي هتفت الأرملة الثرثارة:

- لكن زوجته قالت إن رسالة وردت منه منذ أيام قليلة!

وإذ ذاك ثار الحسد في نفس الرجل خيفة أن تكون الأم ذهبت بالرسالة إلى كاتب آخر من أهل القرى المجاورة، فنفى هذه

الحقيقة وشدد في النفي، وقال لها:

- أعرف تمامًا أنه لم ترد رسالة ما، ولم يأت أحد لقراءة أو تحرير أية رسالة أو لشراء طابع لوضعه فوق رسالة. وأنا وحدي أقتني مثل هذه الطوابع. ولم يجيء إلى هنا رسول منذ عشرين يومًا أو أكثر.

فلما سمعت الأرملة هذا الكلام توسمت في الأمر سرًّا غريبًا وذهبت تهمس في كل مكان أن زوجة (لي) الأول كذبت وأنه لم تردها رسالة ما. وأن زوجها قد هجرها بلا ريب وابتعد عنها. ألم تنشب بين الزوجين معركة حامية بشأن الرداء الجديد وقد سمعهما أهل القرية يتبادلان السباب واللعنات، ثم ألم يقل الطفل إنه قد ألقاها على الأرض قبل ضربها؟

على أن هذا الكلام حينما تسرب إلى الأم قررت بلهجة التوكيد أنها قالت الحقيقة وأنها صنعت له الرداء الجديد خصيصًا لمناسبة ذهابه إلى المدينة البعيدة، وأن ما شجر بينهما من خلاف كان لشأن آخر. أما الرسالة فهي لم ترد وإنما تلقت الأم هذه الأنباء على لسان بائع متنقل جاء من جهة الساحل.

وهكذا جعلت الأم تكذب وتمعن في الكذب والاختلاق وتحبك أطراف كذبها حتى تسبغ عليه طابع الحقيقة. وصدقت العجوز هذا الكلام وآمنت به وأنشأت تتحدث عما سيصيب ولدها من الغنى. واحتفظت الأم بالهدوء والسكينة ولم تبك قط كغيرها من النساء حين يهجرهن أزواجهن ويجلبن عليهن العار والشماتة. وأخيرًا بدت القصة صحيحة في أعين الجميع، واضطرت الأرملة

الثرثارة إلى السكوت، غير أنها كانت تقول كلما خلت إلى نفسها:

- سنرى على مر الأيام إذا جاءتها رسالة أو نقود، أو إذا عاد إليها حقًّا.

وهكذا سكنت القصة وانصرف أهل القرية إلى غيرها من الشئون ونسوا الأم وقصتها.

ثم استقبلت الأم حياتها في ثبات ومثابرة. ومضت مدة طويلة بعد انقضاء الأيام السبعة ولم يأت الرجل بعد. وتفتح الأرز في إبان ذلك وحل موسم الحصاد ولم يأت الرجل أيضًا. فأنشأت الأم تحصده وحدها إلا يومًا أو يومين حين أقبل العم لمعاونتها بعد أن حصد أرزه وجمعه في حزم كبيرة. وقد سرت الأم بهذه المعاونة وإن توجست من الرجل خيفة كذلك. فقد كان رجلًا صادقًا قليل الكلام، وكان يتحرى البساطة في أسئلته ويصعب التمويه عليه. لكنه جعل يعمل صامتًا ولم يفاتحها في شيء، ولم يقل إلا ما قضت الضرورة بقوله حتى حل موعد انصرافه، فقال لها:

- إذا لم يعد وقت اقتسام الحبوب مع المالك فإني سأساعدك؛ لأن الوكيل الجديد رجل ماكر ذكي ومن طراز يصعب على المرأة أن تعامله وحدها.

فشكرته الأم بهدوء وقد سرتها هذه المعاونة، فإنها لم تعرف هذا الوكيل إلا لمامًا، إذ كان غريبًا عن هذه الجهات في السنوات الأخيرة وكان رجلًا مخاتلًا من أهل المدن.

وهكذا توالت الأيام وكانت الأم تنهض كل يوم قبيل الفجر فتترك الأطفال والعجوز نيامًا وتعد لهم طعام الإفطار حتى يتناولوه حين

يستيقظون، ثم تحمل الطفل الرضيع فوق ساعدها وتأخذ المنجل القصير المقوس بيدها الثانية لكي تستخدمه في الحصد وتمضي إلى الحقول.

وقد نما الطفل وأصبح يستطيع الجلوس وحده، فكانت تقعده فوق الأرض وتتركه يلعب ويعبث ما شاء له اللعب والعبث، فيحفن التراب بيديه ويضعه في فمه ويأكل منه ثم يبصقه منكرًا مبغضًا، ولا يلبث أن ينسى ويأكل منه ثانية حتى يتلطخ بالوحل والطين. لكن الأم لم تكن تستطيع أن تفعل نحوه شيئًا مهما بدر منه.

فقد كان يجب أن تؤدي عمل اثنين، وقد اضطلعت بهذا الواجب، وإذا بكى الطفل فليبك ما شاء حتى تكل من فرط الجهد فتجلس للراحة وتقدم ثديها لفمه الملطخ بالوحل ينهل منه ويرتوي، وكان يبلغ منها التعب والإعياء حدًّا لا تحفل معه بالبقع التي يتركها فوق ثديها.

وكانت الأم تحصد سنابل الأرز حفنة حفنة وهي تنحني كل مرة، ثم تجمعها في حزم صغيرة. وكانت إذا حام حولها المتسقطون لالتقاط ما يتساقط من الحبوب شأن المتسولين في موسم الحصاد انبرت لهم متجهمة الوجه لفرط ما تعاني من مرارة العمل الشاق المضني وقد أرهقها العرق والغبار. وتروح تستمطر اللعنات عليهم وتصيح فيهم قائلة:

- هل تلتقطون الحب من امرأة وحيدة لا معين لها؟ أنا أتعس منكم أيها المتسولون! أيها اللصوص الملعونون!

وكانت تستنزل اللعنات بمرارة عليهم وعلى أمهاتهم وعلى

أبنائهم، فيخلون لها الحقول أخيرًا خوفًا من عنف لعناتها.

ثم حملت حزم الأرز حزمة حزمة إلى الجرن لدرسه. فقيدت الجاموسة إلى الجرن الحجري وجعلت تسوقها في إبان أيام الخريف الحارة الساكنة وتسوغ نفسها معها أيضًا. ولما تم درس الحب جمعت القش الفارغ وكومته وأخذت تذري الحب بمساعدة الهواء.

وقد اضطرت أخيرًا إلى حمل الغلام على العمل أيضًا، فإذا تكاسل أو حن إلى اللعب كانت تلطمه لفرط ما تعاني من الإعياء والإجهاد واليأس.

لكنها لم تستطع أن تجمع القش في الحزم الكبيرة المعهودة، فقد كان هذا من عمل الرجل الذي ألف أن يتقنه ويبرع فيه إذا كان أحب إليه من أعمال أخرى.

ولذلك التمست من العم أن يعلمها كيف تقوم بهذا العمل مرة حتى يتسنى لها أن تقوم به مع الغلام في الأعوام القادمة إذا غاب الرجل أكثر من عام. فجاء العم وعلمها، فنهضت للعمل وجعلت تبسط الحشائش وتناولها له وهو معتل سطح الحزم الكبيرة، فيكسو هذه الحزم بالحشائش ويسويها بالطين.

وهكذا انتهى حصاد الأرز.

غير أنها هزلت من فرط الجهد وذهب لحمها، واسمرت بشرتها فيما عدا وجنتيها وشفتيها التي احتفظت بحمرتها. ولم يبق لها سوى اللبن في ثدييها غزيرًا موفورًا.

ومن النساء من يستحيل غذاؤها سمنة ولا يبقى منه لغذاء الطفل. لكن هذه المرأة خلقت للأطفال. وكانت أمومتها تسلب جسدها بلا رحمة كل غذاء تصيبه إذا كان لها طفل تربيه.

ثم جاء يوم اقتسام الحب وإخراج نصيب مالك الأرض منه. وكان مالك هذه القرية والحقول المحيطة بها لا يأتي بنفسه لأخذ نصيبه من المحصول؛ فقد كان يعيش عيشة الدعة والترف في إحدى المدن البعيدة بعد أن ورث هذه الأرض عن آبائه. وكان ينيب عنه وكيلًا لأخذ هذا النصيب. وفي هذا العام جاء وكيل جديد إذ تركه وكيله القديم في العام الماضي بعد أن جمع من المال في العشرين عامًا الماضية ما جعله يعتزل العمل.

فلما جاء هذا الوكيل الجديد جعل يطوف بيوت الفلاحين بيتًا بيتًا. وانتظرت الأم حضوره عند باب بيتها بعد أن كومت الحب في الجرن.

كان الوكيل من أهل المدن من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وكان رجلًا طويل القامة ناعم البشرة يرتدي جلبابًا حريريًّا وحذاء من جلد وله يد كبيرة ملساء كان يرفعها إلى شفته الحليقة، وإذا تحرك انبعثت منه رائحة عطرية.

وحين جاء إلى الأم تراجعت قليلًا فسألها:

- أين الفلاح؟

فلزمت الأم الصمت وتركت العجوز تجيبه قائلة:

- إن ابني يشتغل الآن في المدينة، ونحن وحدنا في الأرض.

وأوفدت الأم غلامها إلى العم وانتظرت صامتة، ثم تقدمت نحوه وقدمت له الشاي دون أن تخاطبه بغير عبارات الترحيب المألوفة، غير أنها أحست بنظراته الحادة التي جعل يصوبها إلى وجهها وإلى قدميها العاريتين.

ووقفت الأم جانبًا بينما جاء العم يكيل الحب ويخرج منه نصيب المالك، وكانت مطمئنة إلى نزاهة العم وأمانته، فلم تر بها من حاجة إلى الاقتراب منه والتحقق من الكيل. لكن شق عليها كما كان يشق على سائر الفلاحين أن تمنح المالك نصيبًا من ثمار كدها. لكنهم كانوا ينزلون عنه صاغرين، فحذت حذوهم. فقد كانت تعلم أن من لا يفعل يتعرض للأذى والعنت. وكان الوكيل نفسه ينال أجرًا له دجاجة سمينة أو كيلًا من الأرز أو عددًا من البيض أو بعض النقود الذهبية.

وفوق هذا كله كان على القرية في مجموعها بعد تمام الكيل أن تولم وليمة للوكيل يساهم فيها كل بيت بنصيب.

ورغم هذا العام الذي بقيت فيه الأم وحدها، فقد ذبحت دجاجة لكي تساهم بها في الوليمة وأنضجتها طويلًا فوق نار رقيقة حتى استحال لحمها مريئًا طريًّا.

وكانت رائحة الدجاجة بعد إنضاجها أكثر مما يستطيع الطفلان احتماله، فجعلا يحومان حول المطبخ ولم يتمالك الغلام أن هتف:

- يا ليتها كانت لنا.

لكن نفس الأم كانت تفيض مرارة لفرط إعيائها، وقالت:

- ومن يستطيع أن يحصل على لحم كهذا إلا الرجل الغني؟

غير أنها ذهبت إلى المائدة بعد انتهاء الوليمة التي اختلطت فيها ألوان الطعام وتناولت عظمة بقيت من دجاجتها تخلفت بها قطعة من الجلد ومزقة من اللحم، فأعطتها له لكي يمتصها وقالت له:

- خذ هذه، وعندما تكبر تستطيع أن تجلس بجانب الرجال على المائدة وتنال نصيبك كاملًا.

فقال الغلام بسذاجة:

- وهل يرضى أبي بجلوسي إلى جوارهم على المائدة؟

فأجابت الأم بمرارة:

- ثق أنه سوف يرضى. وإن لم يكن موجودًا فستحل محله.

* * *

ثم انصرمت شهور العام وأوشك الخريف على نهايته، ولم يكد الطفلان يذكران أنه كان بالفراش غيرهما وغير أمهما. بل إن العجوز ما كانت تتكلم عن ابنها إلا لمامًا. فقد سرت برودة الطقس إلى عظامها وأحيت آلامها. وكان لها ما يشغلها في التماس الأماكن الدافئة البعيدة عن لفح الهواء تحت أشعة الشمس... وجعلت تشكو وتواصل الشكوى لأن الرياح كانت تتغير ولأن الشمس بدت لها وقد تناقصت حرارتها هذا العام عما كانت في سابقه.

وأخذ الغلام يشتغل الآن كل يوم ويؤدي نصيبه من العمل. وإذا لم يكن له ما يعمله قاد الجاموسة إلى الروابي وتركها ترعى الكلأ

القصير وهو ممتط ظهرها طوال النهار، أو يثبت عنها ليجلس فوق أحد القبور حيث يتصيد الجداجد ويصنع لها أقفاصًا صغيرة من سيقان الحشائش. فإذا عاد إلى البيت علق الأقفاص بالباب فتأخذ الجداجد في الصفير ويطرب الطفل والبنت من صفيرها.

ولكن سرعان ما حال لون الحشائش فوق التلال لقدوم الشتاء وحان الوقت لقطعها إذ يتخذ منها وقود الشتاء... فذهب الغلام مع أمه التي كانت تقضي النهار في قطع الحشائش الجافة بمنجلها القصير، فيضفرها الغلام ويصنع منها حزمًا صغيرة. وكان الناظر يرى على سفح الجبال أينما ولى بصره بقعًا زرقاء اللون هي أناس مثل الأم وابنها راحوا يقطعون الحشائش ويجعلون منها حزمًا لوقود الشتاء. فإذا أقبل المساء وغربت الشمس وهب هواء الليل قارسًا من قمم الروابي هبط الناس منحدرين إلى الممرات الضيقة يحمل كل منهم حزمتين كبيرتين مدلاتين من قضيب فوق الكتف. وعلى هذا النحو كانت تفعل الأم، كما كان الغلام يحمل بدوره حزمتين صغيرتين.

وإذا عاد إلى البيت مضت الأم أول ما تمضي إلى الطفل ترضعه ثدييها، فينهل منهما ظامئًا متلهفًا إذ كان يطعم في النهار دقيق الأرز معجونًا.

وكانت العجوز في مطلع هذه الأيام الباردة تدلف إلى فراشها التماسًا للدفء حالما تغرب الشمس. وكانت البنت تسعى إلى الباب وهي تتحسس طريقها وتغمض عينيها قليلًا حتى في هذا الضوء الشاحب الآفل، وتجلس في مدخل البيت لكي تستقبل أخاها طروبة

إذ كانت تفتقده نهارًا وهو يعمل في الحقول.

ولى الخريف إذن، وحان وقت حرث الأرض لبذر القمح، ولقنت الأم غلامها كيف ينثر الحب بمساعدة الريح، وكيف يتقن تجميعها في بقعة دون أخرى. ثم أقبل الشتاء وقد بسقت سنابل القمح قليلًا وتقلصت الحقول وانكمشت التربة بقدوم الشتاء والبرد. وفي هذا الوقت أخرجت الأم ملابس الشتاء من تحت الفراش حيث كانت تحفظها، فبسطتها في الشمس حينًا وأخذت تعدها للبس. لكن عمل الحقول الشاق في إبان الصيف والخريف قد شقق يديها حتى كان القماش القطني الخشن يعلق بشقوقهما كما تصلبت أصابعها ويبست.

غير أنها لم تكل عن العمل، بل جلست في مدخل البيت في الشمس وجعلت تصلح أولًا ثياب العجوز التي اشتدت عليها وطأة البرد. فأمرتها أن تبقى في الفراش يومًا أو يومين وتنزع الكفن الأحمر الذي كانت تلبسه. ودست الحشو القطني الذي كانت نزعته في الصيف بين سطح الجلباب والبطانة. بينما جلست العجوز راضية قريرة العين وجعلت تثرثر مسرورة قائلة:

- هل ترين يا ابنتي أني سأفني هذا الكفن؟ إني أعتقد هذا في الصيف، أما في الشتاء فلا، لأن طعامي لا يدفئني كما كان في الماضي.

فأجابتها الأم وهي غائبة الذهن:

- ستعيشين يا أمي. ولم أر معمرة مثلك تعيش بينما ذهب غيرها.

فطربت العجوز من هذا الكلام وقالت وهي تضحك وتسعل:

- نعم، أنا مخلوقة معمرة.

ولزمت مكانها راضية النفس في انتظار إعداد ردائها.

وتأهبت الأم لإصلاح ملابس الأطفال، فأصلحت للطفل الرضيع ملابس البنت، ولهذه ملابس أخيها، إذ كانوا لا ينالون في العام أكثر من ثلاثة أثواب.

وجعلت تتساءل بعد ذلك ماذا تلبس الغلام حتى يتقي شر البرد. فوجدت أمامها سترة الرجل المرقعة والسراويل التي لبسها ثلاثة أعوام كاملة حتى تمزقت وأصلحتها أكثر من مرة. ولكنها لم تقو على أن تجعل منها كسوة للغلام. وأخذت تديرها بين يديها في ألم، وغمغمت أخيرًا:

- وماذا يكون إذا جاء؟ لن أفعل هذا الآن.

لكن الغلام لم يظفر بكسوة الشتاء وكان يرتعد من البرد في الصباح وفي المساء، فحزمت أمرها أخيرًا وجعلت منها ملابس للغلام وأخذت تهون على نفسها قائلة:

- إذا عاد يمكننا أن نبيع بعض الأرز ونشتري ملابس جديدة. وإذا جاء في أول العام الجديد كان من حظه أن يرتدي ملابس جديدة.

وهكذا مضى فصل الشتاء وبدا للأم أن الأب راجع حتمًا في مستهل العام الجديد، ففي هذه المناسبة يعود كل إنسان إلى بيته إذا كان على قيد الحياة ولم يكن من الهائمين المتسولين. وكانت إذا سُئلت في هذا الشأن تقول لسائليها:

- سيعود لمناسبة وليمة السنة الجديدة.

وجعلت العجوز تردد هذا القول عشرات المرات، وكان الأطفال بدورهم يترقبون هذا الوعد ويتطلعون.

وكانت الأرملة الثرثارة تبتسم ابتسامتها المليئة بالخبث والشماتة وتقول للأم:

- عجيب أنه لم ترد رسالة من زوجك. وأنا أعلم أنه لم ترد رسالة.

فكانت الأم تجيب في أتم مظاهر الهدوء:

- لكني عرفت أخباره مرارًا على لسان رجل مسافر. ولم نألف عادة التراسل وإنفاق المال في هذا السبيل. وإن الكتاب ينسون تدوين أمور كثيرة. وإن ما يكتبونه ويقرأونه يذاع بين الناس وتلوكه كافة الألسن؛ ولذلك فأنا مسرورة لأنه لا يبعث إليَّ برسائل.

بهذه الكلمات أسكتت الأم الأرملة الحاسدة، وبلغ من تكرار توكيدها لعودته في مطلع العام الجديد أن بدا لها أنه لا بد عائد حقًّا.

وحان الوقت وانهمك أهل القرية جميعًا في إعداد معدات وليمة العيد ولم يكن بد من أن تنهمك الأم كذلك في صنع أحذية جديدة للأطفال وغسل ملابسهم القديمة وصنع قلنسوة للطفل الرضيع. بل لم يكن بد من أن تنهمك في الاستعداد لاستقبال الرجل أيضًا.

فملأت سلتين كبيرتين أرزًا كانت ادخرته وحملتهما إلى البلدة وباعتهما بثمن إن كان أقل مما ألف الرجل أن يبيع به، فقد كان

في ذاته طيبًا لأنها امرأة تقوم وحدها بمساومة الرجال. وابتاعت بجانب من النقود شمعتين حمراوين وبخورًا لحرقه أمام الإله وكتابات حمراء تجلب الحظ لكي تلصقها فوق المحراث وسائر أدوات الزراعة التي كانت تستخدمها. كما ابتاعت قليلًا من الشحم والسكر لصنع فطائر العيد. وقصدت إلى أحد الحوانيت فابتاعت بما تبقى معها عشرين قدمًا من قماش قطني أزرق، وإلى حانوت ثان واشترت خمسة أرطال من حشو مقوى مصنوع من القطن المخلوط بالصوف.

أجل... كانت موقنة تمام اليقين من عودته حتى لقد أعملت المقص في القماش وأخذت تفصله بعناية وصبر، وصنعت له أزرارًا من فضلات القماش ضمتها بعضها إلى بعض وخاطتها كثيرًا. ولما تم لها ذلك تركت الملابس في انتظار مجيء الرجل. وخيل للجميع أن هذه الملابس جعلت قدومه أمرًا محققًا.

لكن بزغ فجر العيد ولم يأت الرجل بعد. وجلس الجميع طوال النهار في ملابسهم الجديدة. فأما الطفلان فلهما مظهر نظيف وقد أشفقا أن تتلوث ثيابهما.

واعتصمت الأم بالجلد والثبات وجعلت تبتسم طوال النهار وتقول لهم:

- لم يزل الوقت نهارًا بعد، وقد يأتي في أي وقت.

وجاء إلى الدار خلان زوجها لكي يحيوه تحية العيد إذا كان قد عاد إلى بيته، فقدمت لهم الشاي وبعض الفطائر الصغيرة، وقالت لهم حينما استفسروها عن الرجل:

- قد يأتي اليوم حقًّا، لكن يحتمل ألا يأذن له سيده بالعودة هذه المسافة الطويلة، وقد سمعت أن سيده يحبه كثيرًا ويعتمد عليه.

ولما زارتها النساء في اليوم التالي كررت لهن هذا الكلام، وكانت تبتسم وتبدو مطمئنة النفس مستريحة الخاطر، وقالت لهن:

- ما دام لم يأت، فلا بد أن يرد منه نبأ قريبًا.

وحولت دفة الحديث إلى نواح أخرى.

وهكذا كانت الأيام تمضي والأم تتكلم في يسر وفي غير تكلف فتصدقها العجوز ويصدقها الطفلان ويؤمنون بما تقول.

لكنها كانت إذا ادلهم الليل تبكي في سكون ومرارة.

كانت تبكي لأنه ذهب وهجرها لأنها أصبحت تستهدف للعار والفضيحة. ولأنها امرأة وحيدة فقد بدت لها الحياة شديدة القسوة وهي تعول أربع أنفس يعتمدون عليها.

وذات يوم وهي تفكر في بكائها خطر لها أنها تستطيع أن توفر على نفسها كل هذا العار. أجل... فحين فكرت في النقود التي أنفقتها لشراء ملابس جديدة دون أن يعود، وفي الفطائر التي صنعتها وفي البخور الذي أحرقته في صلاتها وابتهالها لأجل عودته، وحين فكرت في نظرات الأرملة الخبيثة وفي الهمسات الخفية والنظرات المستريبة التي كانت تبدو لها من الجميع حتى من العم الطيب، حين فكرت في هذا كله ورأت أن الأيام تمر دون أن يعود هذا الرجل، بدا لها إذ ذاك أن توفر على نفسها هذا العار، وأن تضع حدًّا لهذه الفضيحة.

فكفكفت الأم دموعها وأسرت في نفسها أمرًا... فجمعت كل ما ادخرته من الأرز وما كان يجب أن تدخره من قش الأرز وذهبت إلى البلدة حيث باعت هذا وذاك، ولما جمعت النقود الفضية في يدها طلبت من البائع إبدالها بورق نقدي. ثم قصدت إلى كاتب الرسائل وهو رجل غريب لا تعرفه في هذه البلدة، وكان يجلس في كشك صغير قرب معبد (كونفوشيوس) فقعدت فوق المقعد الصغير المجاور له وقالت:

- أريد أن أكتب رسالة بلسان أخ لي يشتغل ولا يمكنه أن يعود إلى بيته، فاكتب ما أقول لك. وهو مريض طريح الفراش، ولذلك فإني أكتب بلسانه.

فأخرج الرجل نظارته وكف عن التطلع إلى جمهور المارة وتناول رقعة من ورق جديد وغمس فرشاته في المداد ونظر إليها قائلًا:

- تكلمي إذن، لكن أخبريني أولًا عن اسم زوجة أخيك وعن بيتها وعن اسمك أيضًا. فقالت له الأم:

- إن أخي سألني أن أكتب بلسانه رسالة لزوجته، وهو يقيم في مدينة جئت الآن منها، وليس لاسمي أهمية.

وذكرت الأم اسم زوجها باعتباره اسم الأخ، وذكرت اسم مدينة بعيدة كانت تعرف قربها لمسقط رأسها. ثم ذكرت اسمها هي باعتباره اسم زوجة الأخ التي ستوجه الرسالة إليها، كما ذكرت اسم قريتها لكي يبعث بالرسالة إليها، وقالت له:

- اسمع ما يريد أخي أن يقول لزوجته: «إني أشتغل شغلًا

متواصلًا ولي مركز طيب والأكل متوفر لي وسيدي رجل كريم، وكل ما أؤديه من العمل هو إعداد الشاي لسيدي وتقديم قصبة التدخين له وحمل رسائله إلى أصحابه. وإني أتناول طعامي عنده وأنال ثلاث قطع فضية حولتها ورقًا ماليًا له قيمة الفضة في هذه الأيام، فأنفقيها على أمي وعلى نفسك وعلى الأولاد».

وبعد أن أملت الأم هذا الكلام، جلست وانتظرت، فأخذ الكاتب الكهل يحرر الرسالة ببطء واستغرق فيها وقتًا طويلًا، ثم قال أخيرًا: أهذا كل شيء؟

فأجابت الأم:

- لا، قل هذا أيضًا: «ولم أتمكن من الحضور في عيد السنة الجديدة لأن سيدي يحبني كثيرًا ولم يتيسر له أن يستغنى عني. لكني سأحضر في السنة القادمة إذا تمكنت، وإذا لم أتمكن فسأرسل إليك كل ما أدخره من أجرتي مرة في السنة».

وأخذ الكاتب الكهل يدون مرة أخرى، ثم قالت له بعد أن فكرت قليلًا:

- قل هذا أيضًا: «أخبري أمي العجوز أني سأحضر لها عند رجوعي قماشًا أحمر لصنع كفنها الثالث، وسيكون من أجود الأصناف».

وهكذا تمت الرسالة وذيلها الكاتب الكهل بالتوقيع وختمها بالشمع، وجعل العنوان فوقها، وبلل بريقه طابعًا ألصقه عليها، وقرر لها أنه سيصدرها من مكان يعرفه. فنقدته الأم أجره وعادت إلى بيتها. وكانت هذه الفكرة هي ما أسرته الأم في نفسها حينما

كفكفت دموعها.

* * *

الفصل السادس

بعد مضي سبعة أيام أو نحوها جاء إلى القرية رجل يحمل رسائل في حقيبة فوق كتفه. وكانت هذه ظاهرة جيدة في العصر الحديث لم يكن مثلها في سالف الأيام، وبدا لأهل القرية أن مجيء الرسائل على هذا النحو هو لون من السحر.

ثم تناول الرجل رسالة من حقيبته وأمسكها في يده ونظر إلى الأم طويلًا وسألها:

- هل أنت زوجة الملقب باسم (لي)؟

فأدركت الأم أن رسالتها جاءت وأجابته قائلة:

- أنا هي.

فقال لها الرجل:

- إذن فهذه الرسالة لك وهي من زوجك؛ لأن اسمه مكتوب فوقها.

وأعطاها الرسالة.

عند ذلك تكلفت الأم الهتاف والفرح وصرخت تقول للعجوز:

- جاءت رسالة من ابنك.

والتفتت إلى ولديها قائلة:

- هو ذا خطاب من أبيكما.

ولم يكد الجميع يصبرون حتى تريهم الرسالة، وذهبت الأم تغتسل وارتدت ثوبًا نظيفًا ومشطت شعرها بعناية. وفيما كانت تفعل

سمعت العجوز تخاطب زوجة العم بأعلى صوتها قائلة:

- جاءت رسالة من ولدي!

وما كادت تقول هذا الكلام حتى جعلت تسعل وتضحك حتى انزعجت زوجة العم، وأسرعت إليها وأخذت تدلك ظهرها وتقول بصوتها الرقيق:

- رفقًا يا أمي وإلا قتلت نفسك.

- إن هذه العجوز الفانية تكاد تختنق لأن رسالة جاءت!

فابتسمت الأم وقالت:

- هذا صحيح. وهذه هي الرسالة.

وأبرزت الرسالة لكي تراها زوجة العم.

ولما خرجت إلى الشارع تقاطر الجميع في أثرها، فإن الغلام تبعها وجعل يقول لكل من يسأله إن رسالة وردت من أبيه، وسارت البنت خلفه متعلقة بجلبابه. وإذ كان الوقت شتاء والعمل قليلًا، فقد تبعها جمع من الرجال والنساء المتبلطين وزحفوا جميعًا إلى بيت الكاتب الذي دهش من حضور هذا العدد العديد على هذا النحو الفجائي. على أنه حينما فهم ما يراد منه تناول الرسالة وتأملها قليلًا وأدارها على وجهيها وجعل يتمعن فيها، ثم قال أخيرًا برزانة:

- هذه الرسالة من زوجك.

فقالت الأم:

- أنا خمنت هذا.

وصاحت الأرملة التي كانت بين الجميع قائلة:

- وممن تكون غير زوجها يا رجل يا طيب؟

فضج الجميع بالضحك من هذه الكلمات.

ثم أخذ الكاتب يتلو الرسالة في تؤدة، فخيم السكون على الجميع وأنصت الولدان وأنصت الجمهور. وكان الكاتب يتوقف بعد كل كلمة يتلوها لكي يفسر معناها لأن الكلام المكتوب غير الكلام المنطوق من ناحية، ولأن الكاتب أراد من ناحية أخرى أن يبين مبلغ علمه ومدى اطلاعه.

وكانت الأم تنصت وكأنها لم تسمع كلمة من هذه الرسالة من قبل، وجعلت تومئ برأسها بعد كل كلمة. ولما وصل الرجل إلى الكلام المنبئ عن إرسال النقود رفع صوته عاليًا واضح النبرات تنويهًا بهذا الحادث الخطير، ومن الناس من فغر فاه وهتف:

- لكن هل كان في الرسالة نقود؟

فأومأت الأم برأسها إيجابًا وبسطت كفها وكشفت عن الورقة المالية التي استبدلت بها نقودها الفضية، وقدمتها للكاتب لكي يفحصها، فقال في لهجة خاشعة رزينة:

- أرى حقًّا رقم (عشرة)... ولا بد أنها تساوي عشر قطع فضية.

عند ذلك طلب الجميع أن ينظروا إلى الورقة المالية واصروا على الطلب، فرأوا صورة قائد بدين ذي شاربين مرسومة على الورق. ولم تتمالك الأرملة الثرثارة أن هتفت منزعجة حينما رأتها:

- كم تغير زوجك يا أختي.

فقد حسبت أنها صورة الرجل نفسه، وشاركها الجميع هذا الاعتقاد إلا فيما عدا الزوجة نفسها، وقد قالت لهم:

- ليست هذه صورة زوجي، فأنا أعرف هذا.

ولاذ الكاتب بخياله وقال:

- هي من غير شك صورة سيده.

وجعل الجميع يتفرسون فيها ويعجبون من مظاهر الغنى والامتلاء البادية على صاحبها.

ثم لزموا الصمت وقد ساورهم العجب والحسد، وأخذوا يراقبون الأم وهي تطوي الورقة المالية الثمينة وتطبق عليها يدها في حرص وحذر.

ولما أتم الكاتب تلاوة الرسالة طواها ووضعها في غلافها وقال برزانة:

- أنت زوجة موفقة كل التوفيق، فليس كل النساء يوفق أزواجهن في الذهاب إلى المدن الكبيرة وإيجاد مثل هذا العمل الطيب، وليس كل من يوفق إلى هذا منهم يرسل إلى زوجته أجره على هذا النحو. فإن في المدن أماكن كثيرة لإنفاق المال كما سمعت.

فما كاد الناس يسمعون هذا الكلام حتى تراجعوا أمامها في تجلة واحترام، فسارت إلى بيتها فخورة مزهوة، وتبعها الطفلان يشاطرانها هذا المجد. ولما بلغت الدار قصت على العجوز كل شيء، فضحكت العجوز سرورًا وطربت على الأخص مما قاله

ولدها عن الكفن الثالث وهتفت في صوتها الراعش المتهدج وهي تضرب على ركبتيها سرورًا:

- أما ولدي هذا! أحلف أنه لا يوجد ولد مثله! ولا شك أن قماش المدن من أجود أنواع الأقمشة.

ثم بدت عليها دلائل الرزانة وقالت مشفقة:

- نعم يا ابنتي. إذا كان هذا القماش من النوع الطيب الذي أشار إليه، فإني أشك في أني سأبليه قبل موتي. ويحتمل أن هذا الثوب سيكون كفني الأخير.

وبدت على وجه الغلام دلائل الرزانة حين رأى جدته كذلك، وهتف مخلصًا:

- لا يا جدتي، لن يكون كفنك الأخير؛ لأنك أبليت ثوبين ومحال أن يكون هذا الثوب أمتن من الاثنين معًا.

فلما سمعت العجوز هذا الكلام عاد لها انتعاشها وضحكت مسرورة من ذكاء الغلام وقالت للأم:

- جميل منك يا ابنتي أنك تذكرت كل ما قاله. وكأنك كنت نفسك تقرأين كلامه.

فقالت الأم بهدوء:

- نعم، إني تذكرت كل كلامه.

ودخلت وحدها إلى الدار، ووقفت خلف الباب وجعلت تبكي في صمت وسكون، ولم تكن الرسالة ولا الورقة المالية التي لها قيمة الفضة سوى هباء أو كالهباء بالقياس إلى كرامتها المجروحة.

كانت الرسالة والورقة المالية شيئًا تافهًا زهيدًا في نظرها، ولم يكن لهما أدنى قيمة ولا أقل مغزى.

غير أن هذا التدبير كان له قيمته ولم يعد أحد من أهل القرية يتهكم منها أو يعيرها بأنها امرأة هجرها زوجها. بل لقد كان من شأن هذه المناسبة أن تشعرها بالصلابة إزاء أهل القرية. فما كادوا يعرفون أنها تملك ورقة مالية وأنها ستتلقى مثلها في العام القادم حتى سعى بعضهم سرًّا للاقتراض منها، وكان في طليعتهم كاتب القرية وبعض الرجال المتبطلين الذين أرسلوا زوجاتهم للحصول على هذا القرض، فشق على المرأة أن ترفض لأن أهل القرية جميعًا كانوا من ذوي القربى، وكانوا جميعًا يلقبون باسم (لي). لكنها جعلت تنتحل الأعذار وقررت أنها أنفقت الورقة المالية في وفاء دين عليها.

وكانت الأرملة كلما رأتها سائرة في الطريقة تقول بلهجة ذات مغزى أن القماش أصبح غالي الثمن في هذه الأيام وحتى الإبر عز ثمنها، وأن ثمن الخيوط الملونة التي تصنع منها الأزهار فوق الأحذية قد تضاعف.

وكانت إذا وقفت ببابها هتف الجميع قائلين لها:

- من حسن حظك أنك لا تفكرين مرات في كل درهم تنفقينه، فإن زوجك يربح الفضة ويرسلها إليك.

وكان بعض الرجال يقول لبعض:

- إني أشك فيما إذا كان من الخير وجود مثل هذه المرأة الغنية في قريتنا فتجذب اللصوص إليها. نعم، إن اللصوص يحومون حيث

يكون الغني، كما يحوم الذباب حول العسل.

وبدا للأم أخيرًا أن هذه الورقة المالية ستكون مصدر قلقها الدائم ونغصها المستمر، لا بسبب ما كان الناس يلوكونه بشأنها فحسب، ومنهم من كان يجيء إليها لكي ينظر الورقة عن كثب، بل لأن الأم فوق هذا لم تألف حيازة نقود من الورق. وقد بدأت تمقتها إذ خافت أن يطيح الهواء بها أو تعمل الفيران أسنانها فيها أو يمسكها الأولاد وهم يلعبون ويمزقونها ظنًّا بأنها لا شيء. وقد اضطرت كل ليلة أن تتحقق من وجودها في سلة الأرز حيث أخفتها، إذ خافت إن هي وضعتها في الجدار الطيني أن تلصق به وتفسد.

ولما ثقلت على نفسها وطأة هذه الأفكار أسرعت إلى العم يومًا حينما رأته يهم بالذهاب إلى البلد وهمست في أذنه:

- اعمل معروفًا وأبدل هذه الورقة بفضة صلبة لكي أشعر بها في يدي. فإن هذه الورقة لا تبدو شيئًا كلما أمسكت بها.

وهكذا أخذ العم الورقة المالية، وإذ كان بطبعه رجلًا عفًّا أمينًا فقد أبدلها بفضة طيبة صحيحة، ولما عاد إلى الأم جعل يرن القطع بعضها ببعض لكي يبين لها جودتها وسلامتها، فأعربت له الأم عن امتنانها وقالت له- ولو أنها في الحق قالت مكرهة إلى حد ما- لولا أنها لم ترد أن تبدو في مظهر الشح والجمود:

- خذ قطعة منها يا عمي جزاء تعبك وجزاء مساعدتك لي في حصاد الأرز، فإني أعلم أنك محتاج إليها، وإن زوجتك حبلى.

ورغم أن الرجل حدق في قطعة النقود واستنشق بلهفة دون أن يفطن لنفسه وجعل يغمض ويفتح عينيه متلهفًا، رغم هذا كله فإنه

لم يأخذ القطعة، وقال بسرعة قبل أن يغالبه تلهفه، فقد كان حقًّا رجلًا طيبًا عفًّا:

- لا يا زوجة العم. أنت امرأة وحيدة وأنا رجل قادر على العمل.

فقالت الأم:

- لا بأس، لك أن تقترض إذا احتجت.

وسارعت بإخفاء قطعة النقود، فقد كانت تعلم أن الإنسان مهما كان موفور الطيبة لا يقوى على إغراء المال وإنما يضعف دونه.

وفي تلك الليلة نهضت الأم بعد أن نام الأولاد والعجوز فأضاءت شمعة وحفرت حفرة بفأسها في تربة الأرض الصلبة ثم أخفت فيها قطع النقود العشرة بعد أن لفتها بخرقة صونًا لها من رطوبة الأرض. وقد أدارت الجاموسة رأسها وحدقت فيها بعينيها الواسعتين المتبلدتين. واستيقظ الدجاج المحبوس تحت الفراش وجعل ينظر إليها بهذه العين ثم بتلك وهو ينق نقيقًا خافتًا وقد أدهشه هذا الحادث الغريب في الليل. لكن الأم ردمت الحفرة وداست فوقها مرات حتى تسويها بسطح الأرض، ثم عادت إلى الفراش وانطرحت فوقه في الظلام.

ومن عجب أنها وقد تمددت في مكانها بين اليقظة والحلم نسيت أو كادت تنسى أن هذا الذي دسته تحت الأرض هو فضتها، الفضة التي جنتها من بيع المحصول الذي حصدته بيديها وكانت تنحني وقد بلغ الإعياء منها مبلغه كلما جمعت حبوبه حفنة حفنة. أجل، نسيت الأم هذا كله، وخيل أو كاد يخيل إليها أن الرجل قد أرسله إليها حقًّا وأنه شيء أوفر وأقوم مما كانت تملك، وغمغمت من

قلبها: «هذه الفضة هي مكان الفضة التي أخذها وأنفقها في شراء الرداء الأزرق، بل هي أفضل، فهي أكثر»، وصفحت عنه واغتفرت له ما صنع، ثم استغرقت في النوم.

وكانت إذا سألها سائل أن تريه الورقة المالية تجيبه بهدوء:

- إني أبدلتها بفضة عادية وأنفقتها.

ولما سمعت الأرملة الثرثارة هذا الكلام هتفت وقد تدلى فكها:

- لكن هل أنفقتها كلها؟

فأجابت الأم في يسر وسهولة وهي تبتسم:

- نعم أنفقتها في شراء ما كنت أحتاج إليه من الأواني والأقمشة. ولِمَ لا أنفقها وسأنال أكثر منها؟

ودخلت الدار وجاءت بالملابس الجديدة التي كانت صنعتها للرجل وقالت: هذا مثال من الأقمشة التي اشتريتها.

فجعلت النساء الواقفات يحدقن في القماش ويجسسنه بأصابعهن ويبدين إعجابهن بجودته ومتانته. وقالت الأرملة برغمها:

- أحلف أنك امرأة طيبة لأنك تنفقين بعض المال في شراء ملابس له، ولا تنفقينه كله على نفسك وعلى أولادك.

فقالت الأم على الفور:

- لكني وزوجي على تمام الوفاق، وقد أنفقت بعض النقود على نفسي، فإني أعطيت جانبًا لصائغ وطلبت منه أن يصنع لي قرطًا وأساور؛ لأن زوجي كثيرًا ما كان يقول إنه يجب أن تكون لي

مثل هذه الحلي إذا توفر لنا بعض المال الزائد.

وقد أنصتت العجوز إلى هذا الكلام كله، ثم هتفت أخيرًا:

- أحلف أن ابني هو كما وصفته زوجته. وهو سيشتري لي كفني الثالث وسيكون من أجود الأقمشة التي تباع في المدن. وهو ابن طيب يا جيراني، وأنا أتمنى لكل منكم ولدًا مثله، ولا سيما لك يا زوجة العم، فإني ارى بطنك منتفخة كالبطيخة الناضجة.

فلما سمعت النساء هذا الكلام ضحكن وتفرقن واحدة بعد الأخرى إذا أقبل المساء. لكن الأم أخذت تتوجع في نفسها بعد انصرافهن من جسامة هذه القصة التي قالتها. وأخذت تؤنب نفسها وتقول في ضميرها: «ما الذي جعلني أقول هذا الكلام الجسيم. ولا أقنع بما قلته حتى الآن؟ أين أجد النقود لشراء هذه الحلي؟ ولكن يجب أن أفعل هذا على أي وجه حتى لا أفضح نفسي».

ولم تتمالك أن تنهدت حينما فكرت في ضخامة العبء الذي حملته نفسها.

* * *

الفصل السابع

كانت هذه المرأة منذ بدء شبابها مخلوقة ذات مشاعر متأصلة وإحساسات عميقة، ولكنها ساكنة صامتة. ولم تكن مثل بعض بنات جنسها، تسارع بتوزيع نظراتها على هذا الرجل أو ذاك وتطنب في امتداح أي رجل تراه وتعجب به. كلا، بل كانت امرأة عميقة الفؤاد، موفورة الحياء. ولم يحدث قبل زواجها وحين كانت فتاة عذراء أن اتجهت بخواطرها إلى الرجال من حيث هم رجال. وكانت إذا هزتها المشاعر العنيفة والأشواق الغريبة عن نفسها لا تتطلع قط إلى الرجال لترى كنههم بل كانت تطوي الضلوع على حنينها وأشواقها وتحتملها في صبر وسكون وانتظار. فلما تزوجت وأدركت كنه الرجل سطع أمام عينيها قدر يسير من ذلك الحنين الصامت الذي كان يجيش في نفسها، وعرفت حتى حين كانت تؤنب هذا الرجل أحيانًا وتغضب منه أنها لا تستطيع الحياة بدون وجوده معها.

على أن الرجل وحده لم يكن يكفي. بل كان ينبغي أن تحمل منه وأن تستشعر الطفل يتكون في أحشائها وتدب فيه الحياة، وبهذا تتم الزوجية. وفي الوقت الذي يتحرك فيه الطفل وينمو كانت تغمرها موجة من السعادة بتحقيق مطمحها ومشتهاها. أجل، وحتى حين كانت تسخط على أطفالها إذ يبكون ويشتكون ويتشبثون بعناد الطفولة الغريزي، حتى حين يحدث هذا كانت إذا طالعتها علائم حمل جديد ساورها إحساس رضاء جسدي مستعذب وكأنها شبعت

وارتوت ونامت ولم يعد ينقصها شيء من مطالب الجسد المادية.

وكذلك كان حبها للطفل أمرًا مقررًا لا ريب فيه، بل كذلك كان شأنها في الأيام الخالية حين كانت فتاة عذراء في دار أبيها في قرية بين الروابي لا تزيد عن هذه القرية إلا قليلًا. فقد كانت هذه الدار حاشدة بالأطفال وكانت كبراهم وكانت بمثابة الأم لهم. لكنها ما كانت قط تستشعر لهم غير المحبة حتى وهي منهوكة الجسم تعبًا من تأثير العمل المتصل المضني وهم يتراكضون حولها ويضايقونها بلهوهم وعبثهم ولعبهم. فقد كانت ترى في طفولتهم وضآلتهم ما يرقق قلبها، ويلين نفسها. وطالما كانت تحمل صغارهم سواء من بيت أبيها أو من بيوت جيرانها فتضمهم إلى صدرها وتدللهم ما شاء لها إحساسها، إذا كان قرب الطفل إلى نفسها يثير في صدرها سرورًا حارًّا ولذة عنيفة، وإن لم تكن تدري مصدر هذا السرور ومبعث هذه اللذة.

وكذلك كان كل ما هو صغير غض محببًا إلى نفسها قريبًا إلى وجدانها.

كانت في الربيع تحب الأفراخ وصغار البط، وهي تنحدر من أغشيتها، وكانت إذا هجرت دجاجة عشها لسبب ما وتركت صغارها في إبان التفريخ عمدت هي إلى البيض فجعلته في كيس وضمته إلى جسدها الدافئ، وتظل تروح وتغدو به في رفق ولين حتى يتم التفريخ ويخرج الصغار إلى نور الحياة.

ولما خرج أطفال بيتها الصغار عن دور الطفولة وأشرفت هي على سن الزواج وقع لها حادث نبهها وأثار كامن عاطفتها، فقد

كان بين أطفال جيرانها طفل صغير لا يكاد يقوى على السير، وكان بضًّا مستدير الوجه تحمله أخته في ذلك الصيف عاري الجسد مشدودًا فوق ظهرها بقطعة من القماش. فكانت تعمد إلى هذا القماش فتفكه وتحمل الطفل عن ظهر أخته التي تتخلى عنه مسرورة بخلاصها منه وتذهب للعب والمرح مع أترابها.

وتكرر هذا الحادث كل يوم، وجعلت الأم، وهي فتاة في ذلك العهد، تترقب رؤية هذا الطفل البض المستدير الوجه كالبدر حتى أصبح مصدر سرورها وصار أثيرًا لديها ومحببًا عندها، وكانت تمسكه وتشمم راحتي يديه البضتين وتستطيب وجنتيه المستديرتين وشفتيه الصغيرتين الورديتين. وكانت تحمله معها في غدوها ورواحها وإذا أنكرت أمها ذلك منها وعجبت من تشبثها بهذا الطفل ولديها العديد من إخوتها الأطفال، كانت تجيبها ضاحكة: «أنا لا أمل الأطفال ولا أشبع منهم!».

وسرعان ما أثار هذا الطفل في نفسها حنينًا لم تكن تشعر به من قبل دون أن تفطن إلى ذلك. فقد كانت تريد أن يكون لها أبناء شأن النساء جميعًا، وكانت ترى من حقها أن تظفر بهؤلاء الأبناء يومًا بعد زواجها. لكن هذا الطفل الهادئ الموفور الصحة أثار في نفسها أكثر من مجرد الشوق إلى الأبناء، وقد تطور ما كان أول الأمر عبثًا بالطفل تطورًا أعمق واستحال إلى عاطفة عميقة غامضة وحنينًا لشيء لا تدرك كنهه أو تحديده.

وجعلت كلما أصبح الطفل بين يديها والكل منشغلون عنها بالعمل في الحقول أو في المطبخ وأخته منصرفة عنه إلى لعبها، جعلت

تنتحل الأعذار للانفراد بهذا الطفل وتضمه إلى صدرها. وكانت تناجيه بالألفاظ الرقيقة وتدلله بين ساعديها وتستشعر جسده الصغير البض إلى جسدها. وكانت تمضغ له بعض الأرز وتدسه في فمه والطفل دهش من أمرها، فتضحك وإن لم تكن تدري سبب هذا الضحك، فهي لم تكن تحس مرحًا ولا جذلًا، وإنما كان ينتابها حنين جائش لا تدري كيف تسكنه.

وذات يوم قبيل زواجها كانت وحدها مع هذا الطفل وأقبل الظهر دون أن تأتي أخته لحمله إلى أمه كي تطعمه، وأخذ الطفل يتقلب متبرمًا متضجرًا ولم يشأ أن يلزم السكون، فلما رأت جوعه على هذا النحو ذهبت به إلى غرفتها يحفزها إحساس غامض عنيف لم تفهمه ولكنها شعرت به يغلي في دمها، فأغلقت الباب وكشفت عن صدرها بيدين مرتعشتين وأسلمت للطفل ثديها فجعل يرضع ويمصه بشدة. وفي ذلك الحين أحست وهي تحدق في وجه الطفل بتفاعل شديد في دمها لم تكن تعهده من قبل، وانحدرت الدموع في عينيها وجرت على شفتيها غمغمة متقطعة غامضة ليست كالكلمات، وأمسكت بالطفل تضمه إلى صدرها دون أن تهتدي إلى تفسير لهذا الإحساس الذي ألم بها. هذا الإحساس الذي كان لونًا من الحنين الحاد واللهفة البالغة، والذي كان أسمى وأعظم من الطفل نفسه، بل كان أسمى وأعظم من شخصها.

ثم انتهت هذه اللحظة. فقد كان ثديها جافًّا وبكى الطفل مخيبًا، فضمت رداءها ثانية وساورها حياء من مسلكها وخرجت من غرفتها، فجاءت أخت الطفل مسرعة وحملته وذهبت به إلى أمه.

لكن هذه اللحظة كانت بادرة اليقظة وكانت أكثر من الزوج. فقد كان الزوج رغم تعلقها به وكونه كل شيء في نظرها، يمثل جزءًا من الأمومة، ولم تكن تحبه لذاته فقط ومن حيث هو زوج ورجل.

* * *

ذلك كان شأنها في عذريتها وشبابها، والآن وقد نضج جسدها وألمت بكل شيء إذ هي تصبح وحيدة في إبان نضوجها وعنفوان حياتها. وكان الأطفال يترعرعون كل يوم ويشبون وكلما ترعرعوا وشبوا بعد العهد بينهم بين الطفولة وبدوا أغرابًا، كالأغراب عنها.

فقد فرغ الغلام واستطال عوده وبدا نحيلًا. وكان يلوذ بالصمت ويستنفد جهده في أداء أعماله الشاقة وواجباتها الثقيلة. وكانت الأم إذا أرادت حمل المحراث الخشبي الجافي الصنع آخر اليوم لكي تعود به إلى الدار أمسك الفتى به وحمله فوق كتفيه الضئيلتين وسار يترنح ويتمايل به فوق التربة المتشققة، ولما كان التعب يبلغ منها غايته أحيانًا كانت تتركه يفعل ولا تعترض رغبته. وقد أخذ الفتى على عاتقه الآن رفع الماء من البئر وإطعام الجاموسة، وجعل يكافح للقيام بنصيبه وبأكثر من نصيبه في عمل الحقل وكأنه هو رب البيت وعميد الأسرة.

غير أنه برغم هذا كله كان هناك شيء غامض يبعده عن هذه المرأة ويقصيه عنها وهي أمه. وكانت تراه رغم اضطلاعه بهذا العمل عن طيبة خاطر وإقبال أيضًا، كانت تراه ينأى عنها على وجه لم تستطع له تفسيرًا ولا فهمًا، ولم يكن يميل إلى القرب منها

وإنما كان يقف بعيدًا عنها، وكأنما تنبعث منها رائحة لا يطيق احتمالها. وكانا أحيانًا يختلفان ويتشاحنان على شأن من شئون هذا العمل المشترك كأن تطلب منه أن يمسك الفأس على نحو معين فيرفض الإذعان وأن كان في طريقته عنت وإرهاق له. غير أن كليهما كان يعلم أن العمل ليس هو مصدر هذا الخلاف أيضًا، وإنما الباعث عليه سبب أكثر عمقًا لا يدري أحدهما تحديده وتفسيره.

ولم تكن البنت بدورها مصدر فرح لها وهي كليلة البصر نصف عمياء. غير أن هذه البنت كانت تقوم بعملها صابرة باذلة فيه أقصى الجهد، ولم تعد تشكو أو تتذمر كما كان شأنها من قبل. ولما ترعرع الطفل الأصغر واستطاع أن يسير وأن يجري واستطاب الركض في الشارع واللعب والصياح مع أترابه، كانت البنت تتركه وتنضم إلى أمها وأخيها حيث يكدان في الحقول. لكنها حتى في هذا الشأن كانت مثار تعب لا مصدر عون لهما، لا سيما في الحقول ذوات النباتات الغضة والمزروعات الصغيرة. فقد كانت من كفاف البصر بحيث إذا عالجت نزع الطفيليات لم تنظر مواقعها جيدًا وتنتزع النبت الغض مكانها، فكان الفتى يصرخ فيها غاضبًا:

- خير لك أن تذهبي إلى البيت. فلا فائدة منك. روحي اقعدي عند جدتك العجوز.

فإذا نهضت البنت من مكانها وهي تبتسم ابتسامة يسيرة إزاء هذه الكلمات التي كانت تحز في نفسها حزًّا أليمًا، راح الفتى يصرخ

فيها ثانية قائلًا بخشونة:

- افتحي عينيك جيدًا وانظري أي طريق تسلكين، إنك تسيرين فوق المزروعات.

وهكذا كانت البنت تسرع في الابتعاد عن الحقل تدفعها كرامتها المجروحة إلى مفارقة هذا المكان. وكان قلب الأم نهبًا مقسمًا بين هذين الاثنين، بين ابنها وبين ابنتها الكفيفة. وكانت تستشعر ما يساور قلبيهما، فقلب الفتى يفيض مرارة وإعياء من هذا العمل الشاق الذي يجاوز سنه، وألم البنت يغلب صبرها. وتروح تقول لها متنهدة وهي تقفل راجعة إلى البيت:

- صحيح يا ابنتي أن الفائدة منك قليلة وأنك لا تقدرين حتى على الخياطة وعيناك بهذه الحالة السيئة، لكن اذهبي إلى البيت واكنسي الأرض وجهزي الأكل وأوقدي النار؛ لأن كل أولئك هو أنسب الأعمال التي تستطيعين القيام بها على وجه مرض. وهناك تستطيعين أيضًا الإشراف على أخيك الصغير والسهر عليه لئلا يقع في الترعة. وتصنعين لجدتك قدحًا من الشاي. هذه كلها هي واجباتك ولما أفرغ من عملي أذهب خصيصًا لأحضر لعينيك مرهمًا.

بمثل هذا الكلام كانت الأم تهون على ابنتها ما تلقى وهي نفسها في حاجة إلى ما يهون عليها ما ترى من هذه البنت التي تجلس الساعات الطوال ساكنة صامتة تكفكف ماء عينيها المنحدر وأجفانها الملتهبة وتبتسم ابتسامتها المنبئة عن الصبر والتسليم.

وكانت الأم إذا نظرت إليها أحيانًا وسمعت إنحاء أخيها وتحامله

عليها ورأت تعلق الطفل الأصغر باللعب وغرامه بالابتعاد عنها، لا تتمالك أن تسائل نفسها في مرارة كيف كانوا وهم صغار يفيضون جمالًا وبهجة في عينيها، وهم الآن أبعد ما يكونون عن تسكين خاطرها وتطييب نفسها.

أجل... كانت هذه الأم أحيانًا تتطلع في المساء شطر بيت العم وهي تفيض ألمًا وحسدًا. فقد كانت ترى فيه الزوج الطيب الأمين وذلك الفلاح الساذج. وهو وإن لم يكن في نظافة زوجها ووسامته فقد كان برغم هذا لا بأس به. وكان يثابر على أداء واجبه اليومي ويعود إلى البيت لكي يأكل وينام كما ينبغي أن يأكل الرجال وينام. وكانت ترى إلى جانبه أطفاله الذين ينجبهم بانتظام وزوجته التي تجلس طروبة مرحة راضية قريرة العين بطفلها الأخير الذي تحمله فوق ركبتيها، وإذ كان لسانها لا يكاد يستقر في حلقها وكانت مخلوقة سطحية، فهي رغم هذا طيبة القلب وجارة كريمة. وكانت أحيانًا تجيء إليها وتقاسمها نصيبًا من اللحم تصيبه أو تهدي أطفال الأم بعض الفاكهة أو تدفع إلى البنت الكفيفة بوردة صناعية لكي تضمها في شعرها.

فقد كانت تخيم على هذا البيت إذن علائم الرضا والقناعة وكانت الأم تحسد أصحابه. وكان حنينها يزيد في نفسها عمقًا ويكتسب طابع الضيق والتبرم وعدم الرضا.

* * *

الفصل الثامن

لو كان بوسع الأم أن تنسى الرجل وتقضي على ذكراه في نفسها، ولو كان في عداد الموتى ورأته بعينيها موسدًا في التراب جثة هامدة فارقتها الحياة إلى الأبد، ولو صارت أرملة وأيقنت من انتهاء عهد الزوجية، إذن لهان على نفسها ما تلقى.

ولو عرفتها القرية أرملة وتسنى لها أن تحتفظ بهذا الترمل نقيًّا لا تشوبه أدنى شائبة، ولو أتيح لها أن تسير في الطريق فتسمع الناس يقولون عنها: «هذه زوجة (لي) الذي مات وقد بقيت من بعده أرملة وفية طيبة وهو الآن راقد في التراب، وهي تحيا من بعده عفيفة وفية لذكراه»- لو أتيح لها أن تسمع مثل هذا الكلام لكان مشددًا لنفسها ومسكنًا لخاطرها، ولعاشت كما ينبغي أن تعيش مثلها.

لكنها لم تكن أرمل، وينبغي لها أن تجيب سائليها عن حال زوجها وأن تكذب وتمعن في الكذب والاختلاق، وأن تذكره أبدًا كلما عمدت إلى هذا الكذب وهذا الاختلاق.

وكانوا يسألونها كلما سارت في الطريق حاملة فوق كتفها شيئًا تبيعه في السوق أو عائدة إلى البيت بالسلال الفارغة: «هل تلقيت أخيرًا رسالة من زوجك أو نبأً شفويًّا يخبرك عن أحواله وشئونه؟»- فتجيب وقد نال منها الجهد المميت والإعياء القاتل: «نعم، سمعت على لسان الرسل أنه على خير ما يرام، لكنه لا يكتب إلا مرة واحدة في السنة».

لكنها كانت إذا استقرت في البيت تتمزق قلبًا بهذا الكذب المتصل وكانت أحيانًا تغمرها الوحدة ويطغى عليها الحزن فتهتف من أعماق قلبها: «ما أتعسني وأشد وحشتي. أنا التي أخلق لنفسي رجلًا من عالم الكذب والأوهام!».

وكانت تجلس أحيانًا أخرى وتحدق في الطريق وتناجي نفسها بهذه الكلمات:

- إذا خطر له أن يجيء فإن رداءه الأزرق يبدو من مسافة بعيدة فهو صاف شديد الزرقة.

وكانت حقًّا إذا رأت جلبابًا أزرق عن بعد يثب قلبها فرحًا. وكانت إذا مر أمامها عن بعد رجل لابسًا جلبابًا أزرق أمسكت عما هي آخذة فيه وكتمت أنفاسها حتى ترى أي طريق يسلك وأي وجهة يتجه. فإذا كانت في الحقول ألقت الفأس وظللت عينيها بيديها وجعلت ترقب صاحب الجلباب الأزرق لترى إذا جاء إلى ناحيتها أو واصل سيره بعيدًا عنها. وكان صاحب الجلباب يتجاوزها أبدًا. فإن الجلباب الأزرق لباس شائع يرتديه كل الناس إذا كانوا من العامة والفقراء.

لكنها كانت أحيانًا أخرى تغضب من هذا الرجل لفرط ما يحملها عليه من الكذب وتقرر لنفسها أنه لا يستحق هذا كله، وأنه إذا جاء حقًّا فستصب عليه جام غضبها وتستمطر على رأسه اللعنات. وكان هذا الغضب يدوم أيامًا فينتابها التبرم والضيق وتتنكر للأطفال والعجوز وتدفع عنها الكلب بالفأس في خشونة، وإن كانت إذا فعلت هذا تزيد من حزنها وتضاعف من شجنها وكربها.

وجاء أوان قسمة محصول الأرز وهي فريسة هذا التأثير، فقد أخذت تكد وتكافح مرة ثانية وحدها إلا ما كان الفتى يقدمه من المساعدة وإلا يومًا أو يومين أسدى فيهما العم الطيب إليها معونته، حتى تم الحصاد أخيرًا وحان وقت اقتسام المحصول. وقد خيل للأم في هذا اليوم أن الحنين والغضب قد جعلا من قلبها كتلة جريحة. فكان كل ما تراه يقع من قلبها موقعًا أليمًا. ورأت في هذا العام ما لم تكن ترى في الأيام السالفة.

وفيما هي تحت سلطان هذا الحنين وقد وقفت في الجرن قرب المحصول المكوم، وجاء وكيل المالك، وكان طويل القامة يرتدي ثوبًا من حرير رمادي ويبدو وجه مستديرًا ممتلئًا وسيمًا. وقد رأت فيه هيئته الآنفة التي عرفتها، هيئة الأدب المتكلف. لكن عينيه كانتا ممتلئتين ثقيلة الأجفان نصف مطبقة فوقهما. وفهمت المرأة من كيفية نظره إليها بهاتين العينين السالف وصفهما أنه سمع قصتها وعلم أن زوجها قد ذهب إلى جهة أخرى ولم يعد أبدًا.

أجل، لقد كان قلبها اليوم طافحًا بما جعلها تفهم من مظهره معرفته لأمرها. والحق يقال إنه كان رجلًا من طراز هؤلاء الرجال الذين إذا رأوا امرأة مهجورة فطنوا في أعماق نفوسهم إلى حالها وعرفوا تكوين قلبها وتحديد جسدها.

وكان هذا الرجل يتكلف في كلامه الإخلاص والصراحة، لكنه كان رغم هذا الأدب المتكلف ورغم كلامه المعسول مكروهًا من أهل القرية الذين يخافون بأسه بسبب طبعه الحاد وتهديده من

يختلف معه بيديه اللتين كان يضمهما ويركزهما في خاصرتيه. وفي هذه المناسبات يرفع جفنيه فتبدو عيناه مخيفتين لامعتين سوداوين تطل منهما القسوة. غير أنهم كانوا مع ذلك يضحكون من كلامه أيضًا. فقد كان إذا أعطوه ما يريد بغير مخاصمة ألقى عليهم بعض النكات التي تضحكهم، وإن كان ضحكهم لا يخلو من تحفظ وحذر.

وهكذا جعل الرجل حينما جاء إلى بيت الأم يتكلف المرح وخفة الروح. وكان يعلم أنها تعيش وحدها بغير رجل. فقال للفتى الذي كان واقفًا:

- أرى أن أمك في غير حاجة إلى أبيك وأنت موجود هنا للإشراف على الحقول.

فبدت على هيئة الفتى علائم الزهو والحياء معًا، إذ أرضاه هذا الثناء وقال:

- صحيح أنا أقوم بنصيبي.

وبصق الفتى كما رأى الرجال يفعلون، ووضع ذراعيه خلف ظهره وأحس بأنه قد شب وصار رجلًا.

فضحك الوكيل ونظر إلى الأم كأنه يريد أن تشاركه هذا الضحك الرقيق بشأن فتاها، ولم تتمالك الأم من الابتسام، وقدمت له قدحًا من الشاي في أدب ومجاملة كما تفعل لكل ضيف عابر. ولم تتمالك وهي قريبة من عينيه الضاحكتين إلا أن تنظر فيهما. وإذ ذاك انعكس في عينيها قلبها الظامئ الجائع المنهوم دون أن تفطن لذلك. وحدق الرجل فيها وأحس عاطفتها الحارة القوية، فجرى

دمه حارًّا وبدت عليه دلائل الرزانة. ولما تناول منها قدح الشاي لمس يدها وكأنه لا يعلم موقعها، لكن المرأة شعرت بلمسه وفطنت إلى مغزاه وكان له وقع النار في دمائها.

ثم تحولت عنه في خجل ولم تستمع لصوت قلبها، بل تشاغلت بالمحصول وتسلط عليها الخوف من نفسها فجأة، وقالت للفتى في صوت خافت:

- أسرع إلى عمك وقل له أن يحضر لمساعدتي.

ثم ناجت نفسها محاولة تسكين ثوران قلبها:

- إذا جاء هنا، إذا جاء العم الطيب هنا.

لكن الفتى كان مزهوًا بنفسه وقد لزم العناد وقال يجادل أمه:

- «أنا هنا يا أمي، وسأساعدك، من غيري تريدين؟ انظري، أنا هنا».

فضحك الوكيل عاليًا وضرب على عجزه وانتهز فرصة سذاجة الفتى وهتف:

- صحيح أنت موجود يا ابني، وصحيح أن أمك لا تحتاج إلى رجل آخر.

فتشجع الفتى بهذا الكلام وتحمس، وقالت له الأم بلهجة ضعيفة:

- يكون أفضل إذا جاء عمك إلى هنا.

فانتهز الفتى هذا الضعف وهتف:

- لا، لن أناديه يا أمي، أنا رجل فيه الكفاية.

ثم تقدم في زهوه إلى الحب لكي يكيل المحصول، فضحكت الأم في قلق وتركته يفعل. والحق أنها كانت تحس في نفسها شيئًا دفعها إلى تركه يتولى هذا العمل.

ولما تم الكيل وكالت الأم نصيبًا آخر لكي تقدمه للوكيل خاصة رده هذا عنه في إباء وترفع ومطط شفته العليا الملساء وصوب إلى المرأة نظرة ملتهبة، فلم يكن أمامه سوى هؤلاء الأحداث وهذه العجوز التي كانت تميل برأسها كلما غالبها النوم. وقال للأم:

- لا، لن أقبل هذا، أنت الآن امرأة وحيدة وقد ذهب زوجك عن البيت، وكل هذا المحصول من عملك الخاص. ولن آخذ من المحصول سوى نصيب المالك. ولن آخذ أي أجر منك أيتها الزوجة الطيبة.

وفي إبان هذه الفورة العاطفية العذبة المقرونة بالاشمئزاز التي استولت عليها، انتابها خوف فجائي واضطربت وألحت على الوكيل في قبول أجره، لكنه لم يقبل، بل دفع الكيل عنه وهو يلمس يدها بيده. ولما زادت إلحاحًا تناول الكيل وأفرغ ما فيه في السلة التي كانت تدخر فيها الحب، ولم يرض أن يأخذ منها شيئًا.

ولم تأنس الأم من نفسها قدرة على الإلحاح عليه بعد، فقد أحست خلف هذا الوجه الأملس وهذه النعومة المتكلفة قوة غامضة غريبة خفية تنصب منه وتستحوذ عليها وتلذعها لذع النار الآكلة. ولم تتمالك أن لزمت الصمت وأطرقت برأسها كما تفعل فتاة عذراء، ولما أفرغ الرجل الحب مكانه في السلة وانحنى أمامها وذهب

ضاحكًا لم تستطع أن تنبس بكلمة، بل وقفت مكانها صامتة، وأخذت يدها تعبث بطرف ردائها القطني.

ولما ذهب الرجل رفعت رأسها وألقت نظرة خلفه، وفي نفس هذه اللحظة أدار الرجل رأسه وقابل نظرتها وانحنى وضحك مرة أخرى ثم واصل طريقه.

وكم ودت المرأة لو أنها لم تنظر خلفها على نحو ما فعلت، لكن لم يكن حيلة في ذلك، ثم هتف الغلام مغتبطًا:

- ما أطيب هذا الرجل الذي لم يقبل أن يأخذ أجرته يا أمي. أنا لم أسمع في حياتي أن وكيلًا لم يقبل أن يأخذ أجرته.

فلما ذهبت إلى المطبخ دون أن تجيب بكلمة وهي في شبه حلم بعد الذي حدث، تبعها الغلام هاتفًا:

- أليس هو رجلًا طيبًا يا أمي بعد أن لم يقبل شيئًا لنفسه؟

فلما لزمت الأم صمتها صاح الفتى مستاء متبرمًا:

- أمي، أمي!

هنالك انتفضت الأم فجأة وأجابت بسرعة غير معهودة:

- آه، نعم يا ابني.

واستمر الغلام في لغوه قائلًا:

- هو طيب جدًّا يا أمي، فهو لم يقبل أن يأخذ منك شيئًا بعد أن عرف مقدار فقرك بسبب غياب أبي.

لكن المرأة وقفت جامدة فجأة وقد رفعت غطاء القدر في يدها،

وتفرست في الغلام وألقت على نفسها هذا السؤال وهي تشعر شعورًا هو مزيج من الخجل والانفعال العذب المقرون بالاشمئزاز: «هل لم يكن يريد شيئًا مني؟» وإن كانت مع ذلك لم تقل شيئًا للغلام.

وأما وكيل المالك فلم يستطع أن ينسى عاطفة المرأة القوية المحتدمة وجعل يتردد على القرية منتحلًا مختلف المعاذير، فتارة لمراجعة حساب بدا له أنه أخطأ في تقديره، وطورًا للشكوى من نقص الكيل الذي كاله أحد الفلاحين وتعرضه لمؤاخذة المالك وغضبه. وكان أكثر ما يتردد على دار العم القريبة من دار الأم يتحدث في هذا الشأن وذاك، وجاء مرة بنوع جديد من بذور القطن ينتج تيلة دقيقة، وأخرى برفقة عامل يحمل قدرًا من السماد لإخصاب التربة وإكسابها القوة. والعم في كل هذا ذاهل مشدوه لكثرة تردده واختلافه إلى داره، وقد توجس العم أول الأمر وخاف أن يكون في الأمر شيء وأن الوكيل يبيت له شرًّا. ولما لم يسفر هذا الأمر عن شيء زاد قلق العم وقال مرة لزوجته:

- لا بد أن هذا الرجل يدبر شرًّا عظيمًا.

وجعل يراقبه في نفس الوقت دون أن يقصر في أداء واجب المجاملة والترحيب به فيتعرض لشره وأذاه.

لكن لا العم ولا زوجته فطنا إلى نظرات الوكيل شطر بيت الأم، ولا كيف كان يقصر أمد الزيارة إذا لم يجد الأم عند باب بيتها. أما إذا رآها فكان يجلس ويطيل الجلوس مقبلًا عليها بوجهه. وكان يهتف في صوت مرتفع وطيبة متكلفة:

- لا يا صاحبي الطيب، لا غرض لي سوى هذا وأنا رجل عادي أحب الجلوس في حوش رجل أمين وأتلقى حرارة شمس الخريف.

لكنه كان يقضي وقته في التطلع إلى الأم وهي جالسة تغزل وتخيط ملابس أهلها.

وفي هذا الحين كانت التربة الزراعية تستقبل فصل الراحة الذي يسبق الشتاء، وقد وضعت بذور القمح في التربة الجافة انتظارًا لنزول المطر الذي يرويه ويعجل بنمائه. وجعلت الأم تستريح حينًا وكانت تجلس في مدخل الدار تصلح ملابس الشتاء وتصنع أحذية جديدة، فإن كفاف نظر البنت لا ييسر لها أداء هذا العمل ولن ييسره لها.

كانت الأم تجلس إذن في الشمس التماسًا للدفء والحرارة فتنصت لكلام العجوز وكلام أبنائها. وكانت تبدو حالمة أو كالحالمة، تلوح عليها علائم الهدوء وتعلو بشرتها سمرة ذهبية من لفح الشمس ويبدو شعرها أسود لامعًا ممشطًا بعد أن توفر لها الآن من الفراغ ما يمكنها من تمشيطه يوميًّا. ومع أ نها لم تجاوز الخامسة والثلاثين من عمرها، فقد كانت تبدو أقل من هذا السن كثيرًا.

وكانت تعلم حق العلم أن الوكيل يجلس على قيد خطوات منها في الجانب الآخر من الطريق، لكنها لم تكن ترفع رأسها وتتطلع إليه، فإذا أحست بنظراته تلح عليها وتكاد تلتهمها نهضت ودخلت الدار وبقيت فيها، فلا تخرج حتى ينصرف ويذهب لشأنه. لكنها فهمت الغرض من قدومه وأدركت أنه ينظر إليها لغرض خاص ولم تستطع أن تنساه أو تنتزع صورته من ذهنها.

والواقع أنها لم تستطع إلى نسيانه سبيلًا طوال فصل الشتاء. ثم اشتد البرد أخيرًا وحال دون قدومه حتى في سبيل الغرض الذي يضمره في نفسه. ولما تساقط الثلج وهبت رياح الشمال الغربي قارسة لاذعة كان يمكن أن تنساه، ولكنها لم توفق إلى هذا النسيان.

ثم أقبل العام الجديد وذهبت إلى البلدة كما كانت تفعل في الأعوام السابقة، فباعت قدرًا من الحب وأبدلت العملة الفضية بورقة مالية والتمست كاتبًا آخر استكتبته رسالة جديدة تبدو للناس صادرة من زوجها. وعلم أهل القرية مرة أخرى بنبأ الرسالة التي تلقتها والنقود التي بعث الرجل بها إليها.

لكن حسدهم لها هذه المرة وحديثهم عنها ورفعهم من شأنها لم يغمر قلبها الخاوي، بل إن الكبرياء لم تهون عليها ولم ترفه عن نفسها. فقد أنصتت إلى تلاوة الرسالة في هدوء وبرود، ولما أقبل الليل دفعتها في الفرن بين الحشائش الموقدة، ثم ذهبت إلى خوان فيه درج ففتحته وبعد تردد تناولت منه الرسائل الثلاث التي كانت به بعد أن طال الأمد على غياب الرجل وحملتها إلى النار وألقتها طعامًا لها. وقد رآها الفتى وهي تفعل هذا فهتف مشدوهًا:

- هل تحرقين رسائل أبي إذن؟

فأجابت الأم في برود تام وهي تدمن النظر في ألسنة النار:

- نعم.

فقال الفتى وهو يكاد يصرخ:

- ولكن كيف نعرف إذن مكانه؟

فأجابت الأم:

- أنا أعرف. هل تظن أني أنسى هذا.

وهكذا أصبح قلبها خاويًا.

ولكن كيف يبقى القلب خاويًا؟

فبعد أيام قليلة ذهبت إلى البلدة وحدها لإبدال الورقة المالية بنقود فضية، إذ ألفت أن تكون وحدها ولم تشأ أن تثقل على العم في إنجاز شئونها. ولما استقرت القطع الفضية في يدها وانثنت لكي تعود أدراجها إذا هي ترى رجلًا بالباب وقف باسمًا يمطط شفته الملساء. وعرفت فيه وكيل المالك.

ولم يكن هذا الرجل قد رآها منذ الخريف عن كثب. ولم يكن بقربهما أحد يعرفهما.

وهكذا تفرس فيها الآن مجترئًا باسمًا وقال لها:

- ماذا تفعلين هنا أيتها الزوجة الطيبة؟

- كنت أبدل بعض النقود.

وكفت عن إتمام جملتها إذ همت أن تقول إن هذه النقود وردتها من زوجها، لكن الكلمات وقفت في حلقها ولم تنبس بها.

فقال الرجل وقد رفع جفنيه وهو يكاد يلتهمها بنظره:

- وماذا تفعلين بعد هذا؟

فنكست المرأة رأسها وحاولت أن تتكلم بلهجة عادية وأجابت:

- كنت أنوي أن أذهب لشراء مشبك فضي أو مطلي بالفضة لشعري فإن المشبك الذي كان عندي بُلِيَ وانكسر أمس.

والحق أن هذا المشبك قد انكسر على النحو الذي بينته وقد قررت الحقيقة قبل أن تفكر فيها. ثم تحولت لاستئناف سيرها وقد استحيت أن يراها الناس الذين لا يعرفونها تتحدث إلى رجل في أحد شوارع البلدة. وكان رجلًا تبدو عليه علائم الوجاهة إلى حد ما وهو أطول من غيره من الرجال، وقد ظهرت على وجهه المستدير أمارات الشحوب حتى جعل الناس يتطلعون إليهما بفضول وهم يسيرون في طريقهم.

لكن الرجل سار خلفها، وقد عرفت وهي تسير في رزانة وتواضع أنه يتبعها. وأشفقت ألا تفعل ما قررته أمامه، وهكذا قصدت إلى حانوت صائغ كانت تعرفه ووقفت أمام خوانه وطلبت أن ترى مشابك الشعر النحاسية المطلية بالفضة. وفيما كانت تنتظر جعلت تعبث بأقراط من الفضة كانت في متناول يدها، وفجأة وصل الوكيل إلى الحانوت وتظاهر بأنه لا يعرفها وقال للصائغ:

- كم ثمن هذا القرط؟

فأجاب الصائغ:

- سأزنه لتقدير ما فيه من الفضة ثم أبيعك إياه بالأمانة وبقدر وزنه.

وأعرض الصائغ عن بيع المشبك بعد أن رأى أمامه رجلًا مكسوًا بالحرير وتوسم فيه شاريًا أفضل من هذه الريفية ذات الرداء القطني الأزرق. ولم يسع المرأة إلا أن تنتظر، وأشاحت برأسها

عن العينين اللتين تختلسان النظر إليها في جرأة. ووقف الرجل متكاسلًا بينما وضع الصائغ القرط في كفتي الميزان الدقيق، ثم قال في صوت مرتفع:

- أوقيتان ونصف.

ثم استطرد يحث الرجل في صوت خافت:

- لكن إذا كنت تشتري هذا القرط لزوجتك الفاضلة، فلم لا تضيف إليه زوجًا من الأساور؟ هذا زوج يلائم القرط وسيكون هدية جميلة تحبها أي امرأة.

فابتسم الرجل حين سمع هذا الكلام وقال بغير مبالاة:

- ضمه إذن.

ثم استطرد ضاحكًا:

- لكن ليست هذه الهدية لزوجتي، فإنها ماتت منذ ستة أشهر.

وسارع الصائغ بوضع الأسورتين على القرط راضيًا بهذه الصفقة، وقال للرجل:

- إذن فلتكن هذه الهدية للزوجة الجديدة.

لكن الرجل لم يقل شيئًا، بل وقف مكانه وجعل ينظر أمامه ويمطط شفته. ولم يتظاهر مرة بأنه يعرف هذه الفلاحة أو يشعر بوجودها، ثم حمل ما اشتراه وخرج من الحانوت. وما كاد يدير ظهره حتى تنهدت الأم وتبعته بنظرات تشف عن حسدها لتلك التي ابتاع الحلي لها، وكانت من لون محبب إلى نفسها وطالما تاقت في صباها إلى نيل مثلها. والواقع أن هذه الحلي كانت عين

ما زعمت أن زوجها أوصاها بشرائه. وكثيرًا ما جعلت الأرملة الثرثارة تسألها عنها وتطلب أن تراها، فكانت الأم تشعر بالحرج وتقول لها الأرملة في خبث وشماتة عظيمتين:

- هل لن تلبسي أبدًا تلك الحلي؟

فأجابتها الأم قائلة:

- لست أجد ميلًا لهذا. وسألبسها يوم يعود زوجي.

فلما ابتاعت الآن المشبك ودسته في شعرها قفلت راجعة إلى البيت وهي تفكر في هذه الحلي الجميلة التي رأتها. وتنهدت ولم تأنس من نفسها قدرة على إنفاق النقود التي تكسبها بعرق الجبين في شراء ما تتحلى به بعد أن بات مظهرها لا يعني الآن أحدًا وليس أمامها إلا أن تسير على هذه الوتيرة الحالية.

وخرجت المرأة من باب المدينة وهي تدير في رأسها هذه الخواطر الموحشة وسارت في الطريق القروي المؤدي إلى قريتها وذهب بها الفكر إلى بيتها وإلى طعامها وهو العزاء الوحيد الذي بقي بها.

وفجأة رأت الرجل يقف أمامها في ظلال الشفق، رأته يقف فجأة كالشبح وأمسك بمعصمها في يده الكبيرة اللينة، ولم يكن أحد قريبًا منهما في هذه اللحظة، فقد كان الهواء باردًا مشبعًا بوحشة الليل وقد آوى القرويون إلى بيوتهم ولم يتخلف إلا من قضت الظروف ببقائه في الخارج.

أمسك الرجل إذن بمعصمها وأحست بيده ووقفت جامدة مأخوذة

بهذه المفاجأة.

ثم تناول الرجل لفافة الحلي الفضية التي كانت في يده الثانية ودسها يدها التي أمسك بها وأطبق أصابعها فوقها قائلًا:

- إنني اشتريت هذه لك وحدك. اشتريتها لك وحدك، وهي ملكك.

ثم ذهب وابتعد عنها وذاب في ظل سور المدينة وبقيت وحدها تحمل الحلي في يدها.

وفجأة ثابت إليها نفسها وأسرعت خلفه راكضة هاتفة:

- لا يمكنني، لا يمكنني.

لكنه ذهب.

ومع أنها اندفعت إلى باب المدينة وجعلت تحدق بنظرها من خلال الأنوار المتراقصة المنبعثة من الحوانيت المفتوحة، فإنها لم تر له أثرًا. واستحيت أن تدخل البلدة وأن تنظر في وجه هذا الرجل وذاك في الضوء اليسير. وهكذا وقفت مكانها مترددة خجلى حتى ضاق بها الجنود المنوطون بالباب وقالوا لها:

- إذا كنت تنوين الخروج من الباب هذه الليلة فاخرجي لأن الوقت حان لإغلاقه حذرًا من الشيوعيين. هؤلاء اللصوص الجدد الذين نكبنا بهم في هذه الأيام.

فلم تملك إلا أن تعود أدراجها وأن تواصل سيرها واجتازت المرتفع الصغير وانحدرت منه إلى الوادي. وبعد قليل دفعت الحلي في صدرها.

وبزغ القمر منبسطًا فاترًا بارقًا ولما وصلت إلى الدار ألفت

الأطفال والعجوز نيامًا إلا الفتى الذي بقي يقظان، وما كاد يراها حتى هتف: إني خفت عليك يا أمي، وكنت أريد أن أخرج للبحث عنك لولا خوفي من ترك الأولاد وجدتي.

لكنها لم تستطع أن تبتسم حينما رأته ينعت أخويه بالأولاد كأنما هو رجل حقًّا، وقالت له:

- نعم، أنا رجعت أخيرًا وأشعر بتعب شديد.

ثم ذهبت والتمست بعض الطعام فتناولته ولم تزل الحلي في صدرها.

ولما فرغت من الأكل تطلعت إلى الفراش في ضوء الشمعة فرأت الفتى قد نام أيضًا، فمدت الستار وجلست إلى الخوان وأخرجت لفافة الحلي من صدرها وبسطت الورق الناعم الذي لفت به.

رأت زوج الأساور لامعًا ناصعًا، وبدا القرط جميلًا في عينيها. ورأت في كل قرط ثلاث سلاسل دقيقة تتدلى منها صور منوعة، فتناولته بأصابعها وجعلت تنظر إليه عن كثب، فرأت سمكة ضئيلة مدلاة من إحدى السلاسل، ومن الثانية جرسًا صغيرًا ومن الثالثة نجمة دقيقة. وكانت جميعًا جميلة الصنع دقيقة الشكل تستهوي قلب المرأة. ولم يتح لها من قبل أن تحمل في يدها الخشنة السمراء مثل هذه الحلي. وجلست مكانها تدمن النظر إليها ثم تنهدت ولفتها ثانية في الورقة الرقيقة وهي لا تدري ماذا تصنع بها ولا كيف تردها إلى ذلك الرجل. على أنها حينما تسللت تحت الغطاء بجانب الأولاد لم تستطع إلى النوم سبيلًا، وبقيت وقتًا طويلًا ساهرة مسهدة، ولما دب النوم إلى عينيها ألم بها يسيرًا

متقطعًا، وكانت ترى في نومها حينًا أشياء غريبة بارقة، وتشعر حينًا آخر بيد الرجل الحارة فوق يدها.

* * *

الفصل التاسع

لم تر الرجل بعد طوال فصل الربيع، وإن بقيت ذكراه في نفسها.. ثم رأته بعد ذلك ذات يوم في أوائل الصيف حين بدأ القمح يتلون بلون ذهبي يسير وبسقت سنابل الأرز خضراء يانعة. وكان قلب المرأة في هذه الأثناء يتدفق حرارة ويفيض عاطفة.

وجاء يوم في مطلع هذا الصيف سكن هواؤه وسادت حرارته. وأخذت الشمس تسكب حرارتها في بطن الوادي كالخمر الصافية الحارة. وفي أمواج الحرارة المنبسطة في أرجاء شارع القرية الوحيد أخذ الأطفال يتراكضون ويلعبون عراة تلمع أجسادهم الملساء عرقًا.

وقفت الأم في مدخل الدار في هذا الهواء الساكن وخيل إليها أنها لم تر من قبل مثل هذه الحرارة الفجائية في فصل الصيف، وركض طفلها الأصغر إلى حافة الترعة. ومضى الفتى إلى حقل القمح الغض وقد خلع سترته وشمر سرواله ووضع على رأسه قبعة رحبة عتيقة من الخيزران كانت لأبيه من قبل. وجلست البنت في ظلام البيت تتنهد ووصلت زفراتها إلى سمع الأم. وبقيت العجوز وحدها متعلقة بهذه الحرارة، فقد جلست في أشعة الشمس ونزعت رداءها عن هيكلها المهدم الفاني التماسًا لحرارة الشمس التي نفذت إلى عظامها العتيقة وثدييها الضئيلين البارزين من صدرها كأنهما قطعتان من جلد جاف مغضن. ولما رأت زوجة ابنها قالت لها:

- أنا لا أخاف الموت في الصيف يا ابنتي، إن الشمس لمن كانت عجوزًا جافة مثلي كالدم الجديد.

لكن الأم لم تحتمل هذه الحرارة الخارجية، فقد كانت تحس في نفسها حرارة تماثلها.. وخيل إليها أن الدم يتدفق اليوم في عروقها حارًّا، فتركت الدار وقالت للعجوز:

- لا بد أن أذهب لري الأرز بعض الوقت، فإن الشمس اليوم تجفف كل شيء يا أمي.

وحملت فأسها ودلويها وسارت في الطريق الضيق إلى قناة أخرى صغيرة تمتد عالية عن مستوى حقول الأرز. وسرى عنها حين آنست الهواء في الطريق أخف حدة وحرارة من هواء الشارع المحبوس.

وتابعت سيرها دون أن تصادف أحدًا في الطريق. فقد كانت ساعة القيلولة حين يأوي الرجال إلى بيوتهم التماسًا للراحة. وكان إذا خرج رجل إلى حقله عمد إلى الظل اتقاء الحرارة الشديدة التي يتعذر فيها العمل فيتمدد نائمًا تحت شجرة ويغطي وجهه بقبعته دفعًا للذباب. بينما تقف دابة قربه وقد تدلى رأسها وتخدر جسدها بتأثير الفتور والحرارة. لكن الأم استطاعت احتمال هذه الحرارة لأنها آتية من السماء وليست محبوسة بين جدران أو ليست منبعثة من شراييـنها.

وأخذت تعمل بعض الوقت في حقول الأرز، فصنعت ثغرة في أحد الحقول واحتفرت مجرى صغيرًا مؤديًا إلى القناة. ثم حملت دلويها المثبتين إلى المحور الخشبي ودستهما في ماء القناة واحدًا

بعد آخر، وسارت بهما إلى المجرى الذي احتفرته فصبت فيه ماءهما وكررت هذه العملية مرات وجعلت تراقب التربة وهي تتشبع بالماء وخيل إليها أنها تغذي كائنًا حيًّا وتمده بالحياة.

وفيما كانت تقوم بهذه المهمة بسطت قامتها مرة وتركت الدلوين وذهبت إلى حافة القناة المخضرة وجلست قليلًا التماسًا للراحة. وبينما هي جالسة صوبت نظرها إلى ناحية القرية فرأت رجلًا يقف ويسأل العجوز ثم شاهدته يتحول ويقصد إلى حيث كانت جالسة عند حافة القناة.

تفرست في الرجل وهو آت إلى ناحيتها وما لبثت أن عرفته.

كان وكيل المالك، وفيما كان يدنو منها تذكرت أن حليه ما زالت في حوزتها، وأطرقت برأسها ولم تدر كيف تحدثه عنها دون أن تردها إليه. ولم تجرؤ على العودة إلى الدار والتماس الحلي لردها إلى الرجل في ريعان النهار وهي معرضة لكل إنسان يراها وللعجوز المستيقظة التي لن يفوتها ذلك.

ثم وصل الرجل إليها، فنهضت الأم متباطئة لأنها أدنى منه مستوى ولأنها امرأة أمام رجل. لكنه قال لها في يسر وفي غير كلفة:

- إني ما جئت أيتها الزوجة الطيبة إلا لإلقاء نظرة على زراعة القمح هذه السنة وتقدير كمية المحصول في الحقول.

على أنه فيما كان يخاطبها راحت عينه تتمشى في جسدها وهي لا ترتدي بسبب الحر سوى سترة واحدة وسروال من قماش أزرق أنحله طول الارتداء والتصق بجسدها، واستقرت نظراته أخيرًا

عند قدميها. ولما تملكها الخوف من نفسها غمغمت بخشونة:

- الحقول هناك. فانظر إذن. وقدر.

فألقى الرجل نظرة على الحقول من مكانه وقال بلهجته المرحة:

- هذه حقول طيبة أيتها الزوجة الفاضلة وسيكون محصول العام أفضل من الأعوام السابقة.

وتناول كراسة صغيرة مطوية بسطها وكتب فيها شيئًا بقلم يشبه العصا الدقيقة لم تر له نظيرًا من قبل، إذ لم يغمسه الرجل في مداد كما كان يفعل كاتب القرية، بل كان مداده يجري أسود من تلقاء نفسه. وجعلت الأم تراقبه وهو يكتب وقد خامرها بعض الفضول وسرت في نفسها روح الانفعال والزهو لأن رجلًا مثقفًا فاضلًا مثل هذا الرجل قد نظر إلى مثلها حتى ولو لم يكن ينبغي له أن ينظر، وقررت ألا تتكلم عن موضوع الحلي هذه المرة.

ولما فرغ الرجل من كتابته قال لها باسمًا وهو يمطط شفته:

- إذا كان عندك وقت فأريني حقل الشعير لأني أنسى دائمًا أين حقلك وأين هو حقل عمك.

فقالت له مكرهة:

- حقلي هناك حول التل.

وغضت بصرها وتكلفت النظر إلى الفأس كأنما تهم بحمله ثانية.

فقال الرجل مرددًا كلماتها:

- حول التل.

ثم رقق صوته وجرى بيده الكبيرة اللينة فوق شفته وقال لها باسمًا:

- لكن أريني هذا الحقل أيتها الزوجة الطيبة.

وجعل يدمن النظر إليها صراحة وكان لنظراته قوة جعلتها تتحرك إلى حد ما، فألقت الفأس من يدها وسارت تتبعه شأن النساء أن يمشين مع الرجال.

وكانت الشمس ترسل عليهما أشعتها الحارة والأرض تحت أقدامهما دافئة خضراء يكسوها العشب الرطيب.

وفيما هي تسير أحست فجأة بالدم يجري في عروقها عذبًا رفيقًا بتأثير الحرارة، وداخلتها دون أن تدرك السبب غبطة عميقة وهي تتطلع إلى هذا الرجل الذي يسير أمامها وتنظر إلى عنقه القوي الشاحب الذي يلمع العرق فوقه وإلى قوامه المتثني في رداء الصيف الرقيق الناعم وإلى قدميه المكسوتين بجوارب بيضاء نظيفة وحذاء من قماش أسود.

وقد جعلت تسير صامتة فوق قدميها العاريتين ودنت منه في سيرها ونفذت إلى أنفها رائحته التي هي مزيج من دم الرجل ولحمه وعرقه. وما كادت هذه الرائحة تنفذ إلى خياشيمها حتى هفا بها الحنين وهزها الشوق إلى الشوق حتى لقد ذعرت من نفسها ومما قد تندفع إليه. وهتفت في صوت خافت وقد وقفت فوق الطريق المغطى بالحشائش:

- إني نسيت شيئًا لحماتي.

ولما استدار ونظر إليها قالت ثانية في صوت متهافت أجش وقد فاض جسدها فجأة حرارة ورخاوة:

- نسيت شيئًا كان يجب أن أفعله.

ودارت على عقبيها وسارت مسرعة وتركته في مكانه يحدق خلفها. ولما وصلت إلى الدار تسللت إلى مدخلها دون أن يفطن إليها أحد؛ فقد كان الجميع نيامًا.

واشتدت الحرارة بمضي الساعات. وجلست زوجة العم في مكانها نائمة فاغرة الفم وقد نام طفلها الرضيع فوق صدرها. وكانت العجوز نائمة كذلك مدلاة الرأس مكشوفة الصدر كما تركتها. وخرجت البنت من الغرفة الخانقة وتمددت متوسدة حجرًا رطبًا ونامت بدورها. كما انطرح الفتى عاريًا تحت شجرة الصفصاف ونام كذلك.

وقد تغير الطقس كذلك عما كان، فقد اشتد القيظ وشحب الضوء المنتشر وتجمعت في السماء من ناحية الروابي سحب عظيمة سوداء. لكنها كانت مضيئة الحوافي كأنما ينيرها ضوء داخلي غريب، كما خمدت أصوات الطيور والحشرات وخيم السكون فوق جميع الكائنات.

لكن الأم كانت أبعد ما تكون عن النوم، وذهبت بخفة إلى الغرفة الداخلية المظللة الساكنة وجلست فوق الفراش وقد جعل الدم يتدفق في أذنيها غزيرًا. ذلك الدم المتولد في جسدها القوي المنهوم الجائع.

وقد فطنت الآن إلى ما كان يساورها ويثقل على نفسها، ولم

تحاول في هذه اللحظة أن توهم نفسها كما تفعل امرأة من أهل المدن في مكانها فتزعم أنها مريضة معتلة. كلا، كانت أوفر بساطة وأبعد عن التجاهل وهي تعلم علم اليقين ما بها. واستولى عليها ذعر شديد لم تحس مثله في حياتها، فقد أدركت أن هذا النهم الذي يساورها الآن سيزيد استعارًا وضرامًا إذا لم...

وهي لم تحلم بأنها ستقوى على الرفض والتمنع وهي تعلم الآن أن هذا النهم الذي بها هو نفس النهم الذي به. وجعلت تئن أنينًا عاليًا وتناجي نفسها قائلة:

- من الخير ألا ينالني. أواه... كم أود ألا ينالني.. وأن أنجو.

على أنها نهضت عن الفراش حتى وهي ترسل هذا الأنين وغادرت القرية النائمة وعادت إلى الحقول.

جعلت تسير تحت السحب السوداء العظيمة المنيرة الحوافي، تحوطها الروابي مشربة بالخضرة في هذه الظلال.

ذهبت تحت هذه السماء في الطريق الضيق الملتوي إلى حيث كان ينعطف حول معبد صغير مهجور، حيث وقف الرجل عند بابه ينتظرها.

ولم تستطع أن تجاوزه.. كلا.. فقد دخل المعبد وانتظر.. فتبعته إلى الباب وأرسلت نظرها، فإذا هو واقف في الداخل يترقب وقد لمعت عيناه في المكان الظليل كعيني الحيوان الوحشي، فدخلت.

وقفا مخلوقين أحدهما إلى الآخر في الضوء الكليل.

كانا مخلوقين غارقين في حلم.. مستيئسين.. لا توقفهما قوى الدنيا

في هذه اللحظة.. وتأهب كلاهما للأمر المحتوم.

غير أن المرأة أمسكت لحظة، فقد أفاقت من حلمها ورأت آلهة المعبد الثلاثة.. كبيرهم كهل وقور يحدق أمامه، وإلى جانبيه تابعان أقل شأنًا.. وهم جميعًا أرباب طيبون أقيمت أنصابهم في جانب الطريق للمسافرين ممن يتعبدون أو يلتمسون الاعتصام بالمعبد.

فتناولت الرداء الذي وضعته جانبًا وذهبت إلى الآلهة فطرحته فوق رؤوسها وحجبت أعينها الناظرة المحدقة.

* * *

الفصل العاشر

في نفس هذه الليلة هبت الريح فجأة هوجاء عاتية من ناحية الروابي النائية، واكتسحت أمامها سحب السماء الكثيفة المطيرة، وانهمرت الأمطار غزيرة فبددت حرارة النهار. ولما انقشعت الغيوم بزغ الفجر ساكنًا مشرقًا وبدت صفحة سماء صافية الأديم.

وقد أتت هذه العاصفة فيما جاءت به بنهاية العجوز، فقد نامت في مكانها طويلًا وقت القيلولة، ولما غربت الشمس تعرض جسمها العاري لهبوب الريح، حتى إذا عادت الأم إلى الدار في الأصيل صامتة وكأنها عائدة من الحقول ومن العمل الشريف، لقت العجوز في فراشها ترتعد بردًا وقد آلمت بها الأوجاع والآلام.. وهتفت حينما رأتها:

- إن ريحًا شديدة حلت بي يا ابنتي، وريحًا خبيثة أصابتني!

وجعلت تتوجع ومدت يدها المغضنة، فتناولتها الأم وأحست بها يابسة ملتهبة.

والحق أن الأم قد طابت نفسها بهذا الذي وجدته، والحق أنها طربت حين آنست هذا التطور الذي يشغل ذهنها ويستغرق تفكيرها وينسيها ذلك الفعل العذب الخبيث الذي اقترفته هذا اليوم. وغمغمت قائلة للعجوز:

- إن السماء متجهمة، وكدت أعود لكي أرى إذا كنت جالسة تحت هذه السماء الغاضبة، لكني قدرت أنك ستنظرين لونها وتحتجبين

عنها.

فقالت العجوز مولولة:

- إني نمت طويلًا، وأخذنا النوم جميعًا، ولما استيقظت رأيت الشمس ذهبت وأحسست ببرد الموت في جسدي.

عند ذلك أسرعت الأم ودفأت بعض الماء ووضعت فيه زنجبيلًا وأعشابًا وشربت العجوز منه. غير أن وطأة الحمى اشتدت عليها في الليل وجعلت تشكو ضيق التنفس وتقول إن عفريتًا جالس فوق صدرها يدس سكينة في رئتيها. وما هي إلا دقائق حتى كفت عن الكلام وأخذت تتنفس بجهد من رئتيها المطبقتين.

وقد سرت الأم أن وجدت في هذه المناسبة ما يحول دون نومها. ولم يفارقها هذا السرور وهي جالسة طول الليل إلى جانب العجوز تسهر عليها وتقدم لها الماء كلما توجعت وتطرح الغطاء فوقها إذا دفعته عنها شاكية وطأة الحرارة وهي ترتعد في نفس الوقت.

وأما في الخارج فقد تكاثف الليل وانصبت أمطار غزيرة تخللت السقف المصنوع من القش وانسابت إلى ركن العجوز الذي أقيم فيه فراشها، فأزاحته الأم من مكانه وطرحت حصيرًا فوق فراش الأولاد حتى تدفع عنهم الماء المتسرب من السقف. وبرغم هذا كله فقد طابت نفسًا إذ وجدت ما تفعله وما يستغرق تفكيرها طوال الليل.

ولما طلع النهار زادت حال العجوز سوءًا، فأرسلت الأم فتاها لاستدعاء العم الذي جاء مع زوجته وجاء بعده بعض الجيران.

ووقفوا جميعًا يتطلعون إلى العجوز التي تمددت في مكانها وهي لا تكاد تعي ما حولها وقد أذهلتها الحمى والألم الذي كانت تحسه كلما تنفست. وجعل كل واحد منهم يصف الدواء الذي يراه علاجًا لحالة العجوز. وأخذت الأم تروح وتغدو مهرولة لكي تجرب هذه الوصفات جميعًا. ثم أفاقت العجوز ورأت الجمع الذي يحف بها، فقالت وهي تلهث من صدر مثقل: هنا عفريت يجثم فوقي ويسمرني.. ساعتي.. ساعتي.

فأسرعت الأم إلى جانبها ورأت أنها تريد أن تقول كلامًا تعجز عن نطقه. وكانت العجوز تشد بيد مرتعشة أطراف الكفن الذي حفل بالرقع، وقد كانت تضحك كلما أضيفت إليه رقعة وتقول إنها ستعيش حتى تبليه. غير أنها جعلت الآن تشده بيدها، فأحنت الأم رأسها وسمعتها تلهث قائلة:

- هذا الكفن.. كله رقع.. ابني.

وجعل الحضور يتفرسون فيها عاجبين متسائلين.. غير أن الفتى قال من فوره:

- عرفت ما تريده جدتي يا أمي، هي تريد أن تلبس الآن كفنها الثالث، الكفن الذي قال أبي إنه سيرسله إليها. وكثيرًا ما قالت إنها ستعيش حتى تبلي الذي تلبسه في الوقت الحالي.

فلما قال الفتى هذا الكلام أشرق وجه العجوز قليلًا وهتف الجميع قائلين: ما أقدر هذه العجوز وأبسل قلبها! ها هي ذي تريد كفنها الثالث، وسيتحقق لها ما كانت تتمنى.

وانبسطت قليلًا أسارير وجه العجوز الغائر وقالت لاهثة الأنفاس:

- لن أموت حتى يصنع الكفن وألبسه.

وبادرت الأم لتحقيق هذه الرغبة، فعهدت إلى العم بشراء الكفن وقالت له:

- اشتر القماش من أجود الأنواع، وسأرد لك الثمن غدًا إذا كان الآن في متناول يدك.

فلما استقر رأي الأم على أن تهيئ للعجوز أفضل الأقمشة، ولما ساد السكون ليلًا حفرت الأم أرض الغرفة وتناولت النقود الفضية التي أخفتها وأخذت منها القدر اللازم حتى تمضي العجوز إلى نهايتها قريرة العين راضية.

والحق أن ذكرى هذا العمل الذي أتته وكانت تجتهد في نسيانه وتغييبه في أعمق أعماق ذاكرتها وتتشاغل دونه راضية بهذا التشاغل، هذه الذكرى المقيمة الدائمة قد رققت قلبها وحفزتها إلى التفاني في مرضاة هؤلاء الذين يتصلون بها. وكان يسكن نفسها ويخفف من وقع هذه الذكرى الخفية أن تتوفر على إسداء كل ما يتسع له ذراعها من الإحسان والمعروف والخير. وقضت ليلتين لم تذق فيهما طعم النوم وهي تجهد نفسها راضية لا تضيق بالأولاد ولا تنقم منهم وتتجه إلى العجوز المائتة بقلب يسيل رقة، ونفس تذوب عذوبة وحنانًا. ولما جاء العم بالقماش أمسكته أمام عيني العجوز وهتفت في سمعها بصوت مرتفع إذ كلما مرت الساعة زادت العجوز صممًا وعمى:

- تشجعي يا أمي وتشددي حتى أصنعه.

فقالت العجوز في جلد نادر:

- نعم لن أموت.

وإن كانت في الواقع قد زادت سوءًا حتى أصبحت لا تقوى على الكلام، بل على التنفس، وكلما تنفست خرجت منها حشرجة أليمة تثير الرثاء والأسى.

وبادرت الأم بصنع الرداء وكان من قماش أحمر اللون كثوب العروس. وجعلت العجوز تراقبها وهي تصنع وتدمن النظر إليه.

ولم تعد العجوز تقوى على ازدراء طعام أو شراب، بل عجزت حتى عن شرب اللبن الدافئ الذي اعتصرته امرأة طيبة من ثدييها لما يقال من أن هذا اللبن البشري يدفع الموت أحيانًا عن الكهول المحتضرين.. وكانت العجوز تتعلق بالحياة منتظرة لا يمسكها سوى هذا الهواء اليسير الضئيل الذي تتنفسه.

وجعلت الأم تخيط الثوب بلا توقف والجيران يأتون لها بما تحتاج إليه من طعام حتى لا تنقطع عن الخياطة. وتم صنع الثوب في نهار وشطر من الليل. وكان العم وزوجته وبعض الجيران واقفين عن كثب يراقبون صنع الثوب. بل لقد كانت القرية كلها يقظة تتساءل إن كان يقدر للأم أن تفوز في هذه المساجلة بين الموت والحياة أو يغلبها الموت على أمرها.

لكن تم أخيرًا صنع الكفن الأحمر، ورفع العم العجوز، بينما جعلت الأم وزوجة العم تضعان الثوب الجديد فوق الجسد المهدم الفاني الذي حال لونه ويبست أطرافه كأنه أفرع عتيقة من شجرة ميتة. بيد أن العجوز وعت لبس الثوب، ولم تعد تقوى على الكلام الآن، بل تمددت وجعلت تحشرج وفتحت عينيها واسعتين وابتسمت عن

فم لا أسنان له وقد أدركت أنها عاشت وغالبت الموت حتى لبست كفنها الثالث وهو كل ما كانت تتمناه في حياتها. وهكذا ماتت قريرة العين مظفرة.

* * *

على أن الأم ما فتئت تتشاغل وتنهمك في كل شيء رغم الفراغ من دفن العجوز وانتهاء حاجتها إلى العمل.

وقد دأبت على العمل في الحقول على نحو غير معهود، وإذا أخذ الفتى في إتمام عمل بدأته هي هتفت فيه بخشونة:

- دعني أفعل هذا، إني شديدة الحزن لذهاب العجوز، وكم ألوم نفسي لأني لم أعد إلى البيت في ذلك اليوم حتى أرى أنها في مأمن من العاصفة.

وجعلت أهل القرية يفهمون أنها شديدة الحزن لذهاب العجوز وأنها تلوم نفسها، حتى امتدح كثيرون مسلكها وأثنوا عليها وكانوا يقولون:

- ما أطيب هذه المرأة وأشد وفائها.

وكانوا يهونون عليها ويطيبون خاطرها ويقولون لها:

- لا تحزني أيها الزوجة، كانت عجوزًا وجاء أجلها. وماذا ينفع الحزن إذا جاء أجل الإنسان؟ كفاك عزاء أن زوجك على قيد الحياة وأولادك أحياء، تشجعي أيتها الزوجة الطيبة.

لكنها كانت في حاجة إلى هذه المعاذير لإخفاء خوفها وانقباضها. فقد كان لها أن تخاف وأن تنقبض حقًّا. وحان الوقت لكي تنبش

قلبها حتى وهي تعمل في الحقل وتستخرج منه هذا الخوف الذي بقي كامنًا فيه منذ ساعة العاصفة. وقد طابت نفسها كل هذه الأيام بل طابت نفسًا بموت العجوز وكانت تناجي نفسها محزونة بهذه الكلمات: «من الخير أن العجوز ماتت حتى لا تعرف ما يقع، إن كان لا بد من وقوعه».

ومضى شهر وهي خائفة، ومضى شهران وثلاثة وجاء أوان الحصاد وتم جني المحصول. فإذا كان ما يساورها من المخاوف كل يوم قد استحال الآن يقينًا وحقيقة واقعة. ولم يعد يجديها الشك وأدركت أن أسوأ ما خافته قد وقع وأن السهم قد نفذ، وهي أم لأولاد وزوجة طيبة مبجلة في قريتها. وجعلت تلعن يوم العاصفة وتلعن شهوتها العمياء. وقد كان ينبغي لها أن تعلم علمًا لا ريب فيه أن تلك اللحظة ستثمر وتنتج أثرها وقد كان جسدها فائرًا متفتحًا مترقبًا وأن عقلها كانت تصهره نار آكلة ونفسها تذوب جوعًا ونهمًا. وهل كانت تحلم بغير هذه النتيجة وقد كان الرجل كذلك قوي البنية موفور الحيوية؟

ها هنا إذن لون غريب من الأمومة قضى عليه أن يلوذ بالسرية والكتمان وأن تُحصى أعراضه مقرونة بالجزع والذعر في وحشة الليل والأولاد نيام. ومهما انتابها من أسباب الاشمئزاز فلم تكن تقوى على أن تكشف عما يساورها. ومن عجب أنها لم تأنس أبدًا هذا الاشمئزاز وهذا التقزز حين حملت أطفالها الشرعيين. فأما الآن فقد كانت تغثى بالطعام وتلفظه قبل أن يستقر في جوفها. وخيل إليها كأن هذه البذرة التي تنبت في أحشائها شديدة القوة موفورة الحياة حتى لتنمو في بطنها من تلقاء نفسها وكأنها أعشاب

برية. وكانت تستأثر بجسدها في غير رحمة وهي تجهد ألا تترك ما ينم عنها.

وكانت تقضي الليالي متتابعة جالسة في فراشها عاجزة عن التمدد والنوم، وتروح تتوجع وتناجي نفسها بهذه الكلمات:

- يا ليتني كنت وحدي كما كنت، وليس في بطني هذا الذي بها. يا ليتني كنت وحدي كما كنت، إذن لرضيت نفسًا وقنعت بحالي.

وكان يخطر لها أحيانًا وهي في ثورة من أمرها أن تعلق نفسها في قائم الفراش وتقضي على حياتها، ولكنها لم تستطع إلى هذا سبيلًا، فقد كان بجانبها أولادها. ولما نظرت إلى وجوههم الساكنة الهادئة لم تقو على إنفاذ هذا الخاطر الجنوني ولم تطق أن تتصور نظرات الجيران إلى جثتها الهامدة وهم يفتشون عن أسباب موتها.

فلم يكن أمامها إذن إلا أن تعيش.

على أن هذه المرأة رغم آلامها لم تبرأ من رغبتها في هذا الرجل، وإن كانت تمقت نفسها كلما هزها الشوق إليه. بل لقد خيل إليها أنه يربطها إليه رباط وثيق بهذا السر الخفي الذي ينمو في أحشائها. ومع أنها كانت تعض بنان الندم لاستسلامها إليه، فقد كانت لا تفتأ تحن إليه نهارًا وليلًا. غير أنها استحيت أن تلتمسه وخافت أن تراها العيون كذلك. ولم يسعها إلا الانتظار حتى يعود ثانية، فقد بدا لها أنها إذا ذهبت لالتماسه فهي هالكة حقًّا ومتاع لكل رجل من بعده.

لكنها آنست في هذا الشأن ظاهرة غريبة، فإن الرجل قضى وطره منها وبث ما كان بينه وبينها. ولم يأت مرة واحدة طوال الصيف

حتى انتهى حصد الحب ووجب أن يعود. ولما جاء لزم الصمت والتحرز كدأبه واقتضى الكيل كاملًا حتى لم يتمالك الفتى أن هتف عجبًا:

- كيف أغضبناه يا أمي وهو في العام الماضي كان رحيمًا بنا؟

فأجابته الأم في تبرم:

- وكيف أعرف؟

لكنها كانت تعرف. وقد عرفت حقًّا إذ رأته معرضًا عنها.

بل إنه لم يتكلف أن ينظر إليها مرة واحدة أثناء ولائم الحصاد، رغم أنها اغتسلت ومشطت شعرها وسوته بالزيت وارتدت ثيابًا نظيفة ولبست جوربها الوحيد وحذاءها الذي صنعته يوم دفن العجوز.

لبست إذن هذه الثياب وقد توردت وجنتاها أملًا خامدًا وحياء ولمعت عيناها بتأثير مخاوفها المكنونة، وجعلت تروح وتغدو يوم الوليمة مهرولة أمام عينيه وراحت تخاطب هذا وذاك بصوت عال وهي تتكلف المرح، حتى لقد تفرست نساء القرية فيها وأخذتهن الدهشة من تورد وجنتيها ولمعان عينيها وارتفاع صوتها وتكلفها المرح وهي التي كانت تأخذ نفسها بالهدوء الموفور في مجلس الرجال.

لكن الرجل لم يخلع عليها نظرة واحدة رغم هذا كله. وقد ذاق الخمر الجديدة المصنوعة من الأرز وهتف للفلاحين قائلًا:

- أريد لنفسي قدرًا أو اثنين من هذه الخمر أيها المزارعون،

وأطلب أن تحكموا سد القدر بالطين حتى تبقى عذبة سائغة.

بيد أنه لم يصوب إليها نظرة واحدة، وكانت إذا وقفت أمامه تخطاها بنظره وكأنها زوجة عادية لا يعرفها.

عند ذلك لم تطق المرأة صبرًا. أجل، لم تستطع أن تطيق هذا رغم إدراكها أنه ينبغي لها أن تسر بإعراضه عنها وبانتهاء حاجته منها. فذهبت إلى بيتها في إبان الوليمة وأخرجت تلك الحلي التي أهداها إياها من قبل من مخبأها السري وهي ترتعش وتهتز انفعالًا. وعلقت القرط في أذنيها بعد أن نزعت منهما السلك الدقيق الذي جعلته فيهما السنين الطوال حتى لا يسد ثقباهما، ودفعت زوج الأساور في يديها الخشنتين وخرجت مرة ثانية لكي يراها، ووقفت بين النساء اللاتي أقمن على خدمة الرجال أثناء الوليمة، ولما رأتها الأرملة الثرثارة، وكانت تلبس حذاء جديد وتدفع قدميها دفعًا حتى يراه كل إنسان، هتفت قائلة:

- حسنًا أيتها الزوجة الطيبة، أراك اشتريت الحلي أخيرًا وتحليت بها أيضًا، رغم أن زوجك لم يزل بعيدًا عنك.

فاهت الأرملة بهذه الكلمات في صوت عال حتى التفتت النسوة جميعًا وضحكن بل التفت الرجال أيضًا وابتسموا لما رأوه من مرح هذه المرأة. ولما سمع الوكيل هذا الضحك وهذا الكلام اللاذع الذي عنيت به المرأة، رفع رأسه عن صحفته في عجرفة وفي غير مبالاة وجعل فكاه يتحركان لامتلاء فمه بالطعام وقال بغير اهتمام وبصوت عال حتى تسمعه:

- أي امرأة تقصدون؟

ووقع نظره على وجهها المورد وتخطاها بعينيه كأنه لم يرها أبدًا، وانهمك في الأكل من جديد. ولما أحست المرأة بالتورد يفيض من وجهها ابتعدت مسرعة وضحك الجميع حين رأوها تجري حياء من مرحها.

ومنذ ذلك اليوم حرصت المرأة على العزلة والابتعاد عن أهل القرية جميعًا، تبقى وحدها مع أولادها إخفاء للكائن المروع الذي ينمو في أحشائها.

غير أنها كانت تفكر نهارها وليلها فيما يمكن أن تفعل. وكانت أمام الناس تواصل العمل في الحقول وتخزن الحب للشتاء، ولما حل عيد الخريف وكان في كل بيت عيد وامتلأت البيوت بالحب والطعام، لم تجد الأم طعمًا وإن كانت مع ذلك صنعت بعض الفطائر لأولادها تمشيًا مع العادة. ولما بزغ القمر ليلة العيد جعلوا يأكلون الفطائر خارج البيت تحت أشجار الصفصاف ويستمتعون بضوء القمر الفضي الذي أحال ليلهم نهارًا ساطعًا. غير أنهم كانوا يأكلون في وجوم. واستشعر الأولاد حاجتهم وحاجة أمهم إلى الفرح والبهجة حقًّا، وقال الفتى أخيرًا في رزانة:

- يخطر لي أحيانًا أن أبي لا بد أن يكون قد مات؛ لأنه لا يعود أبدًا.

فانتفضت الأم حين سمعت هذه الكلمات وقالت بسرعة:

- أنت ابن عاق حتى تتكلم عن موت أبيك.

لكن هذه الكلمات أوحت إلى نفسها خاطرًا وبعثت في ذهنها فكرة.

وقال الفتى مرة ثانية:

- يخطر لي أحيانًا أن أذهب للبحث عن أبي، وبإمكاني أن أذهب إذا أعطيتني مبلغًا صغيرًا، وفي قدرتي أن أحمل ملابسي الشتوية فوق ظهري إذا تأخرت في البحث عنه وإيجاده.

عند ذلك أشفقت الأم وقالت له لكي تحول أفكاره عن هذه الناحية:

- كل فطيرة أخرى يا ولدي، وانتظر سنة ثانية. وماذا أفعل إذا ذهبت أنت ولم تعد أيضًا؟ انتظر حتى يكبر أخوك الأصغر ويحل محلك.

لكن الابن الأصغر هتف بقوة إذ كان عنيدًا متشبثًا برأيه:

- لكن إذا ذهب أخي فسأذهب أنا أيضًا معه.

وزم شفتيه الصغيرتين القرمزيتين ونظر إلى أمه غاضبًا. فقالت الأم للفتى مؤنبة:

- هل رأيت ما تكون النتيجة وأنت تقول هذا الكلام وتشتت عقله؟

ولم تشأ الأم أن تسمع كلامًا آخر في هذا الشأن.

لكن هذه الفكرة علقت بذهنها ولم تبرح خاطرها. وجعلت تستعرضها وتتأملها وتقلبها على وجوهها. فها هي ذي بقيت وحدها أعوامًا خمسة كاملة. فهل لم يكن ممكنًا أن يعود في أثناء هذه المدة إذا كان في نيته أن يعود حقًّا؟

لقد مضت أعوام خمسة، ولا بد أن يكون في عداد الموتى. ولا بد أنها أرملة، بل أرملة منذ سنوات دون أن تدري. وليس وكيل المالك متزوجًا.

هي أرملة وهي غير متزوج، فقد سمعته يقول إن زوجته ماتت في العام الماضي ولم تهتم إذ ذاك بكلامه، إذ ما كان يعنيها من هذا الكلام وهي لم تكن قد ترملت بعد. أجل.. لا بد أن تكون أرملة حقًّا.

وفي هذه الليلة باتت ساهرة تسامر القمر وقد نام الأولاد وهجعت القرية إلا من كلب ينبح هنا وهناك. وقد استقر في نفسها كلما مضى الوقت أنها أرملة. فإذا كانت كذلك، وإذا تزوجت منه، حالمًا يقبل، فهل تصلح ما أفسدت؟

ومن عجب أن الظروف عجلت بتحقيق هذا الذي ساورها، فإن الفتى لم ينس عزمه وأخذ يعمل كالمحموم في حرث الحقول وبذر القمح، ولما تم له ذلك ركب رأسه واصر على الذهاب في يومه لالتماس والده.

شب الفتى طويل القامة كأبيه، نحيلًا صلبًا كعود الخيزران. ولم يعد حدثًا صغيرًا يسكت على رفض رغباته. ونشأ هادئًا عنيدًا لا ينزل عن عزم يضمره. وقال لأمه:

- دعيني أذهب الآن للبحث عن أبي. أعطيني اسم المدينة التي يقيم فيها والبيت الذي يسكنه.

عند ذلك قالت الأم في يأسها لصرفه عن عزمه:

- لكني أحرقت رسائله ولا بد من انتظار العام الجديد حين تأتينا رسالة منه.

فهتف الفتى:

- نعم، لكنك قلت إنك تعرفين العنوان!

فقالت بسرعة:

- هذا ما كنت أظنه، لكني نسيت بسبب مشاغلي الكثيرة وبسبب وفاة جدتك. وقد تذكرت أني نسيت لأني أردت أن أرسل رسالة في أثناء مرضها، فلم أتمكن إذ نسيت العنوان.

فلما نظر الفتى إليها معاتبًا وهو لا يكاد يصدقها هتفت غاضبة:

- وكيف كنت أعرف أنك ستفكر في الذهاب وتترك كل الأعمال على رأسي بعد أن كبرت وأصبح يمكن الاعتماد عليك؟ لم أحلم أبدًا بأنك ستترك أمك. وأنا أعلم أن رسالة ستردنا في السنة الجديدة ككل سنة.

وهكذا لم يستطع الفتى إلا أن يطرح عزمه للزمن وجعل ينتظر ضيق الصدر متبرمًا. وقد وطن النفس على رؤية أبيه. ومع أنه لم يعد يتذكر هذا الأب، فقد خيل إليه أن في ذاكرته منه صورة الرجل الطيب المرح وتاقت نفسه إلى رؤيته. فإنه لم يعد يكلف بأمه كثيرًا في هذه الأيام؛ لأنه كان يراها حادة الطبع سريعة الغضب نحوه لا تفهم أو لا تكاد تفهم منه شيئًا، وساوره حنين إلى ابيه.

ولم تدر الأم ماذا تفعل. ورأت أخيرًا أن الوقت قد حان لكي تقوم بعمل سريع حاسم. ولم يبق لديها شك في وفاة الرجل بعد أن لبث كل هذه السنوات بعيدًا عن زوجته وأولاده. وجعلت تردد هذا الكلام حتى نزل من نفسها منزلة اليقين وأيقنت من موته حقًّا. ولم يبق عليها إلا أن تدبر مسألة شكلية لكي تقنع الفتى وتقنع أهل

القرية بموته.

وإذن فقد ذهبت مرة أخرى إلى البلدة والتمست كاتبًا آخر لم تكن رأته من قبل، وقالت له وهي تتنهد:

- اكتب لزوجة أخي وقل لها إن زوجها توفي، قل لها إنه مات حرقًا. فإن النار شبت في الدار التي كان يقيم فيها لانقلاب المصباح بأيدي أحد العبيد، وأنه احترق وهو نائم حتى استحال رمادًا ولم يبق من جثته ما يرسل إلى أهله.

ودون الكاتب اسمها باعتباره اسم زوجة الأخ. وقررت له اسمًا مستعارًا باعتباره شخصًا تطوع بإبلاغ هذا النبأ، وكتب اسم مدينة أخرى بعيدة باعتبارها مصدر هذا الخطاب. وآنس الكاتب في هذا كله ما أثار دهشته وتساؤله، بيد أنه لم يعترض لأنه لا يعنيه من الأمر شيء، ولأنه تناول أجرًا مرضيًّا.

وهكذا وجدت المرأة مخرجًا، لم تستطع أن تصبر حتى يتم لها ما تريد على الوجه الذي تصورته، واعتزمت أن تخطر وكيل المالك بوفاة زوجها على وجه من الوجوه.

وجعلت تختلف إلى هنا وهناك باحثة عن بيته حتى وجدته، فهتفت به ووضعت يدها على ذراعه فنظر إليها وإلى يدها الموضوعة فوق ذراعه وقال لها:

- ما الذي تريدين يا امرأة؟

فأجابت همسًا:

- سيدي.. أنا أرملة. إني سمعت اليوم فقط إني أصبحت أرملة.

فدفع يدها عنه وقال بصوت مرتفع:

- وما شأني في هذا؟

ولما تطلعت إليه متألمة قال بخشونة:

- إني دفعت لك الثمن، دفعت لك الثمن كافيًا.

وفجأة ناداه رجل في الطريق فعرفه، وقال له ضاحكًا:

- ما هذا يا رجل يا طيب؟ هل تستوقف النساء الرجال هكذا؟

فأجاب الوكيل ببرود:

- نعم، وهي أمامك إذا أردتها، أما أنا فلا.

ودخل داره دون أن يعبأ بها.

وقفت مكانها مشدوهة خجلى لا تفقه شيئًا، لكن كيف دفع لها الثمن؟ وما الذي أعطاها؟

وفجأة تذكرت الحلي التي أعطاها إياها، فهل كان هذا هو الثمن الذي يعنيه؟

ترى ماذا تفعل الآن بعد أن عرفت كل شيء؟

سارت قدمًا عائدة إلى البيت، وأحست بقلبها يكاد يقف عن الحركة. وراحت تقول لنفسها:

- لم يحن وقت البكاء بعد، لم يحن وقت البكاء بعد.

والحق أن العبرات جاشت في نفسها وكادت تخنقها، لكنها غالبت نفسها.

وألزمت قلبها الصلابة والسكون يومًا أو يومين حتى وافتها الرسالة التي دبرتها، فحملتها إلى كاتب القرية، وقالت له بسكون وهي تقدمها له:

- تحدثني نفسي يا عمي بأنني سأسمع أنباء سيئة، فهي في غير موعدها.

فتناول الكاتب الرسالة وطالعها وانتفض قائلًا:

- هذه أخبار سيئة أيتها الزوجة الطيبة، فاستعدي.

فقالت له في تجلد:

- هل هو مريض؟

فوضع الكاتب الرسالة وأنزل النظارة عن وجهه وقال برزانة وهو يحدق فيها:

- بل مات.

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت، وألقت رداءها فوق رأسها وبكت.

أجل. كان لها أن تبكي الآن، فبكت آمنة واسترسلت في البكاء وكأنها تعلم أنه مات حقًّا.

بكت لوحدتها وتهدم صرح حياتها. بكت لسوء حظها وذهاب زوجها. بكت لأنها لا تستطيع أن تلد هذا الجنين الذي حملته في أحشائها. وبكت أخيرًا لأنها ديست بالأقدام وامتهنت أي امتهان.

وأراقت الآن في غير ضن هذه العبرات الحرى التي كانت

تحبسها إشفاقًا من عيون الأبناء والجيران.

ولما سمع نساء القرية بأمرها أسرعن إليها يواسينها ويوصينها ألا تسرف في البكاء حتى لا تمرض، فقد كان لها أبناؤها أخيرًا، وذهبن وجئن لها ترويحًا بولديها عن نفسها وتخفيفًا لحزنها. ووقف الولدان أمامها وكان الفتى شاحب اللون كأنما أصيب بمرض فجائي بينما جعل أخوه الأصغر يبكي لبكاء أمه.

وفجأة وفي إبان هذا الهرج ارتفع صوت البكاء والعويل، وتبين أنه صوت الأرملة الثرثارة التي تغلب عليها الحزن من هذا المشهد وانحدرت الدموع على وجنتيها وأخذت تقول منتحبة:

- انظري إليَّ أنا المسكينة، فأنا أتعس منك حظًّا؛ لأني لا أملك ولدًا، أنا أحق بالشفقة وأسوأ من كل النساء حالًا.

وتجدد حزنها القديم واشتد حتى دهشت النسوة والتفتن إليها يواسينها، فانتهزت الأم هذه الفرصة وذهبت إلى بيتها يتبعها ولداها وهي تبكي في سكون دون أن تستطيع إمساكًا.

ولما وصلت إلى البيت جلست لدى الباب تبكي، وبكى الفتى قليلًا وجعل يجفف دموعه بظهر يده واستمر الولد الأصغر في بكائه دون أن يدري معنى موت أبيه لأنه لم يكن رآه. وجعلت البنت تبكي وتتوجع وهي تضغط على عينيها ألمًا.

لكن الأم رأت أن بكاءها الآن إلى غير غاية لا يجديها شيئًا، وما لبثت أن كفت عن البكاء إلى حين وهونت على الأولاد إلى حد ما بسكونها وأخذت تفكر فيما تفعل.

رأت أنه ليس أمامها إذا لم تتخير الموت نهاية لها إلا أن تنتزع من أحشائها ذلك الجنين الذي ينمو كل يوم. لكن هذا عمل لا قدرة لها عليه وحدها، ولا بد لها من حليف يساعدها. ولم يكن أمامها من تلجأ إليه سوى زوجة العم. وقد ودت الأم كثيرًا ألا تضطر لاطلاع أحد على أمرها. غير أنها لم تدر كيف تقوم بهذا العمل وحدها. وقد كانت زوجة العم امرأة طيبة ذات خبرة. وهي تعرف أساليب الرجال وتعرف خصب النساء. لكن كيف السبيل إلى اطلاعها على هذا الأمر؟

غير أن المناسبة المنشودة جاءت من تلقاء نفسها، فقد تقابلت المرأتان بعد يوم أو يومين في أحد الطرقات ووقفتا تتجاذبان أطراف الأحاديث، فقالت زوجة العم بلهجتها الرقيقة:

- يا بنت عمي كلي وضعي حدًّا لأحزانك، فإن وجهك شاحب كأن في بطنك بعض الديدان.

فخطرت الفكرة في بال الأم وقالت بمرارة وفي صوت خافت:

- الحقيقة أن في بطني دودة تمتص حياتي.

ولما حدقت زوجة العم مستفسرة وضعت الأم يدها على بطنها قائلة:

- يوجد شيء ينمو في بطني يا بنت عمي، لكني لا أعرف ما هو إلا إن كان ريحًا خبيثًا من نوع ما.

فقالت زوجة العم:

- دعيني أنظر.

ففتحت الأم رداءها وتحسست زوجة العم موضع الانتفاخ من بطنها وقالت في دهشة:

- يا بنت عمي، هذا يشبه جنينًا، ولو كان لك زوج لقلت إنه كذلك.

فلم تنبس الأم ببنت شفة، لكنها نكست رأسها وهي في أشد حالات التعاسة ولم تقو على رفع بصرها، ورأت زوجة العم حركة في بطنها.. فهتفت مرتاعة:

- أحلف أنه طفل. لكن كيف أمكن هذا وزوجك غائب منذ سنين، إلا إن كان من فعل روح من الأرواح؟ لكني سمعت أن هذا يحدث أحيانًا للنساء. وقد حدث في الأزمان القديمة للنساء القديسات اللاتي كانت الآلهة تزورهن. غير أنك يا بنت العم وإن كنت امرأة طيبة محترمة فلست من القديسات.. لكن هل زارك إله؟

وقد همت الأم حينما سمعت هذا السؤال أن تكذب كذبة أخرى وأن تقول إنها أحست بإله يزورها حين اعتصمت يومًا من العاصفة بأحد المعابد. غير أنها كادت تفتح فمها لصوغ هذه الكذبة حتى عجزت عن النطق ووقفت الكلمات في حلقها؛ فقد خافت أن تكذب على الإله الطيب الذي حجبت وجهه بردائها هذه الكذبة الشنيعة. ومن ناحية أخرى فقد ملت الكذب ولم تستطع أن تمعن فيه إلى النهاية.

ولذلك رفعت رأسها وتطلعت إلى زوجة العم في حالة تبعث على الرثاء والشفقة وتصاعد الدم إلى وجنتيها الشاحبتين فضرجهما بحمرة متقطعة، وودت أن تنزل الآن عن نصف عمرها لكي توفق إلى كذبة تستر بها هذا الموقف، لكنها لم تستطع. وأدركت

المرأة الطيبة الحقيقة وفهمت كل شيء، فلم تلق عليها سؤالًا آخر ولم تستفسرها كيف حدث ما حدث. بل قالت لها:

- غطي نفسك يا أختي حتى لا تبردي.

وسارت كلتاهما معًا. وأخيرًا قالت الأم في لهجة تقطر مرارة:

- لا يهم أن تعرفي من أحدث هذا. ولن يعرفه أحد. وإذا ساعدتني في هذا يا بنتي عمي وأختي فسأخدمك طول حياتي.

فقالت زوجة العم في صوت خافت:

- إني لم أعش هذه السنين الطويلة عبثًا، وقد رأيت نساء يتخلصن من شيء لا يردنه.

وللمرة الأولى لمع بريق الأمل أمام عيني الأم، فقالت همسًا:

- لكن كيف؟ لكن كيف؟

فأجابت زوجة العم:

- توجد أدوية يمكن شراؤها إذا كان عند الإنسان نقود. وهي مواد قوية تقتل الأم والوليد أحيانًا.. وهي تحدث دائمًا عسرًا أشد من الولادة. لكن إذا أخذت منها ما يكفي فسيتم كل شيء.

فقالت الأم:

- إذن فلتقتلني هذه المواد بشرط أن تقتل الجنين. وبهذا أخفي الحقيقة عن أولادي وعن الناس.

فتفرست زوجة العم طويلًا في وجه الأم ووقفت مكانها وقالت لها:

- نعم يا بنت عمي. لكن هل يتكرر هذا الأمر بعد أن مات

زوجك؟

فجعلت الأم تقسم وهتفت متوجعة:

- لا، سألقي نفسي في الترعة وأهدئ حرارتي إلى الأبد إذا ركبتني الشهوة كما ركبتني في الصيف.

وفي هذه الليلة كشفت الأم عن الحفرة وأخرجت نقودها الفضية وانتهزت فرصة مناسبة فأعطتها لزوجة العم كي تبتاع بها الأدوية.

ولما جيء بالعقاقير وتم إعدادها سعت زوجة العم في ظلام الليل إلى الأم وهمست في أذنها:

- أين تشربين الدواء؟ هذا عمل دموي ولا يمكن أن يتم في أي بيت؟

عند ذلك تذكرت الأم ذلك المعبد المقفر الخرب الذي يقل المرور به نهارًا وينعدم ليلًا، فقصدت كلتاهما إليه وشربت الأم العقاقير وتمددت على الأرض وجعلت تنتظر.

وأخيرًا أخذت هذه المواد تتفاعل في أحشائها وأحدثت مغصًا وآلامًا شديدة لم تكن الأم تحلم بمثلها حتى لقد هان عليها أن تموت. وقد طغى عليها هذا الألم وألم بها طويلًا حتى ذهلت وطاش صوابها. غير أنها برغم هذا تذكرت شيئًا واحدًا أخذت نفسها به في غير لين ولا هوادة وهو ألا تصرخ تسكينًا لألمها. بل إنها لم تجسر حتى على إضاءة نور ما خوفًا من احتمال مرور أحد بهذا المكان من قبيل الصدفة الخارقة، فيرى نورًا غير عادي

في هذا المعبد الخرب.

راضت الأم نفسها إذن على احتمال الألم بكل ما أوتيت من قوة وجلد. وسال العرق فوق جسدها غزيرًا وذهلت عن كل شيء إلا هذا المغص القاتل وكأنما قد أنشب وحش ضار أنيابه في أمعائها وأخذ ينتزعها وينهشها. بل لقد جاءت لحظة خيل إليها فيها أن هذه الأمعاء قد انتزعت حقًّا. وبدرت منها صرخة واحدة.

عند ذلك جاءت زوجة العم بحصير أحضرته معها، وتناولت ما تناولت وجعلت تتحسس ثم قالت في كآبة:

- كان يمكن أن يكون ذكرًا أيضًا. أنت امرأة موفقة في ولادة الذكور.

لكن الأم جعلت تئن وتتأوه وقالت:

- لن ألد شيئًا بعد الآن.

ثم انطرحت الأم فوق الأرض واستراحت قليلًا. ولما قويت على النهوض قفلتا عائدتين إلى البيت. واتكأت الأم على ذراع زوجة العم وجعلت تغالب أنينها، وفي الطريق مرت زوجة العم بقناة فألقت باللفافة فيها.

رقدت الأم أيامًا كثيرة في فراشها حليفة المرض والهزال، وكانت زوجة العم الطيبة القلب تسدي إليها ما تستطيع من مساعدة. لكن المرض والهزال لازماها طوال الشتاء، حتى لقد كان الذهاب إلى السوق لبيع حمل من الأحمال يكلفها كثيرًا من الألم والعذاب، لكن لم يكن لها مفر من ذلك وكانت تؤديه على وجه من الوجوه.

ثم تحسنت قليلًا بدخول فصل الربيع، وإن لم تعد إلى حالتها الأولى، وكانت إذا جاءتها زوجة العم بطعام مريء وألحت عليها في تناوله وضعت الأم يدها على صدرها قائلة:

- لا يمكن أن أبتلع شيئًا، هنا شيء ثقيل يضغط على صدري. وأحس بأن قلبي يفيض ألمًا، ولكني لا أستطيع البكاء والتخفيف مما أشعر. ولو استطعت أن أبكي إلى النهاية لتحسنت حالتي.

ذلك ما كان يبدو للأم. لكنها لم تستطع إلى البكاء سبيلًا. ومضى الربيع وهي لا تستطيع البكاء ولا تقوى على العمل كسالف شأنها. كان الابن الأكبر يكافح للقيام بأعباء العمل يساعده العم بنصيب موفور.

وظل الحال كذلك حتى نضج الشعير. وجلست الأم ذات يوم في أشعة الشمس يغلبها الإعياء حتى لقد تركت شعرها أشعث غير ممشط. وفجأة سمعت وقع خطوات قربها، ولما رفعت رأسها ألفت وكيل المالك واقفًا أمامها.

وما كاد الفتى يرى الوكيل حتى تقدم نحوه قائلًا:

- سيدي، إن أبي مات وأنا أقوم مكانه، وأمي مريضة منذ شهور كثيرة. ولا بد من ذهابي معك الآن لتقدير المحصول إذا كنت حضرت لهذا الغرض؛ لأن أمي لا تقوى على ذلك.

فلما سمع الرجل هذا الكلام نظر إلى الأم طويلًا بغير مبالاة وقد أدرك تمامًا ما حل بها. وعرفت هي أنه فهم أمرها وأطرقت برأسها صامتة. لكنه قال بغير اكتراث:

- هيا بنا إذن يا فتى.

وذهب الاثنان معًا وتركاها وحدها.

أدركت الأم تمامًا أنه لا أمل لها عند هذا الرجل. وهي لم تكن في حاجة إليه بعد الآن وبعد أن ألم بها هذا الضعف المزمن. لكن رؤيته الآن كانت جماع ما تريده وكانت القطرة الأخيرة التي طفحت بها كأس شقائها. فأحست بغصة في حلقها وألم مميت في قلبها وطفرت الدموع إلى عينيها. وسارت في طريق غير مطروق حتى وصلت إلى قبر موحش مهجور طال عليه القدم حتى جهل الناس اسم صاحبه أو صاحبته، فجلست فوق سطحه المكسو بالحشائش وانتظرت. وأخيرًا طاوعها الدمع فأخذت تبكي.

وانحدرت دموعها أول الأمر بطيئة مريرة، غير أنها انهمرت غزيرة بعد قليل، فأسندت رأسها إلى القبر وجعلت تبكي كما تبكي المرأة حين يطفح قلبها حزنًا وتفيض نفسها مرارة وغمًّا وتلتمس شفاء ما بها في سكب الدمع وسفح العبرات. وقد حمل نسيم الربيع صوت بكائها إلى القرية، فجعل نساؤها يتبادلن النظر ويقلن مشفقات:

- دعوا هذه المسكينة تبك وتخفف عن نفسها، فهي لم تتعز بمرور الوقت وطول الزمن. قولوا لأولادها أن يتركوها في بكائها.

وهكذا تركها الجميع تبكي ما طاب لها البكاء.

على أن الأم بعد طول البكاء سمعت صوتًا قربها، فرفعت رأسها ورأت في ضوء الشفق اليسير ابنتها تتحسس الطريق إليها فوق الأرض الوعرة، وهتفت البنت في سيرها:

- أمي، إن زوجة عمي أوصت أن تدعك تبكين حتى تخففي عن نفسك. لكن ألم تشعري بالراحة بعد طول هذا البكاء؟

فما كانت الأم تسمع هذه الكلمات حتى ثابت إلى رشدها وتطلعت إلى البنت وهي تتنهد، ثم جلست وسوت شعرها المهدل وجففت عينيها المورمتين ونهضت.

ومدت البنت يدها تتحسس يد الأم وهي تطبق عينيها اتقاء وهج الشمس الآفلة، وقالت شاكية:

- يا ليتني لا أبكي أبدًا، فإني إذا بكيت شعرت بألم شديد في عيني.

ثابت الأم إلى رشدها فجأة حين سمعت هذه الكلمات وتطهرت نفسها. أجل، إن هذه الكلمات القلائل التي صدرت في ختام هذا اليوم، وهذه اليد الصغيرة الممدودة إلى ناحيتها، فقد انتزعتا الأم من قوة اليأس التي كانت تتخبط في ظلماتها طوال الأشهر الماضية، فعادت إليها عواطف الأمومة ثانية ونظرت إلى البنت وقد طرحت عنها ذهولها آخر الأمر وهتفت:

- هل تؤلمك عيناك كثيرًا يا ابنتي؟

فأجابت البنت:

- أظن أني لم أتغير عما كنت، إلا في أن النور يؤذيني أكثر، ولم أعد أراك بوضوح كما كنت في الماضي، ولا يمكنني الآن بعد أن كبر أخي أن أميز بينك وبينه حتى أسمع صوتكما.

فلما سمعت الأم هذا الكلام أخذت تتوجع قائلة وهي تقود ابنتها برفق:

- أين كنت كل هذه الأيام؟ سأذهب يا ابنتي عند طلوع النهار لشراء مرهم لشفاء عينيك كما كنت أقول كثيرًا.

وفي هذه الليلة بدت الأم لأبنائها جميعًا وكأنها عادت من مكان قصي وثابت إلى نفسها ثانية، فقد ملأت صحافهم بالطعام حتى حوافيها وجعلت تهرول شاحبة اللون ولكن هادئة النفس ساكنة القلب. وأخذت تنظر إليهم جميعًا وكأنها لم ترهم منذ أعوام. ثم تطلعت إلى الابن الأصغر وهتفت:

- غدًا سأغسل لك ملابسك يا بني. إنني لم أرها على هذه الحالة من القذارة والتمزيق. أنت ولد جميل ولا يمكن أن أتركك تسير في الطرقات بهذه الثياب.

ثم التفتت إلى الابن الأكبر قائلة:

- قلت لي إن أصبعك جرحت وأنها تؤلمك. دعني أنظر...

وعمدت الأم إلى يد الفتى فغسلتها وصبت بعض الزيت فوق الجرح وقالت له:

- كيف جرحت يا ولدي؟

ففتح الفتى عينيه دهشة وقال:

- قلت لك يا أمي إني جرحت أصبعي عندما كنت أشحذ المنجل استعدادًا لحصد الشعير.

فأجابت الأم بسرعة:

- صحيح، تذكرت الآن، فأنت قلت هذا.

وقد خيل للأبناء دون أن يدروا كيف حدث هذا التحول، إنهم يشعرون فجأة بالأنس والدفء. وأن هذا الأنس وهذا الدفء يفيضان عن أمهم، وملأ الفرح والبهجة قلوبهم وأخذوا يحدثونها في كل شأن. وقال لها الابن الأصغر:

- لقد تراهنت اليوم مع أصحابي على أينا بوسعه أن يقذف إلى أبعد مرمى، وفزت عليهم وكسبت هذا البنس. وأنا لا شك مجدود لأن هذا البنس هو أول ربح أصيبه.

فنظرت إليه الأم بشراهة ورأت جماله وترقرق الصحة فيه وعجبت من نفسها كيف غفلت عن هذا من قبل، وقالت له بحنو شديد:

- أنت غلام نابه لأنك احتفظت بهذا البنس ولم تشتر به حلوى.

لكن الطفل ظهرت عليه علائم القلق حين سمع هذا الكلام وقال:

- لكن اليوم فقط يا أمي فكرت في أن أشتري به حلوى غدًا. ولا حاجة بي إلى ادخاره، وبوسعي أن أكسب كل يوم بنسًا مثله.

وكان الطفل يتوقع أن تقابله بالرفض، لكنها أجابته برقة:

- اشتر يا ابني ما يحلو لك؛ لأن هذا البنس ملكك.

ثم تدخل الفتى في الحديث وقال لأمه:

- أريد يا أمي أن أقول لك شيئًا غريبًا، فعندما كنت في الحقول مع وكيل المالك أبلغني أن هذه آخر سنة له عندنا؛ لأنه سيذهب للعمل في جهات أخرى. وقد قال إنه تعب من طول المشي في الطرقات الريفية ومل الفلاحين البسطاء وزوجاتهم وسئم تشابه الفصول،

وأنه سيذهب إلى إحدى المدن البعيدة.

فلما سمعت الأم هذا الكلام جلست جامدة في مكانها وجعلت تتفرس في الفتى وتتطلع إليه من خلال الضوء اليسير المرسل من الشمعة التي أوقدتها هذه الليلة ووضعتها فوق الخوان. ولما استوعبت هذه الكلمات تركتها تستقر في نفسها فنزلت على قلبها بردًا وسلامًا كما ينزل ماء المطر فوق التربة المتعطشة، وهتفت في صوت منفعل خافت:

- هل قال ذلك يا ولدي؟

ثم أردفت بسرعة وكأن الأمر لا يعنيها:

- لكن لا بد أن ننام ونستريح؛ لأني سأقوم غدًا في الفجر وأذهب إلى البلدة لشراء مرهم لأختك حتى يشفى نظرها ويعود كما كان.

وقد فاهت الأم بهذه الكلمات في صوت قوي مليء بالسكينة والاطمئنان. ولما دنا الكلب منها مستجديًا أطعمته بسخاء فأخذ الحيوان يأكل وهو سعيد مذهول وراح يزدرد الطعام مسرعًا، ولما شعر بالشبع والامتلاء تنهد راضيًا.

وفي هذه الليلة وفقت الأم إلى النوم، ونامت وأولادها نومًا عميقًا مليئًا بالراحة والهدوء.

* * *

الفصل الحادي عشر

لم تفد الأم من رحلتها الطويلة إلى العطار في البلدة المجاورة لشراء مرهم لعيني ابنتها الكفيفة، فقد أبلغها الرجل أن عمى البنت محقق لا شفاء منه، وعزا السبب إلى لعنة حلت بالبنت نتيجة إثم ارتكبه أحد أبويها. ومع أن الأم ذهبت بعد ذلك إلى معبد لآلهة رحيمة للصلاة والاستغفار لعل اللعنة ترتفع عن البنت العمياء، فإن الآلهة لم تستجب لها، وأيقنت الأم أن خطيئتها هي السبب، وعادت إلى البيت بائسة نادمة على تلك الخطيئة التي انزلقت إليها. وعندما استبد بها اليأس برئت من شهوات الشباب وانطوت صحائفه من سجل حياتها. وانطمست في نفسها صورة الرجل من حيث هو رجل، ولم يبق في سماء حياتها سوى ولديها وابنتها العمياء.

* * *

هكذا ولى عهد الشباب عند الأم ونيفت سنها الآن على الثالثة والأربعين. ورغم ذلك لم يكن أحب إلى قلبها من العمل في الحقل غير مكترثة باحتجاج أكبر أولادها وحثه إياها على الإخلاد إلى الراحة.

وأصبح يشقيها الآن التفكير في مصير الفتاة العمياء إذا لم يقدر لها الزواج. وقد هداها طول التفكير إلى البحث عن زوجة لابنها الأكبر كي تعنى به وبأخته الكفيفة.

إنه قد ناهز الآن التاسعة عشر من عمره، وغدا شابًّا مكتمل

الصفات صلب العود دءوبًا على العمل، ولم يكن يعيبه في نظرها سوى قسوته على أخيه الأصغر الكسول العابث اللاهي الذي كانت رغم ذلك تحبه وتؤثره على أخيه الأكبر إذ كان أقرب شبهًا بأبيه. والواقع أن هذا الفتى كان يتهرب من العمل ويتغيب يومًا أو يومين عن البيت حتى أثار إغضاؤها وتدليلها حفيظة الابن الأكبر ومقته له.

* * *

كان مقت الشاب لأخيه الفتى يزداد كل يوم رسوخًا في نفسه. ولم تدر الأم نفسها إلى أي حد بلغ هذا المقت من نفس الشاب حتى جاء يوم معين انفجرت فيه براكين هذه العاطفة المريرة في صدره وفاضت جائشة مكتسحة كما يفيض النهر فجأة ويكتسح السدود القائمة دونه وقد غذته روافد خفية لا تراها الأعين، حتى إذا سال فيضه دهش الناس لأنهم لم يدركوا كيف كان النهر في الأحوال العادية وقد كان يبدو لأعينهم ساكنًا.

حدث هذا وقت حصاد الأرز في أواخر أيام الصيف حين يكد الجميع في الحقول ويكدحون منذ مطلع الفجر حتى مغرب الشمس، وحين يجب على كل قادر أن يكد ويكدح ما لم يكن غنيًّا ميسور الحال.

وقد قام الفتى الأصغر بنصيبه كذلك من عمل اليوم وإن كان عقله منصرفًا إلى عمل في مكان سحيق كان يجب أن يقوم به. لكن أمه كانت قد استحثته للعمل، وقالت له وهي تبسط أصابع يده الملساء:

- اشتغل يا بني كما يجب في هذه الأيام، أيام الحصاد، وبرهن

لأخيك على قدرتك. وإذا قمت بالعمل كما يجب وأرضيت أخاك لإني سأشتري لك شيئًا تحبه وتحتاج إليه.

وهكذا وعدها الفتى بالعمل وهو يزم شفتيه ويعد نفسه مرهقًا مضيقًا عليه، وأخذ يقوم بنصيبه من هذا العمل بقدر ما يدفع عنه أذى أخيه إذا وقعت عينه عليه.

لكنهم في هذا اليوم الذي أنذرت فيه السماء بالمطر تجاوزوا ساعات العمل المألوفة، وساهمت الأم معهم في العمل حتى كلت قواها فلم تتمالك أن قومت ظهرها الموجع متنهدة وقالت لابنها الشاب:

- سأعود يا بني إلى البيت لكي أدفئ الأكل لأني أشعر بأشد التعب والألم.

فقال الشاب في خشونة يسيرة لا يقصدها؛ لأنه لم يحمل أمه أبدًا على تجاوز طاقتها في العمل:

- عودي إلى البيت إذن.

وهكذا عادت الأم إلى البيت وتركت ولديها وحدهما..

وما كادت الأم تأخذ في إنضاج الطعام حتى هتفت الفتاة التي كانت جالسة في مدخل الدار قائلة إنها سمعت أخاها الأصغر يبكي. ولما خرجت الأم مسرعة من المطبخ تحقق لديها ذلك، فركضت بكل قواها إلى الحقل حيث ألفت ابنها الشاب يضرب أخاه الأصغر بقبضة المنجل ضربًا قاسيًا أليمًا والفتى يصرخ ويستغيث ويرد الضربات بقبضتي يديه ويحاول أن يخلص نفسه

من يد أخيه المطبقة على عنقه. لكن هذا لم يتخل عنه وظل ينهال عليه بقبضة المنجل، فاندفعت الأم بكل قواها إلى الابن الأكبر وتعلقت به وصاحت متوسلة:

- يا بني! إنه لا يزال صغيرًا، يا ابني. يا ابني!

وانتهز الفتى هذه الفرصة فأفلت من قبضة أخيه وراح يركض في الحقل كالأرنب الهارب واختفى في ظلام الشفق. ولما صارت الأم وحدها مع ابنها الغاضب الحنق قالت في صوت متهدج:

- هو لم يزل طفلًا صغيرًا في الرابعة عشر من عمره وعقله منصرف إلى اللعب.

لكن الشاب أجابها:

- وهل كنت طفلًا وأنا في الرابعة عشر؟ هل كنت ألعب في موسم الحصاد وأنا في الرابعة عشر من عمري؟ وهل كنت ترشينني بخاتم أو رداء جديد أو غيره مما لم أكن أربحه وأناله بكدي؟

ففهمت الأم من هذه الكلمات أن الفتى الأبله قد راح يزهو بما يتوقع أن يناله، ووقفت صامتة لا تحير جوابًا وهي شاعرة بغلطتها. واستسلم الشاب لألمه ومرارته فانفجر صائحًا:

- نعم. أنت تحتفظين بالنقود، وأنا أعطيك كل ما أربحه، وأنا لا آخذ بنسًا واحدًا لشخصي ولا أدخن قصبة صغيرة ولا أشرب قدحًا من الخمر ولا أشتري لنفسي شيئًا مما يناله أي شاب ويعده حقًّا لنفسه. ومع ذلك فأنت تعدينه بكل ما لم أنله في حياتي. ولأي داع؟ لكي يقوم بالعمل الذي يجب أن يؤديه بلا مقابل حتى يدفع

ثمن ما يأكل وما يشرب.

أحست الأم ببعض الخوف من هذا الابن الغاضب الناقم الذي كادت تنكره الآن لفرط ما كان يتسم به من الرزانة والهدوء في الأيام العادية. وقالت في صوت خافت مضطرب:

- أنا لم أعده بخواتم ولا ملابس.

فقال الشاب بانفعال شديد:

- بل وعدته. أو إذا لم تكوني وعدته فقد فعلت ما هو أسوأ. فقد قال إنه سينال كل ما يريد بعد بيع المحصول وسداد الضرائب. بل قال إنك وعدته.

فقالت الأم وهي خجلى أمام هذا الابن الطيب الفاضل:

- إني قصدت أن أقدم له لعبة تافهة لا تكلف سوى مبلغ زهيد يسير.

ثم استجمعت شجاعتها بعد أن رأت أنها هي الأم وأن لها حقوقًا، فقالت:

- وإذا كنت وعدته بلعبة تافهة فلكي أنقذه من غضبك الدائم الذي تلاحقه به مهما فعل، وأنت تشتد عليه وتؤذيه بنظراتك القاسية وكلماتك الأليمة، والآن بضرباتك.

لكن الشاب لم يقل شيئًا آخر، وانثنى إلى حزم الأرز يعمل فيها بصرامة وسرعة وكأن شيطانًا ركبه. ووقفت الأم تنظر إليه وهي لا تدري ماذا تفعل. وكانت تشعر بأنه قد قسا في معاملته لابنها الأصغر، ولكنها أدركت في نفس الوقت أنها أخطأت وحادت عن

طريق الصواب.

ثم ألقت عليه نظرة فإذا الدموع تكاد تطفر من عينيه ولكنه ضغط على فكيه لكي يحبس عبراته. فلما آنست الأم فيه هذا الإحساس الذي لم تعهده فيه من قبل وهو الذي كان أبدًا راضيًا مستسلمًا لا يبدي رغبة ما، ذاب قلبها ورقت حاشيتها كدأبها كلما آذت أحد أبنائها، وإن كان الابن لا يحس منها ذلك، وزاد حدبها وحنانها، فهتفت بلهجة سريعة:

- إني أقر بخطيئتي يا ولدي. أنا لم أصنع نحوك ما يجب في العهد الأخير. أنا لم أدرك أنك صرت رجلًا، لكنك رجل. وأنا الآن أقدر هذا وأراه بعيني. وسيكون لك مقام الرجل في بيتنا وتضع يدك على النقود وتحتل المكان الأول بالاسم كما تحتله في العمل الذي تقوم به دائمًا. نعم، إني أراك الآن رجلًا، وسأعمل في الحال ما أبطأت فيه زمنًا طويلًا، سأبحث لك عن زوجة وسيكون لك ولها دور الصدارة. إني لم أدرك هذا من قبل، لكن أدركته الآن كما يجب.

وهكذا عمدت الأم إلى الإصلاح، وغمغم الشاب كلامًا لم تسمعه وأدار ظهره ولم ينبس بكلمة أخرى، بل راح يواصل العمل. أما هي فقد سرى عنها وعادت أدراجها وهي تقول هذه الجملة لإخفاء شعورها:

- كفى، لا بد أن يكون الأرز احترق الآن.

وما كادت تصل إلى المنزل حتى راحت تتشاغل بمختلف الأعمال وقد نسيت إعياءها. ولما سألتها الفتاة عما حدث أجابتها فورًا:

- لا شيء يا ابنتي إلا أن أخاك الأصغر لم يقم بنصيبه من العمل، أو هذا ما قاله شقيقه، لكن الإخوة يتشاحنون دائمًا كما أظن.

وأسرعت الأم بإعداد لون شهي من الطعام يحبه ولدها الأكبر، وراحت وهي تعده تفكر في خطة الإصلاح التي عولت عليها، فرأت أنه من الصواب أن يتزوج ابنها، وجعلت تلوم نفسها لأنها اعتمدت عليه كما تعتمد على الرجل دون أن يظفر بما يظفر به الرجال من الجزاء. وزادها التفكير تصميمًا على إنفاذ ما قررته.

وعاد الشاب إلى البيت أخيرًا في ضوء الشمعة التي أوقدتها ووضعتها فوق الخوان. ولما تفرست في وجهه دون أن يفطن إليها رأته قد عاد إلى حالته السالفة وظهرت عليه علائم السرور بتأثير ما وعدت به وفارقه الغضب. فلما رأت الأم هذا الصفاء نادت الفتى الأصغر الذي كان يحوم حول الباب دون أن يجسر على الدخول حتى يتبين شعور أخيه، وإن كان الجوع قد أرغمه على المجيء، وقالت له الأم:

- ادخل يا بني.

فدخل الفتى وهو ينظر إلى أخيه، لكن هذا لم يحفل به ولم يلتفت إليه بعد أن تلاشى غضبه، وأحست الأم بالرضاء وطابت نفسها ورأت أنها أحسنت في اتخاذ قرارها، وشرعت في تحقيق هذا الوعد إلى النهاية.

ذهبت الأم إلى بيت العم وزوجته كعادتها في كل معضلة، وقد دفعها إلى الذهاب كذلك أنها لم تكن تعرف فتاة لتزويجها من ابنها. ولم يكن بوسعها أن تختار إحدى بنات القرية، إذ كان أهلها

جميعًا من ذوي القربى وهم يلقبون بلقب مشترك، كما أنها لم تكن تعرف فتاة من أهل البلدة لاقتصار معاملاتها على بضعة حوانيت صغيرة كانت تشتري منها ما تقدمه للبيع.

ذهبت الأم إلى بيت العم إذن في المساء، ودار الحديث في هذا الشأن بينما كانت زوجة العم ترضع وليدها الأخير. وأعربت الأم أخيرًا عن غرضها من الزيارة وقالت:

- فهل تعرفين يا أختي فتاة في تلك القرية التي كنت بها قبل زواجك؟ إني أريد فتاة مثلك تمامًا. سمحة الخلق، سريعة الحمل، قادرة على العمل. ولم يزل في إمكاني أن أدبر شئون البيت أعوامًا أخرى كثيرة، وإذا لم تكن ماهرة في هذه الشئون، ففي وسعي أن أحتمل هذا.

فلما سمعت زوجة العم هذا الكلام ضحكت عاليًا وهتفت وهي تنظر إلى زوجها:

- لا أعلم إذا كان ابنك يا أختي يعد زوجة مثلي نعمة أو نقمة؟

وضحكت الزوجة ثانية وقالت:

- في وسعي يا أختي أن أذهب إلى هناك وأبحث، ففي تلك القرية زهاء المائتين من العائلات، ولا ريب أن في إحداها فتاة صالحة للزواج.

وهكذا جعلت المرأتان تتحدثان في هذا الشأن وقررت الأم بجلاء أنها لا تحتمل تكاليف كثيرة واستطردت قائلة:

- أنا أعلم تمامًا أني لا أطمع في فتاة كاملة من كافة النواحي؛

لأني فقيرة وابني لا يملك سوى رقعة صغيرة من الأرض، ونحن مضطرون لاستئجار أكثر مما نملك.

وفي اليوم التالي لبست زوجة العم ثيابًا نظيفة وحملت طفلها الرضيع واصطحبت معها اثنين من أبنائها الصغار لكي يراهما أهلها واثنين منهما لمساعدتها في العناية بالصغيرين. واستأجرت عربة من ذات العجلة الواحدة والذراعين لحمل الأولاد جميعًا، وامتطت هي حمار زوجها الأشهب الذي استغنى عنه في الوقت الحالي بعد انتهاء موسم الحصاد. وذهب الجميع على هذه الحال وغابوا أيامًا. ولما عادوا أخيرًا كانت جعبة الزوجة حافلة بأخبار الفتيات اللاتي رأتهن، وقالت للأم التي سارعت للوقوف على أبنائها عقب علمها بعودتها:

- إني رأيت الفتيات كثيرات في القرية فنحن لا نقتلهن هناك كما يفعل الناس في بعض البلدان عند مولد البنات. ونحن نتركهن يكثرن مهما كان عددهن عند الأم الواحدة، ولذلك كانت القرية مكتظة بهم.

وقد رأيت بعيني يا أختي اثنتي عشرة فتاة أعرفهن، وهن جميعًا مكتملات النمو ذوات لحم موفور ولون طبيعي. وكل واحدة منهن تليق لواحد من أبنائي. لكني كنت أعلم أن المطلوب واحدة فقط، فضيقت عيني وجعلت أنظر إلى هذه وإلى تلك حتى وقع اختياري على ثلاث. وأخذت أستعرض هؤلاء الثلاث فرأيت إحداهن تسعل والثانية تشكو ألمًا في عينيها، وأما الثالثة فكان أوفرهن كمالًا. وهي فتاة بارعة حريصة في أقوالها وأفعالها، وقد قيل إنها أسرعة

خياطة في البلدة، وهي تصنع ملابسها وملابس أهلها كما تصنع ملابس غيرهم وتجني من ذلك بعض النقود. وهي أكبر قليلًا من ابنك لأنها كانت مخطوبة من قبل وقد مات خطيبها قبل أوانه، وإلا لكانت الآن في عداد المتزوجات لكن هذا ليس مما يؤخذ عليها، فإن والدها متلهف لتزويجها على وجه من الوجوه ولن يطلب فيها مالًا كثيرًا. وربما لم تكن وافرة الملاحة كغيرها. وهي في الواقع شاحبة اللون إلى حد ما بسبب انهماكها في الخياطة. لكنها سليمة العينين.

فقالت الأم بسرعة:

- عندنا في البيت من العيون المريضة ما يكفي، كما أن نظري لم يعد كما كان في الماضي. ونحن في حاجة إلى فتاة تخيط وتحب الخياطة. وإذا كانت لا تكبر ابني بأكثر من خمسة أعوام ففيها الكفاية.

وهكذا تم الاتفاق على هذه الفتاة، وذهبت الأم إلى عراف في البلدة فجعل تضاهي عنده أيام الشهر الذي ولد فيه العروسان، وموقع السنة وساعة المولد، فإذا هي جميعًا تحمل طابع القبول والتوفيق. فأما الشاب فقد ولد تحت برج الحصان، وأما الفتاة فتحت برج القط، وكلاهما لا يلتهم صاحبه، ولذلك تنبأ العراف بالوفاق في الزواج استنادًا إلى هذه البيانات.

ولما تبين أن كل شيء يجري مجراه الطبيعي تم تبادل الهدايا المألوفة في مثل هذا المقام.

وذهبت الأم إلى كنزها المخبوء فأخرجت منه بعض العملة

الفضية والنحاسية واشترت أقمشة قطنية جيدة لصنع ثوبين للعروس. وقد أرادت أن تقوم بصنع الثوبين امرأة سعيدة الطالع موفقة في زوجها وأبنائها كما جرت العادة. ومن في القرية أكثر توفيقًا في هذا الشأن غير زوجة العم؟ ولذلك حملت الأم القماش إليها قائلة:

- ضعي يدك في هذا القماش يا أختي حتى يمتد حظك إلى زوجة ابني.

فقامت زوجة العم بما طلب منها، وجعلت كلا الثوبين رحبًا فضفاضًا حول البطن حتى إذا حملت الفتاة لبستهما في يسر وسهولة ولم تطرحهما جانبًا.

وأنفقت الأم نقودًا أخرى واستأجرت مقعد الزفاف الأحمر، والتاج والقرط المصنوعين من اللآلئ الزائفة والسراويل الحمراء التي يتحتم على العروس ارتداؤها في هذه الجهات. ثم حدد يوم الزفاف، ومضت الأيام تباعًا، وأخيرًا حل هذا اليوم المنشود، وكان يومًا باردًا من أيام الشتاء.

بدأ هذا اليوم غريبًا في نظر الأم التي كان عليها أن تستقبل في بيتها امرأة شابة جديدة وقد ظلت فيه عهدًا طويلًا صاحبة المقام الأول والحظوة التامة.

وحين وقفت لدى الباب تنتظر العروس وهي مرتدية أفخر ثيابها، ورأت مقعد الزفاف الأحمر يضم بين جنبيه العروس الشابة، بدا لها أنه لم يكد يمضي سوى عهد قصير منذ أن جاءت هي نفسها في هذا المقعد. وقد وقفت العجوز المتوفاة حيث هي اليوم واقفة.

ووقف زوجها حيث يحتل ابنها الآن مكانه. ولم تكن الأم تستعرض في خيالها أيام زوجها الماضية إلا لمامًا. والحق أنه كان يبدو لها في عداد الموتى. لكن أعجب العجب أن قد ساورها الآن حنين إلى هذا الرجل حيث وقف مكانها. وما كان هذا الحنين يمت إلى الجسد بأوهى صلة. فقد مات مثل هذا الحنين وتلاشى منذ عهد طويل. ولكن كان حنينًا من لون آخر لإكمال ما تحسه من نقص في شيخوختها، بعد أن شعرت بالوحدة والانفراد.

ونظرت إلى ابنها نظرة لا عهد لها بها، فإذا هو لم يعد ابنًا لها وحدها بل كان زوجًا لامرأة أخرى، وقد وقف مكانه شديد السكون منكس الرأس متصلب الأعضاء في هذ الرداء الأسود الجديد الذي صنعته له، يلبس حذاء في قدميه اللتين كانتا أبدًا عاريتين.

وقد بدا لها بعيدًا عن الانفعال أو خيل إليها أنه يبدو كذلك، حتى رأت يديه ترتجفان في كم ردائه الأسود، فتنهدت ثانية، وتذكرت زوجها للمرة الثانية وذكرت كيف أطلت عليه من فرجة ستار مقعدها فوثب قلبها فرحًا حينما رأته وسيم المحيا تستريح العين أينما نظرت إليه. أجل، كان زوجها أكثر وسامة وصباحة مما يبدو الآن ابنها الأكبر، وبدا لها الآن أنه كان أجمل رجل رأته في حياتها.

على أن طليعة موكب الزفاف أهلت قبل أن تمضي الأم في تأملاتها المحزنة إلى أبعد من هذا الحد. فجاءت أولًا فاكهة الزفاف يتبعها الديك الذي كانت الأم أرسلته إلى بيت العروس فردوه مع دجاجة قرنوها إليه كما تقضي بذلك التقاليد. ثم أقبل

المقعد بعد هذه الأشياء اليسيرة واستقر أمام الباب. وتقدمت زوجة العم والأرملة الثرثارة وغيرهما من نساء القرية المكتهلات وأخذت بيد العروس محاولات إخراجها من المقعد، فتمنعت وتأبت أول الأمر، ثم خرجت أخيرًا ولكن في نفور شديد. وقد غضت بصرها ولم تتطلع بعينيها مرة واحدة. وعند ذلك انسحبت الأم إلى دار العم عملًا بالعادة المتبعة التي تحظر على زوجة الابن أن ترى حماتها في يسر وسهولة وإلا استخفت بأمرها فيما بعد ولم ترهب جانبها. وأمضت الأم نهارها كاملًا في بيت العم.

على أن الأم وقفت قرب الباب تنصت إلى ما يقوله الناس عن الزوجة الجديدة، فسمعت إحدى النساء تقول: «هي فتاة طيبة مستقيمة». وقالت أخرى: «يقال إنها تجيد الخياطة، وإذا صح أنها صنعت الحذاء الذي تلبسه فإن لها أصابع ثمينة».

وذهبت نساء إلى العروس فأخذن يتحسسن ثوب الزفاف الأحمر ورفعن الرداء الخارجي لفحص ما تحته من الملابس الداخلية، فألفينها جميعًا متقنة الصنع ووجدن الأزرار صلبة مصنوعة بدقة من قماش مجدول. وأسرعن إلى الأم فنقلن إليها ما رأين وقلن لها:

- هي فتاة طيبة قديرة ومظهرها يدل على تمام الاستقامة.

لكن بعض الرجال تناول العروس بالنقد الجاف وقال قائل منهم:

- هي شديدة النحول والشحوب لا أسيغها إذا كانت لي.

فرد عليه آخر قائلًا:

- نعم، لكن هذا النحول يعالج في ظرف شهور قلائل يا أخي. وليس كالرجل في قدرته على نفخ الفتاة.

وبينما كانت هذه الأحاديث الطروبة المكشوفة تدور، تقدمت العروس مترددة متثاقلة إلى بيتها الجديد. وهكذا تمت مراسم الزفاف.

ثم اضطرت الأم لإخلاء الفراش الذي نامت فوقه أعوامًا طويلة، وجاءت زوجة الابن ليلًا لإعداد فراش الحماة كما تقضي بذلك التقاليد، فبسطت خلف الستائر تلك المرتبة التي كانت العجوز المتوفاة تنام فوقها من قبل، وكان ينام فوقها بعد ذلك الابن الأكبر، ووضعت مرتبة أخرى بجانب هذه لنوم الفتاة العمياء، وترك للابن الأصغر أن ينام في المطبخ إذا عنّ له أن ينام في البيت إطلاقًا. أما الفراش الأصلي فقد جعل الآن لنوم الابن الأكبر مع زوجته الجديدة.

ولم يكن يسيرًا على نفس الأم أن تتخلى للزوجين الحديثين عن المكان الذي كان لها ولزوجها من قبل، وقد جعلها هذا التطور تبدو هرمة في عيني نفسها كلما آوت إلى فراش العجوز المائتة. وكانت في النهار تتشاغل وتصدر الأوامر وتصلح هذا وتعدل ذاك، فتبدو في حالتها العادية. أما في الليل فكانت عجوزًا فانية. وطالما كانت تستيقظ ليلًا فتنكر نفسها ولا تكاد تصدق أنها هي التي ترقد فوق المرتبة وأن الزوجين يحتلان الفراش الكبير حقًّا. وكانت تناجي نفسها وقد استحوذ عليها الذهول بهذه الكلمات:

- أحسب أن تلك العجوز التي كانت أمًّا حينما جئت إلى هذا البيت

قد أحست إحساسي وساورها شعوري الحالي عندما اقتحمت بيتها عروسًا ونحيتها عن فراشها واحتللته بدوري مع ابنها. والآن ها هي ذي أخرى ترقد في الفراش مع ابني.

عجبت الأم أشد العجب من هذه العجلة الخفية التي تدور إلى ما لا نهاية، هذه السلسلة المتصلة الحلقات التي لا يدرك آخرها. حتى لقد بهرها التفكير في هذا الشأن، وأذهل حواسها، مذ كانت لا تتكلف التفكير فيما يعرض أمام عينيها، وإنما تتقبل كل ما تراه بالتسليم والامتثال. لكنها تضاءلت في عيني نفسها منذ هذا اليوم. ومع أنها كانت بالاسم كبرى نساء البيت وأولاهن وأجدرهن بالسيادة والتصدر فإنها لم تبد كذلك في عينيها.

ثم جعلت الأم تراقب زوجة ابنها، فألفتها مجدة غيورة على أداء واجباتها، وكانت تقوم بواجب التحية لحماتها فتنحني أمامها كل يوم حتى تبرمت الأم وأمرتها أن تكف عن هذه التحية، لكن الأم لم تستطع أن تهتدي إلى نقيصة في خلق الفتاة أو في تصرفاتها. ومن ثم كان هذا الكمال نقيصة في ذاته. وغمغمت الأم قائلة:

- حسنًا... لا شك أن بها عيبًا خفيًّا لا يبدو لي فورًا.

فإن زوجة الابن لم تكشف عن دخيلتها مرة واحدة، إذ كانت موفورة النشاط سريعة في إتمام واجباتها. وإذا أتمت كل شيء جلست تخيط شيئًا لزوجها. لكنها كان تؤدي أعمالها بطريقتها الخاصة الدالة على الحرص والتدقيق.

والواقع أنه ليس في الدنيا امرأتان يمكن أن تقوما بعمل واحد بطريقة متشابهة، وقد غابت هذه الحقيقة عن ذهن الأم وكانت

ترى أن جميع النساء يفعلن الشيء كما تفعله. لكن هذه الزوجة كانت تمتاز بطابعها الخاص في القيام بكافة الأعمال. وكانت إذا تولت طهي الأرز جعلت فيه ماء كثيرًا، أو هكذا كان يخيل للأم فيجيء الأرز أكثر رخاوة مما ألفت الأم أو مما تحب أن يكون. وقد نفضت هذا الرأي لزوجة الابن، لكن هذه أطبقت شفتيها الشاحبتين وقالت لها:

- لكني أصنعه دائمًا هكذا.

ولم تشأ أن تغير هذه الطريقة.

وسرت هذه القاعدة إلى كافة الشئون المنزلية الأخرى، فقد جعلت زوجة الابن تتناول هذا الشيء وذاك بالتغيير والتبديل وفاقًا لذوقها، ولم تلجأ في هذا إلى العجلة والتسرع والنزق، بل كانت دائمًا في أعمالها مثال التأني والحرص والأخذ بقاعدة التدرج. وبهذا لم تهيئ للأم سبيلًا للغضب والتحرش.

ثم كانت هناك مسألة أخرى، فإن الزوجة الشابة نفرت من رائحة الدواب في الليل وشكت من ذلك لا إلى الحماة ولكن لزوجها، فعمد الرجل في نفس هذا الشتاء إلى بناء غرفة أخرى ملحقة بالبيت لنقل الفراش إليها حتى ينام وزوجته وحدهما. وكانت الأم تنظر إلى هذه التطورات الجديدة بعين الدهشة والعجب.

وقد قررت الأم لفتاتها العمياء أول الأمر أنها لن تغضب من زوجة ابنها. والواقع أنه لم يكن يتيسر لها أن تبدي هذا الغضب بسرعة، فإن الزوجة الشابة كانت تتقن أعمالها وتؤديها بحرص وتدقيق، وكان يتعذر على الأم أن تقول لها إنك أخطأت في هذا أو

لم تتقني ذاك. لكن من الأمور ما كانت الأم تمقته أشد المقت كطهي الأرز رخوًا طريًّا، وجعلت تكرر الشكوى من هذا الأمر ولم تتمالك أخيرًا أن رددت شكواها عاليًا في هذا الشأن إذ قالت:

- أنا لا أشعر بالشبع والتغذية بمثل هذا الأرز، لا يوجد ما أمضغه بأسناني من هذه المادة المائية، وهي تقر ببطني كالريح ولا تستقر بها كما يستقر الطعام الثابت الجيد.

ولما رأت أن زوجة ابنها لم تعر هذه الشكوى التفاتًا ذهبت خلسة ذات يوم إلى ابنها في الحقل وقالت له:

- يا بني، لم لا تأمرها أن تطهو الأرز جافًا يابسًا؟ إني كنت أعرف أنك تحبه هكذا.

فكف الابن عن العمل واستند إلى فأسه قليلًا ثم قال بلهجته الهادئة:

- إني أحبه كما تصنعه وتجيد صنعه.

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى تحرك الغضب في صدرها وقالت:

- أنت لم تكن تحبه هكذا. ومعنى هذا أنك تنضم إليها ضدي. من العار أن تحبها هذا الحب وتقاوم أمك.

فتورد وجه الشاب توردًا شديدًا وقال ببساطة:

- نعم إني أحبها كثيرًا.

واستأنف العمل بمحراثه.

ومنذ هذا اليوم أدركت الأم أنهما صارا سادة البيت. ولم تختلف

طباع الشاب عن رقتها المألوفة وكان يجيد القيام بالعمل ويستحوذ على النقود في يده. وصحيح أنه لم ينفق هذه النقود ولم تمسسها زوجته، فقد كان كلاهما من المستمسكين بأسباب الاقتصاد، لكنهما كانا رجلًا وزوجته والبيت بيتهما والأرض أرضهما، ولم تعد الأم في نظرهما سوى امرأة عجوز.

وصحيح كذلك أن الأم إذا تكلمت في مسائل التربة أو البذور أو شئون العمل الزراعي الذي كانت تعرفه تمامًا مذ كانت مستقلة به وحدها، كان الزوجان يتركانها تتكلم، حتى إذا فرغت من الكلام كانت كأن لم تتكلم، وراحا يقومان بمشروعاتهما الخاصة ويؤديان كل شيء على الوجه الذي يحلو لهما. وبدا للأم أنها لم تعد شيئًا مذكورًا وأن خبرتها لم تعد ذات قيمة في البيت الذي كان بيتها.

كان هذا أشد من أن يستطيع إنسان احتماله، ولما تم تشييد الغرفة الجديدة وانتقل إليها الزوجان غمغمت الأم قائلة لفتاتها العمياء التي كانت ترقد بجوارها:

- أنا لم أر في حياتي مثل هذه المغالاة في الرقة، وكأن رائحة الدواب الطيبة هي سم مميت. أحلف أنهما جعلا هذه الغرفة ليتيسر لهما البعد عنا وتدبير خططهما دون أن نسمعهما. إنهما لا يفضيان إليَّ بشيء بتاتًا. ليست المسألة مسألة دواب. ولكن الحقيقة أن أخاك يحبها حبًّا مخجلًا. نعم هما لا يهتمان بك ولا بأخيك الصغير، بل لا يهتمان بي أيضًا.

ولما لم تجب الفتاة قالت لها الأم:

- ألا ترين هذا مثلي يا ابنتي؟ ألست على حق؟

فترددت الفتاة قليلًا ثم صدر صوتها من خلال الظلام بهذه الجملة:

- يا أمي عندي كلام أريد أن أقوله لك، ولكني لا أود أن أقول لكيلا أحزنك.

فهتفت الأم:

- تكلمي يا بنت، إني تعودت الحزن.

فقالت الفتاة في صوت خافت:

- ماذا تنوين أن تفعلي بي يا أمي وأنا فتاة عمياء؟

كانت الأم ترى أن من الممكن أن تقيم هذه الفتاة معها في هذا البيت مدة أخرى، وقالت في دهشة:

- ما هو قصدك يا ابنتي؟

فأجابت الفتاة:

- أنا لا أقصد أن أقول إن زوجة أخي ليست طيبة، فهي ليست قاسية. لكني أظن أنها لا تحلم بأنك لن تزوجيني قريبًا. وقد سمعتها تسأل أخي الأصغر عن إمكان خطوبتي. ولما قرر لها أني لست مخطوبة، قالت له بدهشة: «فتاة كبيرة لا حماة لها!».

فقالت الأم:

- لكن عمياء يا ابنتي، وليس من السهولة تزويج فتاة عمياء.

فقالت الفتاة برقة:

- أعرف هذا.

ثم استطردت بعد قليل في انفعال:

- لكنك تعرفين يا أمي أن في قدرتي أن أقوم بأعمال كثيرة، وقد يوجد رجل بائس، كأرمل مسكين أو سواه، يرضى بما أستطيع أن أؤديه دون أن يدفع لي مهرًا، فإذا تيسر هذا كنت في بيتي وتسنى لي إذا ذهبت أنت أن أجد من أهتم به. أنا لا أظن أن أختي تريدني يا أمي.

لكن الأم أجابت في لهجة عنيفة:

- لن أدعك تذهبين لتعمير بيت رجل على هذا الوجه يا طفلة. نحن فقراء كما أعرف، لكن في وسعنا أن نطعمك. إن أرامل الرجال يا ابنتي هم أقسى وأغلظ الأزواج.

فلتنامي إذن ولا تفكري في هذا بعد. أنا لا أزال موفورة القوة ويمكن أن أعيش مدة طويلة. ولم يكن أخوك قاسيًا نحوك أبدًا، حتى وأنت طفلة.

فقالت الفتاة وهي تتنهد:

- هو لم يكن متزوجًا في ذلك العهد.

ولزمت الفتاة الصمت بعد هذا كأنما استسلمت للنوم.

لكن الأم لم تجد سبيلًا للنوم رغم أنها كانت في الليالي السالفة تستغرق في النوم، وتمددت في مكانها تقدح ذاكرتها وتستعرض الأيام الماضية يومًا يومًا لعلها تجد سندًا من الحقيقة الواقعية يؤيد ما قالت الفتاة. ومع أنها لم تستطع أن تهتدي إلى شيء معين، فقد بدا لها أن زوجة الابن ليست بارة ولا رفيقة. أجل إنها لم تكن بارة كما يجب نحو الابن الأصغر، وهي أقل برًّا بالفتاة العمياء.

وهكذا توفرت للأم مادة جديدة للألم والعذاب.

* * *

الفصل الثاني عشر

كان غضب الأم شديدًا عندما وجدت ابنها الأكبر يستحثها على تزويج أخته العمياء؛ لأنه لا يستطيع إطعامها طول حياته. وقد اتهمته بأن هذه الفكرة هي من تحريض زوجته ورفضت بعناد وإصرار. ثم تجرأت زوجة الابن وأصبحت تشكو علنًا وتعرض بالابن الأصغر الكسول العاطل والفتاة العمياء التي لم تتزوج. وكان الجيران يتدخلون ويقولون إن هناك عائلات فقيرة لها ابن لا أمل له في الزواج ويمكن أن تقبل فتاة عمياء فقيرة زوجة له إذا أخذت العروس بلا مقابل. وبتأثير إلحاح الجيران رضخت الأم. وانتهى طول البحث إلى تزويج الفتاة من ابن لعائلة فقيرة بين التلال الشمالية في أرض قاحلة، فقد بدا للأم أخيرًا أنها قد لا تعيش طويلًا ولا بد لها من الاطمئنان على مصير فتاتها العمياء، كما أن مرض الأم عجل بتنفيذ هذه الخطوة التي زكاها الجميع. وعندما حل يوم رحيل الفتاة إلى بيت الزوجية النائي بين التلال، جاء رجل عجوز فوق حمار أعجف لمصاحبة الفتاة إلى مقر ابن أخيه العريس بين التلال تنفيذًا لما تم الاتفاق عليه بين الوسطاء. وقد توجست الأم شرًّا من هيأة العجوز وكادت تمانع لولا إلحاح الابن الأكبر وزوجته والجيران. وهكذا غلبت الأم على أمرها وركبت فتاتها الحمار الأعجف مرتدية ما صنع لها من ملابس جديدة وودعتها الأم وهي تشدد من عزمها وتعدها بزيارة قريبة في مقرها الجديد، وعندما توارت الفتاة خلف التلال استسلمت الأم

للدموع والأحزان.

* * *

لم يكن للأم إلا أن تتشاغل على وجه من الوجوه تسكينًا لمخاوفها وسدًّا للفراغ الذي خلفه ذهاب الفتاة العمياء. وقد بدا لها البيت ساكنًا والشارع مقفرًا حيث لم تعد تسمع رنين الناقوس الصغير الذي كانت الفتاة تدقه كلما خرجت من البيت. فلم تقو الأم على الصبر والاحتمال وذهبت إلى الحقول للعمل فيها على غير رغبة ابنها، ولما رآها تمسك الفأس قال لها:

- لا حاجة بك إلى العمل يا أمي. يخجلني أن أراك تعملين في الحقول ويراك الناس هكذا وأنت في سن الشيخوخة.

لكنها قالت له غاضبة:

- لست عجوزًا كما تتصور، دعني أشتغل حتى أروح عن نفسي. ألا ترى كيف يجب أن أروح عن نفسي؟

فأجاب الشاب في عناده المألوف:

- يبدو لي أنك تحزنين بلا موجب للحزن يا أمي. ولا حاجة بك إلى توقع مكروه قد لا يحدث أبدًا.

لكن الأم قالت في حزن لازمها هذه الأيام ملازمة الظل:

- أنت لا تفهم. أنت صغير. لا تفهم شيئًا بتاتًا.

فتطلع الشاب إلى أمه في ذهول دون أن يدرك مغزى كلامها. لكنها لم تنبس بكلمة أخرى. بل حملت فأسًا وخرجت إلى الحقول في صمت وسكون.

على أنها لم تعد تقوى على العمل الشاق بعد، فقد كان العرق يغمرها إذا فعلت، وإذا هبت الريح ولو ساخنة بعثت قشعريرة في جسدها. وسرعان ما تجدد الداء وعاودها مرض القيء القديم.

فلم يكن بد إذن من أن تحتمل هذا الخمول، ولم تسع إلى العمل في الحقول بعد شفائها، بل كانت تجلس في مدخل الدار في كسل واستسلام. ولم تكن بحاجة إلى القيام بأي عمل في داخل البيت إذ كانت زوجة الابن لا تترك صغيرة ولا كبيرة إلا قامت بها على خير الوجوه.

وقد رأت الأم أن لا عيب في هذه الزوجة سوى أنها لا تحمل ولا تلد. وكانت الأم وهي جالسة في مكانها بلا عمل تدير عينيها قلقة في أرجاء الحوش حيث ألفت من قبل أن تنظر أطفالها الصغار يتعثرون في لعبهم. وكانت طوال يومها تستعرض الأيام الذاهبة. وتذكرت كيف جلست مرة في هذا المكان تفيض صحة وشبابًا وقد وقف زوجها عن كثب وراح أطفالها يرتعون ويمرحون وهي الزوجة فحزنت في نفسها هذه الذكرى وأعرضت عنها. وعاد بها الفكر إلى الواقع فبدت الدنيا في عينيها خواء أو كالخواء. فقد كان ابنها الأكبر يقضي يومه في الحقول أو يتفقد المحصول مع وكيل المالك، وهو رجل عجوز مهدم قيل لهم إنه يمت بصلة القرابة إلى المالك ولم يقع نظرها عليه مرة واحدة. وقد ذهبت ابنتها العمياء. وكان ابنها الأصغر يختلف كثيرًا إلى البلدة ولا يعود إلى البيت إلا لمامًا.

ومهما يكن من شيء فقد بقي لها هذا الابن الأصغر. وكانت تفكر

فيه كثيرًا وتؤثره على سائر أولادها بمزيد الحب والإعزاز. وكان يبدد وحشتها كلما جاء بين حين وآخر ويخلق في سماء حياتها جوًّا من البهجة والانتعاش. وإذا رأته نهضت من عزلتها باسمة وراحت تملأ العين من محاسنه وتجتلي طلعته البهية. فهو أجمل أولادها وأقربهم شبهًا لابيه. وكان يجيء في هذه الأيام مطمئنًا آمنًا لا يخاف أخاه كما يخافه من قبل، إذ كان يقوم بعمل في البلدة يستمد منه بعض الكسب.

على أنه لم يقل مرة ما هو هذا العمل ولم يشر إليه بشيء من التحديد، ولم يعرف عن هذا العمل إلا أنه كان يهيئ له مالًا كثيرًا أحيانًا وأحيانًا أخرى كانت جيوبه تنضب منه، وإن لم يظهر هذا المال مرة لأمه، ولكنه كان يبدو في الملابس الطيبة التي يرتديها، على أنه كانت تهزه الأريحية أحيانًا فيدس في يد أمه خلسة قطعة من النقود ويقول لها:

- خذي هذه يا أمي وانفقيها على نفسك.

فكانت الأم تتقبلها منه وتثني عليه وتبدي له حبها إذ كان الابن الأكبر لا يقدم لها مالًا على الإطلاق، ومنذ آلت إليه السيادة في البيت استبقى النقود كلها في يده ولم يتخل عن شيء منها. وقد كانت في الحق تنال كفايتها من الطعام وهو لذتها الوحيدة الباقية، وكانت تتمتع بالملبس الطيب والخدمة الصادقة، بل كان كفنها قد هيئ لها وإن لم تفكر بعد في الموت، وكانت ترى أنها تستطيع أن تعيش طويلًا، وكانت تنال كل ما تطلبه وتشتهيه. فمن قصبة التدخين وقدر من الطباق الجيد، إلى قدح من النبيذ الأصفر الذي

يقدم لها ساخنًا، لكن ابنها وزوجته لم يخطر لهما يومًا أن يدسا في يدها قطعة من النقود ويقولا لها: «خذه هذه لإنفاقها في أي شيء تحبين». وكانت تعلم أنها إذا طلبت مثل هذه القطعة لتبادل الزوجان النظر وقال أحدهما:

- لكن أي شيء تشترين بها؟ ألسنا نقدم لك كل شيء.

فلما أعطاها الابن الأصغر قطعة النقود سرت بها أكثر من سرورها بكل ما فعله الزوجان نحوها، وأبقتها في صدرها حتى جاء الليل فنهضت إلى الحفرة وأخفتها في بطنها.

لكن هذا الابن الأصغر لم يكن بحيث تراه دائمًا. وكانت الأم وزوجة ابنها تجلسان وحدهما في الحوش فيبدو للأولى أن كل ما حولها خواء ووحشة وفراغ. وكانت تجلس مكانها ترسل الزفرات وتدخن القصبة وتفكر في حياتها الماضية أو في بعض نواحيها على وجه التحديد. فقد كان يشوبها ذلك الحادث الذي لا تستطيب التفكير فيه. وإذا فكرت فيه أعاد إلى ذهنها شأن فتاتها العمياء ولم تستطع أن تحزم بأن الحادث ومصاب الفتاة غير مقترنين في تقدير الآلهة وحسابها. وكان يعن لها أحيانًا أن تقصد إلى أحد المعابد التماسًا لبعض السلوى والعزاء وإن كانت لا تدري كنههما. لكن الخطيئة الماضية كانت تقف أبدًا سدًّا أمامها، وكان يبدو لها أن أوان الصفح والغفران قد انقضى وفات، فتدع الأمور تجري في مجراها وتتنهد وتتحدث أحيانًا عن ابنتها العمياء في حزن وكآبة:

ولما تكلمت يومًا في هذا الشأن قالت زوجة الابن بحدة:

- هي بخير لا شك. ومن حسن الحظ أنكم وجدتم من يقبلها زوجة لولده.

فقالت الأم بحرارة:

- إن ابنتي فتاة ماهرة. وأنا أعرف أنك لا تؤمنين بقدرتها ومهارتها. لكنها كانت تقوم بأعمال كثيرة قبل مجيئك، فلما جئت ولم تتركي لها أن تعمل شيئًا، فاتك أن تعرفي مبلغ مهارتها.

فقالت زوجة الابن وهي تدني القماش الذي تخيطه من عينيها لكي تحكم خياطته:

- نعم، ربما كان هذا، لكني تعودت مواصلة العمل الذي أقوم به حتى أتمه، أما الفتاة العمياء فإنها لا تقدر على القيام بعمل جدي.

فتنهدت الأم ثانية وأدارت نظرها في الحوش الخاوي وقالت:

- ليتك كنت تحملين طفلًا يا ابنتي. لا بد لكل بيت من طفل أو طفلين أو ثلاثة. وأنا لم أتعود بقاء البيت خاويًا هكذا. ويا ليت ولدي كان يتزوج إذا كتب عليك ألا تعقبي أولادًا. لكن لن يفعل هذا لسبب ما.

كان هذا العامل مصدر حزن الشابة، فقد مضى على زواجها خمس سنوات دون أن تحمل أو تظهر عليها دلائل الحمل. وقد ذهبت إلى أحد المعابد للصلاة والدعاء، وفعلت كل ما تستطيع وتعرف. غير أنها بقيت عاقرًا ولم تظهر لها بارقة أمل. غير أنها كانت شديدة الكبرياء لا ترضى أن تكشف عن مبلغ حزنها في هذا الشأن. وقد أجابت الأم في هدوء:

- سيكون لي أولاد في الوقت المناسب ولا شك.

فقالت الأم في نزق:

- نعم، لكن هذا هو الأوان. أنا لم أسمع بامرأة متزوجة في قريتنا لا أولاد لها. إن رجالنا يغدون آباء حالما يتزوجون، ونساءنا دائمًا ذوات خصب. بذرة صالحة، وتربة صالحة، لا بد من وجود مرض خفي في جسمك يتولد عنه هذا العقم الغريب. إني صنعت لك ملابسك رحبة فضفاضة. لكن ما الفائدة؟

وراحت الأم تشكو لزوجة العم وتقول لها همسًا:

- أنا أعرف تمامًا مصدر الخلل، إن زوجة ابني مجردة من الحرارة، هي مخلوقة شاحبة صفراء، وهي لا تختلف في يوم عن يوم ولا يعلوها أبدًا ذلك التوقد الذي يصدر من داخل الجسم.

فأومأت زوجة العم برأسها إيجابًا وضحكت وقالت:

- صحيح إن أمثال هؤلاء النساء الصفراوات الباردات لا يحملن بسرعة.

ثم ضحكت ضحكة أخرى ذات مغزى واستطردت:

- لكن ليست كل امرأة مملوءة حرارة يا أختي كما كنت في شبابك. وأنت تعرفين تمامًا أن هذا غير محمود دائمًا في المرأة.

فلما سمعت الأم هذا التعريض قالت بسرعة:

- آه، نعم. أعرف هذا.

ولزمت الصمت بعض الوقت، ثم قالت مكرهة:

- صحيح إنها امرأة حريصة شديدة النظافة، وهي تغتسل بين وقت وآخر وربما كان هذا هو سبب عقمها. فإن الإفراط في الاغتسال غير محمود دائمًا.

لكنها لم تتكلم في حرارة النساء بعد هذه المناسبة. فقد خافت أن تثير زوجة العم موضوع الخطيئة التي ارتكبتها في أعماق الماضي، وإن كانت زوجة العم من أطيب النساء ولم تشر مرة إلى هذا الموضوع بشيء طوال تلك السنوات. ولولا هذان العاملان اللذان كانا مصدر حزنها وانقباضها- أي عمى الفتاة وعقم زوجة الابن- لنسيت الأم هذه الخطيئة نسيانًا تامًّا بعد أن باعد الزمن بينها وبين عهود الجسد والشباب. أجل، كان يمكن أن تنسى هذه الخطيئة لولا إشفاقها من أن يكون الحزن المقترن بهذين العاملين هو عقاب الخطيئة وجزاؤها.

لكن هكذا قدر أن تكون حياتها، فابنتها عمياء وقد ذهبت عنها، وزوجة ابنها عاقر لا ولد لها... وليس حولها سوى الدواب والكلب. وحتى هذه الحيوانات لم تجسر على إطعامها.

ولم يبق لها عزاء في هذه الأيام سوى أن ولديها كفا عن الاختصام والشجار، فقد قنع الابن الأكبر بما نال من سيادة في البيت، واستقر الابن الأصغر خارج الدار في مكان ما، وقصارى ما كان يفعله الشاب إذا جاء أخوه ثم عاد من حيث جاء أن يقول في شيء من الازدراء:

-- ترى من أين يستمد أخي هذه الملابس الطيبة التي يرتديها، وما هو هذا العمل الذي يؤديه؟ لا أستطيع ارتداء ملابس كهذه

الملابس وأنا الذي أكد واقوم بأشق الأعمال. ويبدو أنه يحصل على المال من أي طريق. وكل ما أرجو ألا يكون مندمجًا في سلك عصابة من لصوص المدن أو في شيء من هذا القبيل، فيجلب لنا التعب إذا قبض عليه.

فلما سمعت الأم هذا الكلام هبت في بسالة للدفاع عن ولدها الأصغر كدأبها، وقالت:

- إن أخاك ابن شديد الطيبة، ويجدر بك أن تثني عليه وتحمد ذهابه وتوفيقه إلى عمل خاص يقوم به حتى لا يبقى هنا ويشاركك هذه الأرض.

فقال الشاب ساخرًا:

- نعم.. هو يرضى أن يقوم بكل شيء يبقيه بعيدًا عن العمل في الأرض.

أما زوجة الابن فلم تتدخل في شيء من هذا الحوار، فقد طابت نفسًا هذه الأيام إذ بقي البيت لها وحدها، ولم يكن يعنيها ما يقوم به الابن الأصغر وما يفعله.

وانقطعت شكواها الآن لأنه كان يبتاع ملابسه ويخيطها بعيدًا فلا تضطر لصنعها له.

وهكذا كانت الأيام تمضي والزمن يدور، وأقبل الربيع وانقضى وجاء الصيف ولم تستطع الأم أن تنسى فتاتها.

وجلست ذات يوم تحصي على أصابعها الأيام التي مضت منذ أن حالت التلال بينها وبين ابنتها، فأحصت بأصابع يديها حوالي

اثنتي عشرة مرة ثم ضلت والتبس عليها العد؛ ولذا قالت في كآبة:

- لا بد من ذهابي إليها. إني استسلمت للضعف وكان يجب أن أذهب من قبل. ولو كانت فتاة صحيحة لجاءت الآن لأداء الزيارة التي تقوم بها الزوجات لبيوتهن القديمة، ولسألتها عن حالها ولمست يديها وذراعيها ووجنتيها ورأيت لون وجهها.

وراحت الأم تسرح الطرف في سفوح التلال المحيطة بها وقد اكتست بتقدم الصيف ثوبًا سندسيًّا وأينعت النباتات في الحقول وبسقت أعوادها. وراحت تتحامل على جسدها الذي دب إليه الإعياء رغم خمولها الدائم، وناجت نفسها قائلة:

- لا بد من ذهابي فورًا لرؤية ابنتي، فقد أصبحوا لا يحتاجون إليَّ في الحقول وهأنذا أجلس خاملة بلا عمل. سأذهب قبل اشتداد الحرارة حتى لا يصيبني المرض من جديد. نعم، سأذهب في الغد إذ لا توجد سحابة واحدة في هذه السماء الجميلة، هذه السماء الزرقاء.

ولما جاء ابنها الأكبر قالت له:

- إنني أفكر في الذهاب غدًا لرؤية أختك، ولمعرفة أحوالها في البيت الذي تزوجت فيه؛ لأنها لا تستطيع أن تجيء إليَّ.

فلما سمع الشاب هذا الكلام قال في لهجة القلق:

- لا يمكنني أن أذهب معك يا أمي في الوقت الحاضر؛ لأن عندنا عملًا في الغد. انتظري حتى يتم الحصاد ويدرس الحب ويكال، فيتيسر لي بعض الفراغ لمرافقتك.

لكن الأم لم تستطع أن تنتظر؛ فقد كانت ذات صلابة وقوة إذا اعتزمت أمرًا، وكانت متبرمة من طول قعودها وخمولها، وقالت:

- لا سأذهب غدًا.

فقال الابن دون أن يفارقه قلقه:

- لكن كيف تذهبين يا أمي؟

فأجابت:

- سأركب حمار العم إذا أعارني إياه، ولتكلف أنت أحد أولاده بالذهاب واستدعاء أخيك لكي يقود الحمار ويسير بجانبي. وسنكون في أمان من لصوص المدن الذين يسمونهم «الشيوعيين».

وقد رضي الابن آخر الأمر أن ينزل على رأيها، وإن لم يذعن لها بسهولة حتى تدخلت زوجته وقالت بهدوء:

- صحيح إني لا أرى خطرًا ما إذا رافقها أخوك الأصغر.

وهكذا تركوا الأم تفعل ما يحلو لها. وذهب ابن العم إلى البلدة وبحث عن الابن الأصغر حتى وجده وعاد إلى الأم قائلًا:

- إن ابن عمي وابنك الثاني سيجيئان يا عمتي.

وجعل الفتى يفكر قليلًا وهو يدير زر ردائه ثم قال ثانية:

- أحلف أن ابن عمي الأصغر يقيم في مكان سري غريب يصعب إيجاده. فهو يعيش في غرفة مستطيلة مملوءة بالفرش، فيها نحو عشرين فراشًا وهي كائنة فوق أحد الحوانيت، وهي مكتظة

بالكتب والأوراق. لكني سألته وعلمت منه أنه لا يشتغل في الحانوت. أنا لم أكن أعلم يا عمتي أن ابن عمي يستطيع أن يقرأ. وإذا كان يقرأ هذه الكتب فهو رجل عالم.

فقالت الأم في دهشة:

- هو لا يعرف القراءة، وهو لم يخبرني أبدًا أنه كسب من الكتب، والحقيقة أن هذا شيء شديد الغرابة. ولا بد أن أسأله في هذا الشأن.

وفي اليوم التالي بعد أن ركبت الأم الحمار وسار بها يشق طريقه في الوديان، انتهزت فرصة انفرادها بولدها وسألته:

- ما هذه الكتب والأوراق التي قال ابن العم إنها موجودة في تلك الغرفة التي تقيمون فيها جميعًا؟ أنت لم تخبرني أبدًا بأنك تعرف القراءة أو أنك تعيش من الكتب. أنا لم أرك تقرأ كلمة واحدة يا ولدي.

فكف الابن عن إتمام الأغنية التي كان آخذًا في الترنم بها، إذ كان رخيم الصوت يحب الغناء، وأجاب قائلًا:

- نعم، إني تعلمت قليلًا.

ولما ألحت عليه في السؤال قال لها:

- لا تسأليني الآن يا أمي، فإنك ستعرفين كل شيء في يوم ما، متى حانت الساعة.

قلقت الأم ولم تتمالك أن هتفت مشفقة:

- أرجو ألا تكون مندمجًا في عصابة شريرة يا ولدي كلصوص أو

من شاكلهم. هذا أقرب إلى كلام النهابين وقطاع الطرق يا ولدي.

لكن الفتى غضب من هذا الكلام وقال:

- أنت لا تفهمين شيئًا يا أمي، إني أقسمت أن ألزم الكتمان، لكن سيأتي يوم تعرفين فيه كل شيء. نعم، لن أنساك في ذلك اليوم، لكن أنت وحدك، ولن أقاسم أحدًا لم يقاسمني.

وقد فاه الفتى بهذه الجملة الأخيرة في صوت مرتفع حتى لقد فهمت الأم أنه يعني أخاه بها. ولذا لزمت الصمت لحظة خوفًا من إثارة غضبه.

لكنها لم تستطع أن تتركه حيث يريد، وقد جلست فوق ظهر الحمار وتشبثت بجلده ذي الشعر وجعلت تفكر في أمر هذا الابن وتخالسه النظر.

رأته يسير أمام الحمار ممسكًا بزمامه، وأنشأ يغني من جديد أغنية لم تسمع مثلها في حياتها، أغنية ملتهبة نارية لم تستطع أن تلم بكلماتها. ورأت أنه قد آن الأوان لكي يتصل هذا الفتى بالحياة ويندمج فيها. أجل، ويجب أن ترده إلى حظيرة البيت والعائلة وتربطه إليهما برباط أشد وثاقًا. وعليها أن تزوجه وأن تضم زوجته إلى البيت، فإذا فعلت كثر تردده على البيت. وربما أقام فيه إقامة دائمة لأجل زوجته. وفي وسعها أن تلتمس له فتاة حسناء يمكنه أن يعشقها؛ لأن في وسع زوجة الابن الأكبر أن تقوم بسائر أعمال البيت فيتيسر للأم أن تفتش لابنها الأصغر عن زوجة من طراز آخر.

فلما استعرضت الأم هذه الخواطر طابت نفسها ولم تستطع أن

تكتم ما يجيش في صدرها وقالت له:

- أنت الآن يا ولدي تناهز الحادية والعشرين من عمرك. وقد فكرت في تزوجيك قريبًا. كيف تجد هذه الفكرة السارة؟

كانت الأم تتوقع أن يبتسم الفتى ويلزم الصمت وهو بين الرضا والحياء، لكنه وقف مكانه واستدار نحوها وقال بإصرار:

- كنت أنتظر منك مثل هذا الكلام، فهو كل ما تفكر فيه الأمهات ويملأ أدمغتهن. ورفاقي يقولون إن هذا هو كل ما يردده آباؤهم. لكني لن أتزوج، وإذا زوجتني رغم إرادتي، فلن تري وجهي أبدًا.

ودار في مكانه وجعل يسير بسرعة أكبر، فلم تجسر على مبادرته بالكلام، بل جلست في مكانها مذهولة مرتاعة من غضبه وسكوته عن الغناء.

غير أنها لم تلبث أن نسيت هذا الموضوع بتأثير ما هي مقبلة عليه، فقد أخذ الطريق يضيق شيئًا فشيئًا، وتلاشت سفوح التلال السندسية وأعقبتها سلسلة من الجبال الصخرية الجرداء الصاعدة في السماء. واختفت النباتات لانعدام المياه في هذه البقاع المقفرة المجردة من معالم الحياة. وكان الطريق يمتد متعرجًا صاعدًا لا نهاية له. وبعد الظهر بساعتين تقريبًا أشرق فجأة على واد عميق مستدير بين الجبال قامت فيه قرية صغيرة مربعة يحف بها سور صخري وتنتشر فيها بعض حقول خضراء. على أنه حينما وقفت الأم وابنها بباب القرية مستفسرين عن المكان الذي يقصدان إليه تقدم منهما رجل كان واقفًا وأشار بيده عاليًا وقال:

- هناك حيث تنتهي الخضرة عند حافة هذا المرتفع البعيد يوجد

بيتان وهذه آخر حدود الأرض المزروعة، ولا يوجد بعدها غير الصخور والسماء.

وكانت الأم في هذه الأثناء تحدق في دهشة إلى هذه الجبال الصخرية وما حولها من المناطق الزراعية اليسيرة، وقد قضت حياتها بين الوديان الخصبة التي تفيض بالخير والحياة. ولم تتمالك أن هتفت حين وقعت عيناها على هذا الجدب الموحش:

- أنا لا أميل إلى مظهر هذا المكان يا ولدي. وأخاف أن يكون مكانًا قاسيًا لا يصلح لمعيشة أختك. فإن كان ذلك فسأردها إلى بيتنا إذن. نعم، إذا كانت تعاني شظف العيش هنا، ففي وسعي أن أمشي وأن نركبها الحمار، وليقولوا بعد ذلك ما يقولون. إنهم لم يدفعوا مهرًا لها، ولن نسألهم شيئًا إلا أن يعيدوها لنا.

لكن الفتى لم يقل شيئًا، فقد كان منهوك القوى جوعًا إذ إنهما لم يبتلعا إلا الطعام البارد اليسير الذي حملاه معهما، وكان متلهفًا للوصول إلى بيت أخته حيث قدرا أن يمضيا الليل بين جدرانه. وجعل يجذب عنان الحمار بشدة حتى ضاقت الأم وهمت أن تنتهره وتؤنبه.

وفجأة وصلا إلى البيت المنشود.

وصلا إلى بقعة بين الصخور فيها بيتان رأت الأم عند أحدهما ذلك العجوز المشئوم الذي جاء لأخذ فتاتها، فأدركت أن ابنتها تقيم هنا. ولما رآها الرجل حدق فيها بعينيه وكأنه لا يصدق أنها هي. وسرعان ما دخل البيت وخرج منه ثانية يتبعه رجل أسمر نحيل مخيف الشكل وامرأتان وشاب متكاسل، لكنها لم تر ابنتها.

ترجلت الأم عن الدابة وذهبت إليهم وهم يحدقون إليها صامتين. فلم تتمالك أن تطلعت خلفها خوفًا.

والواقع أنها لم تشاهد في حياتها مثل هذا السجن. فقد كانت كل من المرأتين مشوشة الشعر مغضنة الوجه شديدة السمرة بتأثير حرارة الشمس، ترتدي ملابس قذرة كل القذارة لم تغسل يومًا ما. وكذلك كان شأن الجميع.

وانضم إلى هذه الزمرة المخيفة أطفال مرضى شاحبو الوجوه شديدو القذارة خرجوا من البيت الثاني. ووقف الجميع يحدقون صامتين لا يبادرون الأم وابنها بتحية وقد تجردت نظراتهم من كل دلائل الإنسانية وكأنهم حيوانات وحشية لا تعقل ولا تبين.

عند ذلك تمزق قلب الأم خوفًا وجزعًا وركضت إلى الأمام قائلة:

- أين ابنتي؟ أين أخفيتم ابنتي؟

وأسرعت الأم حتى صارت بينهم، أما الفتى فقد وقف مكانه مترددًا ممسكًا بعنان الحمار.

وأخيرًا قالت إحدى المرأتين في لهجة مبهمة تشف عن السخط والتبرم:

- أنت جئت في الوقت المناسب أيتها المرأة الطيبة، فإنها ماتت اليوم.

- ماتت!!

فاهت الأم بهذه الكلمة في صوت خافت ولم تعقب بشيء، فقد كف قلبها عن الحركة... وانقطع تنفسها... واحتبس صوتها.

لكنها اندفعت إلى أقرب الكوخين، فإذا فتاتها العمياء ممددة فوق فراش من قش مُلقَى على الأرض. أجل.. كانت الفتاة ترقد رقدة هادئة وقد فارقتها معالم الحياة. وكانت ترتدي نفس الملابس التي ارتدتها يوم فارقت بيت أمها، لكنها لم تكن نظيفة ولا سليمة. وكانت الغرفة مقفرة إلا من كوم من الحشائش البرية وبعض المقاعد الصغيرة الجافية.

هنالك اندفعت الأم وجثت بجانب الفتاة وجعلت تحدق في وجهها الساكن وعينيها الغائرتين وفمها الصغير وكافة هذه التقاطيع التي تعرفها تمام المعرفة. وفجأة انهمرت دموعها وصاحت باكية وارتمت فوق الفتاة وتناولت يديها وأزاحت كمها ونظرت إلى ذراعيها الصغيرتين، ثم حسرت سروالها عن ساقيها وجعلت تنظر إن كان بهما آثار رضوض أو ضرب أو أذى من أي لون.

لكنها لم تجد شيئًا، ورأت بشرة الفتاة الرقيقة سالمة من كل سوء وعظامها النحيلة صحيحة وليس بها ما يستوقف النظر. وبدت لها شاحبة اللون شديدة النحول.

لكنها كانت نحيلة أبدًا والموت يطبع الوجوه بطابع الشحوب، فانحنت الأم فوقها وجعلت تتشمم فاها التماسًا لرائحة سم، لكنها لم تجد إلا رائحة الموت اليسيرة التي يفوح منها الحزن.

على أن الأم لم تستطع أن تؤمن بأن ما نزل بفتاتها هو موت طبيعي مألوف، فانثنت إلى أصحاب البيت الذين وقفوا بالباب يراقبونها صامتين. وتطلعت إليهم وأجالت عينيها في وجوههم الوحشية المخيفة التي لا تعرف وجهًا واحدًا بينها، ثم صاحت فيهم

من خلال دموعها المنهمرة الغزيرة:

- أنتم قتلتموها، أنا واثقة أنكم قتلتموها، فإذا لم يكن هذا فأخبروني كيف ماتت ابنتي بهذه السرعة، وقد تركتني صحيحة الجسم سليمة الأعضاء.

فكشر الرجل العجوز الذي أحست نحوه بالمقت منذ رأته لأول مرة عن أنيابه وأجابها:

- زني كلامك أيتها المرأة الطيبة، ليس من اليسير أن تقولي إننا قتلناها... و....

لكن المرأة الغاضبة المشوشة الشعر قاطعته صارخة:

- كيف ماتت؟ ماتت من برد أصابعها؛ لأنها شديدة الضعف، هذا سبب موتها.

وبصقت المرأة على الأرض ثم استأنفت صياحها:

- كانت فتاة عديمة النفع، جاهلة لا تعرف شيئًا، بل لم تكن تستطيع إحضار الماء من العين دون أن تتعثر أو تسقط أو تضل الطريق.

فأرسلت الأم بصرها ورأت طريقًا حجريًّا ضيقًا ينحدر في سفح الجبل إلى عين ماء صغيرة، ولم تتمالك أن هتفت موجعة:

- هل هذا هو الطريق الذي تقصدين؟

لكن لم يجب أحد. فهتفت في ألم متزايد:

- كنت تضربونها، لا بد أنكم كنتم تضربون ابنتي كل يوم.

لكن المرأة قالت فورًا:

- فتشي وانظري إن كان بها أي خدش. إن ابني ضربها مرة واحدة لأنها عادت إليه متباطئة، لكنها المرة الوحيدة.

فتطلعت الأم إليها وقالت بصوت خافت:

- أين ابنك؟

فدفعوا لها ذلك الابن، فإذا هو معتوه لا يكاد يعقل.

فأمالت الأم رأسها فوق جثمان فتاتها الميتة وجعلت تبكي وتنتحب في لوعة أي لوعة وفي حرقة وجنون. واشتد بكاؤها ونحيبها كلما فكرت فيما قاسته الفتاة على أيدي هؤلاء الأشقياء. وفيما هي كذلك كان الغضب يتجمع ويجيش في صدور الواقفين حولها. ثم أحست أخيرًا بيد تلمس كتفها، فرفعت رأسها ورأت ابنها الذي انحنى فوقها وهمس في أذنها مستحثًا قائلًا:

- نحن في خطر هنا يا أمي. يجب ألا نبقى. هي الآن ميتة يا أمي وماذا في وسعنا أن نصنع لها؟ وهم ينظرون إلينا نظرات تنم عن الشر ولا أدري ماذا يفعلون بنا.

تعالي معي ولنعد مسرعين إلى القرية حيث نشتري طعامًا يسيرًا ثم نستأنف السير إلى بيتنا في هذه الليلة.

إذ ذاك نهضت الأم مكرهة. على أنها حينما نظرت إليهم ألفتهم واقفين متلاصقين وآنست في ملامحهم ما جعل الخوف يتسلل إلى قلبها. ولم تسترح إلى تهامسهم وإلى نظراتهم التي كانوا يصوبونها إليها وإلى ابنها الفتى. أجل، يجب أن تفكر في أمر هذا

الفتى. وليقوضا عليها إن شاءوا. لكن هناك ابنها.

تحولت الأم وألقت نظرة ثانية على فتاتها الميتة وسوت ملابسها وبسطت يديها إلى جانبيها. ثم سارت إلى خارج الكوخ حيث كان الوقت قرب الأصيل.

ولما آنسوا هدوءها ورأوها تستعد لامتطاء الدابة قال الرجل الذي لم يتكلم قبل الآن وهو والد الفتى المعتوه:

- انظري أيتها المرأة الطيبة، إذا كنت لا تحسبيننا أناسًا طيبين، فانظري إلى النعش الذي اشتريناه لابنتك، إنه كلفنا عشر قطع من الفضة كانت كل ما نملك. وهل كنت تظنين أننا نشتري نعشًا لو لم تكن لها قيمة عندنا؟

نظرت الأم، فرأت قرب الباب نعشًا حقًّا، لكنها أدركت أنه لا يساوي هذه القيمة إذ كان مصنوعًا من الخشب الجافي الرقيق. وهو لا يمتاز في شيء عن أي نعش يؤتى به لأي رجل بائس فقير. وقد فتحت فاها لكي تعرب عن غضبها وتقول للرجل:

- هذا النعش؟ هل كانت النقود الفضية التي أعطيتها لابنتي يشترى بها مثل هذا النعش؟

لكنها لم تفه بهذه الكلمات، فقد ساورها خوف شديد من هؤلاء الناس، وأحست بيد ابنها تجذبها من كمها، فقالت في رباطة جأش:

- لن أقول الآن شيئًا، إن ابنتي ماتت ولن يردها إلى الحياة غضب ولا كلام.

وكفت عن الكلام وأجالت عينيها فيهم جميعًا ثم استطردت:

- ستقفون أمام السماء وأمام الآلهة، فليحاسبوكم على ما فعلتم!

وأدارت فيهم عينيها مرة ثانية، لكنهم لم يجيبوا، فتحولت عنهم وركبت الحمار وقاده الفتى بعيدًا عنهم في الطريق الصخري. والتفت خلفه وهو يرتعد خوفًا من أن يتبعوه، وقال لأمه:

- لن أطمئن حتى نصل إلى تلك القرية حيث يوجد أناس من بني الإنسان؛ فإنني شديد الخوف.

لكن الأم لم تفه بكلمة، فما نفع الكلام الآن وقد ماتت فتاتها؟

* * *

الفصل الثالث عشر

راحت الأم تبكي طوال الطريق إلى البيت. وكانت حينًا ترفع الصوت بالبكاء وحينًا آخر تبكي بكاء رقيقًا. وضاق الفتى ذرعًا بهذا البكاء ولم يتمالك أن هتف آخر الأمر في ألم وجزع:

- كفي عن هذا العويل يا أمي وإلا عجزت عن احتماله.

فهدأت الأم من روعها قليلًا، ولكن سرعان ما استأنفت بكاءها، فصر الفتى على أسنانه وغمغم في عنف:

- لو أن اليوم الموعود جاء، ولو أنا لم نكن في أشد الفقر والتعاسة، ولو نال الفقراء نصيبهم في الحياة وتيسر لهم أن يدافعوا عن أنفسهم، إذن لسعينا للثأر والانتقام لموت أختي. لكن ما الفائدة ونحن في فقر شديد ولا عدل في هذه الديار؟

فقالت الأم وهي تنتحب:

- صحيح أنه لا فائدة من الالتجاء إلى القانون ما دمنا لا نملك مالًا لالتماس العدالة.

ثم استأنفت بكاءها وهتفت:

- لكن أموال الدنيا وعدالة القانون لن تردا إليَّ فتاتي العمياء.

ولم يتمالك الفتى أن بكى أيضًا. ولم يكن بكاؤه لمصاب أخته وتفجع أمه بأكثر من بكائه لحاله، وما نال من ألم السير ووعورة الطريق.

وهكذا وصلا إلى البيت أخيرًا. ولما ترجلت الأم عن ظهر الحمار الأشهب نادت ابنها الأكبر صارخة مولولة حتى ركض إليها مسرعًا فصاحت قائلة:

- أختك ماتت يا بني.

وفيما كان الشاب يحدق فيها مذهولًا وهو لا يكاد يفقه ما تقول، راحت تسرد عليه القصة بحذافيرها. وجاء على صوتها سواد أهل القرية مسرعين ووقفوا ينصتون إلى القصة في ظلمة الشفق. ووقف الفتى مستندًا إلى الحمار وهو يكاد يسقط إعياء. ولما استرسلت الأم في تفصيل قصتها انتحى جانبًا وتهالك فوق الأرض وتمدد مكانه وهو في ذهول مما شهد في يومه. وراحت الأم تدير عينيها في وجوه الواقفين حولها وهي تهتف عاليًا:

- ماتت ابنتي وذهبت. وشد ما أمقت نفسي لأني تركتها تبتعد عني. وما كنت أتركها تذهب لولا زوجة ابني الباردة القاسية التي كانت تمقتها، حتى إني خشيت إذا مت وبقيت وحدها أن تتعرض لكل مكروه. آه يا بني! إن زوجتك هي سبب هذا المصاب. إني ألعن اليوم الذي جاءت فيه إلينا. ولا عجب إذا بقيت عاقرًا وهي بهذا القلب القاسي المتحجر.

سرى عن الأم شيئًا فشيئًا وجعلت تبكي حينًا في صمت وسكون. ثم تطلعت حولها قائلة:

- أين ابني الأصغر؟

فجاء الفتى ورأته شديد الشحوب والإعياء وقد فارقه مرحه وبشاشته، فحملته على الجلوس بجانبها وتناولت يده وجعلت

تستحثه على الأكل والراحة وقالت له:

- نم هذه الليلة بجانبي يا ولدي في الفراش الذي اعتادت أختك أن تنام فيه، لا يمكن يا ولدي أن أراه الليلة خاويًا.

وهكذا امتثل الفتى لقولها، وما كاد ينطرح على الفراش حتى استغرق في نوم عميق.

لكن الأم لم تستطع أن تنام طويلًا حتى رغم الهدوء الذي شمل أرجاء البيت، وكان عزاؤها الوحيد في هذا الوقت أن تسمع غطيط الفتى وهو راقد بجانبها. واشتد حبها له الآن وجعلت تناجي نفسها بهذه الكلمات:

- لا بد أن أفعل نحوه كل شيء. هو آخر أبنائي. يجب أن أزوجه وأن أبني له غرفة جديدة فوق البيت سيكون له غرفة خاصة ولزوجته. وإذا رزق أطفالًا... نعم يجب أن أفتش له عن زوجة طيبة ذات حيوية حتى يكون لنا أطفال في البيت.

وأحست بأن هؤلاء الأطفال المرتقبين سيكونون سلواها، غير أنها كانت تحرم من هذه السلوى. فقد عاودها المرض القديم حتى أنهك جسمها وحال دون استسلامها للحزن أو تعلقها بالرجاء. وكانت جاراتها تأتين إليها لمواساتها وتشديد عزمها... فتقول إحداهن:

- مهما يكن يا أختي فإن الفتاة كانت عمياء.

وتقول ثانية:

- لا سبيل إلى تبديل أحكام السماء يا أختي... ولا فائدة من الحزن على شيء في هذه الدنيا.

وتقول ثالثة:

- فكري في ولديك.

ولما ذكرتها زوجة العم ذات يوم بهذا الكلام قالت لها:

- نعم، لكن زوجة ابني لا تحمل، وابني الأصغر لن يتزوج.

فأجابتها زوجة العم بحرارة:

- أمهليها سنة أو سنتين يا أختي، فإنه أحيانًا بعد مضي سبع سنوات في العقم تعود المرأة إلى طبيعتها وتنتج محصولًا طيبًا من الأولاد. وقد رأيت مثل هذه الحالات. أما فيما يختص بقول الفتى إنه لن يتزوج فلا بد أن تكون له حبيبة في مكان ما، ومن واجبنا أن نفتش عنها وننظر في صلاحها للزواج منه. نعم، لا بد أن له حبيبة مثل غيره من شبان هذه الأيام، فإنه لا يوجد رجل في الدنيا لا يقبل الزواج.

لكن الأم قالت لها همسًا:

- تعالي يا أختي وضعي أذنك فوق شفتي.

فلما امتثلت زوجة العم لما طلبت قالت الأم همسًا:

- إني أخاف أحيانًا كلما رأيت الأحزان تلازمني وكل شيء ينعكس في وجهي أن يكون هذا بسبب تلك الخطيئة الماضية التي ارتكبتها والتي تعرفها الآلهة. وقد لا يبعد أن تضن عليَّ السماء بالأحفاد.

وما كاد هذا الخاطر يساورها حتى أغمضت عينيها وانحدرت دمعتان كبيرتان من بين أجفانها المطبقة.

وجعلت تفكر في كافة خطاياها... لا في تلك الخطيئة التي تعرفها زوجة العم وحدها، بل كذلك في كذبها المتصل حيما زعمت أن زوجها توفى وأنها أرملة، وما تفرع عن هذا كله من الكذب والتدليس، طمعًا في الفوز برجل آخر.

وهكذا ألمت بها الآن ذكرى هذه الذنوب جميعًا، وقد كانت تقوى على نسيانها في الأحوال العادية لتقادم العهد عليها. أما الآن وقد ألح عليها الضعف والحزن فقد كانت هذه الذكرى لا تثقل على نفسها لأنها لم تكن تستطيع أن تبوح بها فتضطر لكتمانها في صدرها، وكان يحز في نفسها أكثر من هذا أن قومها يعدونها امرأة فاضلة وينظرون إليها بعين الاحترام.

وقد اشتدت كآبة الأم ولم يعد شيء يسري عنها حتى ترى ابنها الأصغر حولها. أجل، ومع أن زوجة الابن كانت تتفانى في خدمتها وتبذل كل ما في وسعها لمرضاتها، فإنها لم تكن مصدر سلواها ولا عاملًا على تطييب نفسها. وطالما كانت الأم تؤنبها لأن يدها باردة أو لأن وجهها شاحب وتحدق فيها بنظرات عدائية صبيانية. على أن الأم مع ذلك كفت عن التنديد بعقمها. فقد خطر لها في أعماق نفسها أن خطاياها قد تكون سبب هذا الجدب الذي منيت به زوجة ابنها.

بيد أنها غادرت أخيرًا فراش المرض، ولما ذهب الخريف زايلتها أسقامها وكانت تجلس طول النهار محزونة، ولكنه حزن هادئ خلا من ظواهر العنف واللوعة. وكانت تناجي نفسها قائلة:

- نعم، ربما صح ما يقولون، وقد يكون من الخير أن ماتت ابنتي.

ففي الحياة أشياء كثيرة أسوأ من الموت.

وتشبثت بهذه الفكرة واطمأنت إليها.

ووجدت من أهل القرية جميعًا كل عون ومساعدة، إذ لم يعد أحد منهم يحدثها عن ابنتها أو يثير ذكراها أمامها. وقد دفعهم إلى هذا السكوت رغبتهم في دفع الألم والحزن عنها؛ ولأن الحديث في هذا الشأن كان حديثًا معادًا لا جديد فيه؛ ولأن شئون الحياة والناس المتجددة قد طغت على هذه الذكرى. وهكذا اختتمت سيرة الفتاة العمياء.

وهكذا تركت الأم الماضي ساكنًا خامدًا، فلا تقلبه إلا حين تخلو أحيانًا إلى نفسها.

* * *

الفصل الرابع عشر

ثم خيل للأم أن قلبها يوشك أن ينعم ببعض الراحة والسلوى. ففي ربيع هذا العام جاء إليها ابنها الأصغر وقال لها:

- إني جئت إلى البيت للإقامة فيه بعض الوقت يا أمي. ولا أعرف كم من الوقت أبقى هنا. ولكني سأبقى على الأقل حتى يصدر الأمر بعودتي.

ولما طربت الأم من هذا النبأ لم يتبسط الفتى في الكلام وكأن أطواره تغيرت واختلفت عن ذي قبل. فقد كان يبدو الآن كثير الهدوء لا يغني ويلهو ولا يستهتر في كلامه كما كان يفعل فيما مضى، حتى لقد عجبت الأم من هذا وراحت تتساءل إن كان به مرض أو اضطراب خفي.

على أن الفتى لم يلبث بعد مضي تسعة أيام أن عاد مسرعًا من حيث أتى وعلى نحو أقرب إلى الخفاء منه إلى الجهر، وإن لم يدر أحد كيف تلقى الأمر بالعودة. وقد دس الفتى ملابسه في صندوق من الجلد كان معه، وحزنت الأم لذهابه فقالت له:

- كنت أظن يا ولدي أنك ستقيم معنا.

لكنه أجاب قائلًا:

- آه، سأعود مرة ثانية يا أمي.

وكانت تبدو على الفتى بعد ذلك سيماء الجذل والمرح. وجعل يعود إلى القرية ويخرج منها بغير سابق إنذار. وكان إذا جاء إلى

القرية راح يتسكع في أرجائها يومًا أو يومين، فيختلف إلى حانوت الشاي ويلقي أقوالًا رنانة وكلمات ضخمة في سوء الأحوال وانعدام العدالة ويقرر أنه سيأتي يوم عظيم تذهب فيه كل هذه المساوئ ويستقيم كل شيئ. وكان الناس يصغون إليه وهم يتبادلون النظرات دهشة دون أن يفقهوا من كلامه شيئًا. وذات يوم حك صاحب الخان رأسه وهتف قائلًا:

- أقسم يا جيراني أن هذا الكلام يرن في أذني ككلام اللصوص!

لكنهم كانوا يتجاوزون عن هذا الكلام لأجل الأم ولأجل أخيه الطيب.

وكانوا يردون هذه الأقوال إلى طيش الشباب ويعتقدون أنه سيلزم حدود التعقل متى تزوج وعاش عيش الرجال.

على أن الفتى كان إذا عاد إلى البيت يلزم البطالة والخمول ويتظاهر بالرغبة في مساعدة أخيه والقيام ببعض الأعمال اليسيرة، وإن كان أخوه إذا رأى ذلك منه قال له بازدراء:

- شكرًا لك يا أخي، لكني تعودت أن أعمل بغير مساعدتك.

فيتطلع الفتى إلى أخيه بوقاحة ألفها في هذه الأيام الأخيرة ويضحك ضحكة هادئة ويبصق على الأرض ثم يقول:

- كما تحب يا أخي.

وقد كان هذا الهدوء يثير الأخ الأكبر حتى يكاد ينشق من الغيظ والحقد ويهم بطرد أخيه من الدار إلى الأبد لولا إشفاقه من لوم الناس وتنديدهم بهذا العمل.

أما الأم فلم تكن ترى في مسلك الفتى نقيصة ولا مذمة، وقد سمعته يتشدق يومًا بكلامه الضخم الرنان ويقول معرضًا بأخيه الأكبر:

- أقسم أن صغار الملاك هؤلاء الذين يؤجرون الأرض هم أناس مغرورون لا قيمة لهم، وأنهم يستحقون ما سينزل بهم يوم تكون الأرض مشاعًا ولا يملكها إنسان بعينه.

فلم تفقه الأم من هذا الكلام سوى شطره الأول وقالت له مؤمِّنة على قوله:

- نعم، إني أرى مثلك أن أخاك شديد الغرور أحيانًا، كما أن زوجته عاقر شديدة الجدب.

والواقع أن كل ما يصدر عن هذا الفتى كان في نظرها آية الصواب وعين الحكمة والسداد. وإذا عاد إلى البيت كان يوم عودته عيدًا عندها، ولو استطاعت لذبحت له كل يوم دجاجة وصنعت له أطيب الطعام. لكن أين السبيل إلى هذا وقد صار الدجاج الآن ملكًا لابنها الأكبر؟ وقصارى ما كانت تستطيع هو أن تسرق بيضة أو بيضتين وتخفيهما عندها للفتى، حتى إذا عاد صبتهما سرًّا في ماء ساخن، وقدمتهما إليه مع بعض السكر الذي تدخره لمجيئه على وجه من الوجوه.

وكانت الأم إذا أصابت بعض الألوان اللذيذة المشتهاة أو إذا ذهبت لزيارة بعض جاراتها فأعطينها خوخة أو كعكة أو غيرهما من باب الشفقة عليها، كانت إذا ظفرت بهذا أو ذاك ادخرته للفتى الأصغر وأنفقت وقتًا طويلًا في السهر على هذه الألوان حتى لا

تفسد ولا تتعفن وادخرتها أطول مدة ممكنة، حتى إذا أبطأ في العودة واضطرت لأكلها قبل أن تفسد فعلت هذا مكرهة وهي لا تكاد تسيغ ما تأكل وإن كانت تحب الطعام وتتلذذ به!

وكانت تنفق ساعات طويلة من وقتها كل يوم في التطلع إلى الطريق لعلها ترى ولدها قادمًا، حتى إذا رأت رجلًا آتيًا هرعت بكل ما تتسع له قوتها فإذا كان القادم ولدها تناولت يده الدافئة الملساء في يدها اليابسة المغضنة وذهبت به إلى غرفتها وصبت له الشاي الذي تبقيه عندها زوجة ابنها وقدمت له ما ادخرت من سائغ الطعام وجعلت تراقبه في تدله وهو يقلب ما قدمت له وينتقي منه أحسنه.

فإذا تناول ما طاب له راحت تنصت له وتستمع لما يقول. ولم يكن يجيب عما تلقيه عليه من الأسئلة إجابة صريحة، وإذا ألحت عليه أبدى لها تعجله في العودة من حيث أتى. فلما رأت ذلك منه ألفت ألا تلقي عليه سؤالًا وألف هو بدوره أن يبعد عن موضوع السؤال بما كان يسرده عليها من نوادر الحواة والمشعوذين، فيقول لها مرة إنه رأى أحدهم يزدرد ثعبانًا ثم يجذبه ويخرجه من جوفه ثانية، أو إنه شاهد امرأة ولدت طفلًا ذا رأسين كانت تعرضه أمام المتفرجين لقاء مبلغ تافه يسير. أو ما إلى ذلك من المشاهد الغريبة التي يراها الإنسان في المدن.

وكانت الأم تتسلى بهذا الكلام وتبكي إذا ذهب الفتى عنها، وتروح تقص هذه النوادر على ابنها الأكبر وزوجته. وذات يوم بينما كان الشاب يغسل وجهه في وعاء به ماء بعد عودته من عمل النهار

الشاق قصت عليه الأم بعض ما سمعت من ابنها الفتى، فلم يتمالك الشاب أن رفع رأسه المبلل وقال بمرارة:

- نعم، هو لا يطعمك ولا يفعل شيئًا نحوك إلا أن يجيء إلى هنا ويأكل دون أن يحمل بيده فأسًا ولا محراثًا ويلقي إليك بقطعة زهيدة من النقود كأنك متسولة، ويقص عليك هذه القصص وهو عندك أكثر من....

ثم أحنى رأسه ثانية وجعل يغسل وجهه في ضجة عالية ولم يستمع إلى ما أرادت الأم أن تقول ردًّا على كلامه.

لكن الأم لم تعرف في ابنها الأصغر إلا أنه فتى مليح العود رشيق القوام ذهبي البشرة طويل الأظفار أبيض الأسنان يصفف شعره الأسود بالزيت ويتركه ينمو ويتدلى حتى أذنيه ثم يدفع رأسه دفعًا لكي يزيح الشعر اللامع عن عينيه.

أجل... كانت الأم تعرف في فتاها هذا وحده وتحب منه نظراته الجريئة المستهترة وسخاءه في إنفاق الفضة وتعجب به حين يدس يده في حزامه ويقدم لها ما يملك، وإذا لم يجد معه شيئًا سألها أن تعطيه ما عندها، ولم يكن أحب إلى نفسها من أن تعطيه ما عندها وتلح عليه في قبوله. وكل ما كان يمنحها كانت تدخره لكي تقدمه له إذا أعوزته الحاجة إليه وذلك في نظرها أفضل سبيل لإنفاق ما تملك من مال يسير.

* * *

الفصل الخامس عشر

ولكنه ذات يوم لم يعد إليها في الوقت الذي حدده، ولكن كيف أيقنت من عودته في هذا الموعد المحدد؟

ذلك أنه منذ ثلاثة أيام جاء خلسة في الليل عن طريق الحقول لا عن طريق القرية وطرق الباب برفق حتى لقد خافت أن تفتحه وظنت الطارق من اللصوص. وفيما هي تهم بالصياح سمعت صوتًا خافتًا، ومن حسن الحظ أن الدجاج أخذ ينق في تلك اللحظة وحجب الصوت عن سمع الابن الأكبر وزوجته.

فنهضت الأم من فراشها مسرعة وراحت تلتمس ملابسها وتلتمس الشمعة في تخبط وتعثر حتى فتحت الباب برفق إذ علمت أنه جاء على هذا النحو لأمر خفي، وإذا هي تراه أمامها برفقة شابين آخرين وهم جميعًا يرتدون ملابس سوداء كالتي اعتاد أن يرتديها في هذه الأيام. وكان الثلاثة يحملون لفافة كبيرة محزومة بورق وحبال، ولما فتحت الباب وهي تحمل الشمعة في يدها أطفأها الفتى إذ كان القمر يرسل نورًا يسيرًا كافيًا. وما كادت الأم تهتف في رفق معربة عن سرورها برؤيته حتى قال لها همسًا:

- هذا شيء يخصني يا أمي أريد أن أضعه تحت فراشك بين ملابس الشتاء. ولا تقولي كلمة عنه لأني لا أريد أن يعرف أحد مكانه وسأعود مرة ثانية لأخذه.

فتوجست الأم خوفًا حينما سمعت هذا الكلام وتطلعت إليه في رزانة وقالت له في صوت خافت:

- أرجوك يا ولدي ألا يكون هذا شيئًا محرمًا... أرجو ألا تكون أخذت ما ليس لك.

لكنه أجابها على الفور:

- لا يا أمي، أقسم لك أنه ليس من المسروقات. وهو بعض جلود الغنم اشتريتها بثمن قليل وأخاف أن يلومني أخي كما يلومني في كل شيء، وليس لي مكان آخر أحفظها فيه... وسيكون لك واحد منها في الشتاء القادم، بل إنه سيكون لنا جميعًا ملابس طيبة في الشتاء القادم يا أمي.

فسرت الأم من هذا الكلام وصدقته، ولذ لها أن تشاطر ابنها بعض أسراره وقالت له بسرعة:

- نعم. ثق بي يا ولدي. توجد بهذه الغرفة أشياء كثيرة لا يعرف ولدي ولا زوجته عنها شيئًا.

عند ذلك حمل الشابان اللفافة إلى داخل الغرفة ودساها في سكون تحت الفراش، وفي هذه الأثناء أخذ الدجاج ينق ويحدق بأعينه واستيقظت الجاموسة وأخذت تطحن فكيها.

لكن الابن لم يشأ أن يبقى بعض الوقت، وعجبت الأم حين آنست منه هذه العجلة، لكنها قالت له:

- ثق يا ولدي أني سأحرص على الأمانة، لكن ألا يجب أن أعرضها للهواء والشمس خوفًا من العث؟

فأجاب الفتى بغير مبالاة:

- سنكون عندك بعد يومًا أو يومين: لأننا سننتقل إلى مكان أكبر

وسيكون لي غرفة خاصة رحبة.

فلما سمعت الأم إشارته إلى الغرفة الرحبة، جالت بخاطرها تلك الفكرة التي كانت تساورها أبدًا، فكرة تزويج الفتى، وسرعان ما انتحت به ناحية بعيدًا عن رفيقيه وتطلعت إليه مبتهلة متوسلة.

ولم يكن يسوؤها منه سوى نفوره من الزواج وإعراضه عنه، فقد كانت تعلم تمام العلم أن دماء الشباب تتدفق حارة في عروقه وأن هذا الابن يحمل نصيبًا موفورًا من عواطفها الجياشة وشهواتها الجامحة في صدر شبابها، وكانت توقن أنه لا محالة يعمد إلى إطفاء حرارة عاطفته على وجه من الوجوه. وهي تمقت الإسراف وتنفر منه أشد النفور. ولم يكن أحب إلى نفسها من أن تزوجه فتاة نظيفة صالحة فيكون لها أحفاد. ولم تتمالك حتى في هذه اللحظة حين كان يتعجل الذهاب وقد وقف صاحباه متسترين بظلام الباب، أن وضعت يدها فوق يده وقالت له مستحثة في نبرات خافتة:

- لكن يا ولدي إذا كانت لك غرفة خاصة رحبة فلم لا تتركني أبحث لك عن عروس؟ إني سأفتش لك عن أحسن الفتيات، أو إذا كنت تعرف فتاة معينة فأخبرني عنها وأنا أعهد إلى زوجة عمك أن تذهب إليها وتخطبها لك. أنا لا أرغمك يا ولدي، وإني لأحب الفتاة التي تحبها.

لكن الفتى دفع خصلات شعره المسدلة ونظر إلى الباب وحاول أن يرفع يدها عن يده، لكنها تشبثت به قائلة:

- لم تبذر حبوبك في أرض غير صالحة يا ولدي ولا تهيئ لي الأحفاد؟ إن زوجة أخيك شديدة البرودة ولا أظن أني سأفوز

بأطفال صغار إذ لم تنجبهم أنت. نعم، أنت تشبه أباك، وأنا أعلم تمامًا كيف كان أبوك. ابذر حبوبك في أرضك يا ولدي، واجن ثمارها في بيتك.

لكن الفتى ضحك في سكون وأزاح شعره عن عينيه اللامعتين وقال:

- إن النساء أمثالك يا أمي لا يفكرن إلا في الزواج ووضع الأطفال. أما نحن شبان هذه الأيام فقد طرحنا كل هذا وأعرضنا عنه. بعد ثلاثة أيام سأعود يا أمي.

ثم انتزع نفسه من قبضتها وذهب مع رفيقيه فساروا في الحقول المظلمة.

لكن مضت ثلاثة أيام ولم يعد، ثم مضت ثلاثة أخرى وثلاثة مثلها دون أن يأتي، حتى خافت الأم أن يكون قد ألم بابنها سوء. ولم تكن الأم في هذا العام الحالي تذهب في يسر وسهولة إلى البلدة، وهكذا لزمت الدار تنتظر وتترقب. وكانت تبرم وتضيق بكل من يدنون منها دون أن تجسر على مكاشفة أحد بمخاوفها أو تجرؤ على الابتعاد عن غرفتها حتى لا تزيح زوجة ابنها الستار وتهتدي إلى اللفافة المخبأة تحت الفراش.

وانتابها أرق فنهضت وأضاءت شمعة ونظرت تحت الفراش وهي ممسكة بيدها الستار المسدل، فإذا (الأمانة) ملفوفة في ورق سميك ومحومة حزمًا جيدًا بحبال من القنب. ولما تحسستها بيدها لمست جسمًا صلبًا بداخلها، فأيقنت أنه ليس جلود الغنم حقًّا. لكنها لم تجسر على فتحها وتركتها كما هي.

ومرت الأيام تباعًا حتى انقضى شهر كامل دون أن يعود ابنها، فكادت تجن لولا أن حدث حادث أنساها مخاوفها إلى حد ما.

كان هذا الحادث آخر ما تحلم به في هذه الأيام، إذ حملت زوجة ابنها.

أجل، عادت المرأة إلى طبيعتها بعد كل هذه السنوات وأدت واجبها، وذات يوم جاءها ابنها الأكبر بينما كانت جالسة في مدخل الدار وقال وقد أشرقت أسارير وجهه ابتسامًا:

- أمي، سيكون لك حفيد.

فأفاقت الأم من التأمل الذي كان يستغرقها في الأيام الأخيرة، وجعلت تحدق فيه بعينيها الغائمتين وقالت له في تبرم:

- أنت تتكلم كالمغفلين، إن زوجتك باردة مجدبة كالحجر. وأنا لا أعرف أين يوجد ابني وهو يبعثر بذوره الصالحة في كل مكان ولا يتزوج لادخارها.

فسعل الابن الأكبر وقال ببساطة:

- إن زوجتي حامل.

لم تصدق الأمل أول الأمر، وتطلعت إليه ثم صاحت وهي تنهض معتمدة على عصاها:

- هذا غير صحيح، لن أصدق هذا الكلام.

لكنها رأت في وجهه دلائل الصدق، فنهضت وأسرعت إلى المطبخ حيث وجدت زوجة الابن تطهو الطعام، فتطلعت إليها وهتفت:

- هل حملت أخيرًا؟

فأومأت الزوجة برأسها إيجابًا واستأنفت عملها، وقد تضرج وجهها الشاحب بحمرة متقطعة، وأدركت الأم أن الحادث لا ريب فيه، فسألتها:

- متى عرفت هذا؟

فأجابت الزوجة:

- من قمرين وزيادة.

فما كادت الأم تسمع هذا الجواب حتى غضبت حين رأت أنها لم تقف على النبأ في وقته ولطمت الأرض بعصاها قائلة:

- لِمَ لمْ تخبريني وقد كنت هذه السنين أتشوق وأتلهف لمثل هذا النبأ؟ من قمرين؟ هل في الدنيا امرأة في برودك لا تتكلم عن هذا الأمر من يوم ظهوره؟

فألقت الزوجة السكين التي كانت تقطع بها البصل من يدها وقالت:

- لم أخبرك لخوفي من أن أكون مخطئة فأزيد حزنك أكثر مما أحيي أملك.

لكن الأم لم تقبل هذا العذر وبصقت على الأرض وقالت:

- وهل كنت أعجز عن معرفة الحقيقة وأنا التي أنجبت كل هؤلاء الأبناء؟ لا، أنت تحسبينني طفلة أو عجوزًا بلهاء، أنا أعرف ماذا تظنين فيَّ، ويبدو هذا منك في كل عمل تقومين به.

لكن الزوجة لم تنبس بكلمة، بل أطبقت شفتيها الغليظتين الشاحبتين وصبت للأم قدحًا من الشاي وقادتها إلى مجلسها قرب الحائط.

لكن الأم لم تستطع أن تجلس وتكتم هذا النبأ، بل لا بد لها من أن تذهب وتخبر العم وزوجته حيث يجلسان في بيتهما؛ فإن أبناءها احتملوا الآن عبء العمل فاضطلع ثلاثة منهم بأعمال الفلاحة وتفرق الآخرون في أعمال أخرى يتلمسون قوتهم منها، وكان العم يقوم بما يستطيع وهو دائمًا متشاغل ببعض الأعمال اليسيرة، وإن لم يكن يقوى الآن على أداء الأعمال التي كان يقوم بها من قبل. أما زوجته فكانت تمضي النهار في نوم عذب هنيء لا تستيقظ منه إلا حين يبكي أحد حفدتها الصغار.

ذهبت الأم إلى بيت العم إذن وأيقظت زوجته بلا ترفق من نومها وصاحت قائلة:

- لن تكوني جدة وحدك، بعد شهور قليلة سيكون لي حفيد أيضًا.

ثابت زوجة العم إلى نفسها رويدًا وهي تبتسم وتلعق شفتيها اليابستين من تأثير النوم وفتحت عينيها الصغيرتين الهادئتين قائلة:

- صحيح يا أختي! هل يتزوج ابنك الأصغر؟

فتكدرت الأم قليلًا وأجابت:

- لا، ليس هذا.

وكان العم الضئيل الهرم جالسًا فوق مقعد منخفض من الخيزران

يضفر حبلًا من القش لدود القز لكي ينتج فوقها الخطوط الحريرية، فرفع رأسه وقال للأم:

- إذن فهي زوجة ابنك يا بنت العم؟

فأجابت الأم بحرارة وقد عاودها اغتباطها وسرورها:

- نعم.

وجلست لكي تسرد قصتها، بيد أنها لم تشأ أن تتظاهر بالسرور وكتمت سرورها خلف ستار من الشكوى والتذمر قائلة:

- إني جعلت أنتظر ثماني أعوام كاملة، ولو كنت غنية لبحثت له عن امرأة أخرى، لكني كنت أرجو أن يتزوج ولدي الأصغر ويجرب حظه قبل أن أمد أخاه بزوجة ثانية، والزواج في هذه الأيام يكلف الإنسان كثيرًا حتى ولو كانت زوجة ثانية. إن زوجة ابني هذه امرأة بليدة لها طبيعة باردة كطبيعة الثعبان.

فقال العم ينصف الزوجة:

- لكنها ليست رديئة يا بنت العم، فإنها قامت بواجبها خير قيام، وقد ضاعفت لكم عدد البط واستولدت الجاموسة عجلًا صغيرًا، وبفضلها زاد عدد الدجاج حتى صار الآن اثنتي عشرة دجاجة عدا ما يباع كل سنة.

فقالت الأم مكرهة:

- لا، ليست رديئة، لكني كنت أفضل أن تهتم بنفسها أكثر من اهتمامها باستيلاد الدواب والدجاج.

وكانت زوجة العم في هذه الأثناء قد غفت قليلًا ثم استيقظت من

غفوتها ورأت الأم في مكانها، فابتسمت وقالت:

- قلت سيكون لك حفيد؟ نعم، إن لنا من الأحفاد سبعة، وهم ليسوا كثيرين.

ثم استسلمت لنومها الهنيء.

* * *

وهكذا ملأ هذا النبأ فراغ الأم وقد كاد الفراغ يذهب بعقلها لغياب ولدها. وشغلها الفرح عن الانتظار والترقب، وبدا لها أنه لا بد عائد يومًا ما. وتركت الأمر يقف عند هذا الحد.

لكنها لم تنعم بهذا الفرح، فقد رأت أن كل شيء ينعكس أمامها ويفسد على وجه من الوجوه، إذ أشفقت أن يجيء المولود أنثى، وما كاد هذا الخاطر يهجس في وجدانها حتى غمغمت قائلة:

- نعم، لو جاء المولود أنثى لكان هذا أقرب إلى حظي السيئ وقد ودت بتأثير ما انتابها من قلق وإشفاق أن تسعى إلى تلك الربة القوية التي تعرفها وترشوها برداء جديد أحمر أو حذاء أو غيرهما لكي تجعل المولود ذكرًا. لكنها لم تجرؤ على الذهاب حتى لا تذكر الربة بخطيئتها الماضية التي لم تكفر عنها حتى بعد كل ما ذاقت من الأحزان، وحتى لا تتذكر الربة إذا رأتها وسمعتها تتكلم عن الأحفاد فتمد سلطانها وتبطش بالجنين في الرحم. وناجت نفسها بهذه الكلمات في لهجة تشف عن البؤس الشديد:

- خير لي ألا أذهب ولا أظهر نفسي أمامها أبدًا، إذا بقيت بعيدة عنها ولم أخبرها بأن الطفل في طريقه إلى الدنيا فتنساني بعد أن

لبثت كل هذا الزمن الطويل بعيدة عن الآلهة جميعًا ويكون المولود في نظرها لأي أنثى وليس حفيدي، وأرجو أن يكون ذكرًا.

ثم ساورها القلق والانقباض ورأت أن الطفل رغم كونه مصدرًا للفرح والسرور فهو سبب للأحزان أيضًا. ولما فكرت في هذا الشأن وفي أن الطفل قد يولد ميتًا أو مشوهًا أو معتوهًا أو أعمى أو أنثى، لم تتمالك أن حقدت على الآلهة والآلهات الذين يملكون من القدرة ما يفسدون به حياة الناس. وغمغمت قائلة:

- لم أستوف عقابي عما ارتكبته من الذنوب؟ من كان يحسب أن الآلهة ستعرف ما فعلت في ذلك اليوم؟ لكن لا ريب أن إله المعبد الخرب قد أحس بالخطيئة حوله ووشى إلى الربة رغم أني حجبت وجهه. لا بأس، سأبتعد عن الآلهة محتملة كل ذنوبي وخطاياي، لأني إذا ذهبت إليها فلست أعرف كيف أكفر عن ذنوبي أكثر مما فعلت. وأقسم لو وزنت أفراحي وأحزاني لرجحت كفة الأحزان ولم يكن للأفراح التافهة التي نلتها سوى وزن يسير. إني لم ألد الطفل، وقد رأيت فتاتي العمياء تموت وهي لم تزل عمياء. ألا ينفع الحزن في التكفير عن الذنوب؟ نعم، إن حياتي كلها كانت طافحة بالأحزان، لكن الآلهة لا تعرف العدالة.

وهكذا رأت وقد ملك الحزن والاكتئاب شعاب نفسها أنه لا مفر لها من احتمال أمرين: الخوف ألا يولد حفيدها صحيح الجسم سليم الأعضاء أو يولد أنثى.

وانتظار هذا الابن الأصغر الذي لا يريد أن يعود. وقد خيل إليها

أحيانًا أن حياتها كانت لونًا من الانتظار المستمر. فقد انتظرت طويلًا زوجها الذي لم يعد. وهي الآن تنتظر ابنها وأحفادها. وبدا لها أن هذه الحياة تافهة هينة لا وزن لها ولا شأن.

ومع هذا فلم يكن أمامها بد من التعلق بحبال الأمل والرجاء، وكانت تسأل كل من يعود إلى القرية من البلدة قائلة:

- هل رأيت ابني الأصغر اليوم في البلدة؟

وكانت تطوف ببيوت القرية سائلة أهليها:

- من ذهب اليوم إلى البلدة؟

فإذا أجابها أحدهم بالإيجاب قالت له:

- هل رأيت ابني أيها الرجل الطيب؟

وألف أهل القرية جميعًا أن يسمعوا منها هذا السؤال. وكانوا إذا رأوها تتوكأ على عصاها التي اقتطعها ابنها لها من فروع الأشجار وسمعوا سؤالها عن ولدها الأصغر أجابوها برفق قائلين:

- لا، لا أيتها الأم الطيبة، وكيف يمكن أن نراه في سوق البلدة حيث نذهب، وهو كما تقولين إنه يعيش من الكتب؟

فلا تملك الأم إلا أن تمضي في سبيلها مذهوبة الأمل ضائعة الرجاء وتعود أدراجها إلى البيت لكي تنتظر عودة الابن وهي مشفقة أن يأكل العث جلود الغنم.

ولكن جاءت أنباء ذات يوم بعد تعاقب عدة أقمار.

فقد جلست الأم بباب البيت بعد أن تناولت طعام الصباح ممسكة

بقصبتها الطويلة بين أصابعها كعادتها هذه الأيام، ورأت الشمس ترسل أشعتها حامية في رؤوس الروابي المستديرة، وجلست تنتظر أن تدركها حرارتها وتذهب عنها برد الخريف. وفجأة رأت أكبر أبناء العم يدخل الحوش ويذهب إلى ابنها الأكبر الذي كان منحنيًا فوق صندله يصلح رباطه الذي انقطع ويسر في أذنه كلامًا.

وقد عجبت الأم من رؤية ابن العم يعود إلى القرية بعد أن شاهدته في الفجر يذهب إلى البلدة ببعض أحمال الحشائش، إذ كانت لا تستطيب الفراش في مطلع النهار ما تهيأت لها الصحة لطول ما اعتادت النهوض مبكرة في الفجر. فلما رأته يعود بمثل هذه السرعة همت بسؤاله، ولكنها سمعت ابنها يهتف وهو ممتقع الوجه قائلًا:

- أخي؟

أجل، نفذت هذه الكلمة إلى سمع الأم الحاد وقالت فورًا:

- ابني.. ماذا حدث له؟

لكن الشابين جعلا يتكلمان معًا كلامًا كله جد واهتمام، وقد لاحت عليهما سيماء القلق، فلم تطق الأم صبرًا ونهضت وسارت إليهما متوكئة على عصاها وهتفت قائلة:

- حدثاني عن ابني.

لكن ابن العم سار مبتعدًا دون أن يقول كلمة، وقال ابنها الأكبر:

- يوجد شيء غير طبيعي يا أمي، ولست أعرف الحقيقة، لكن لا

بد أن أذهب إلى البلدة ثم أعود إليك لكي أخبرك.

لكن الابن لم يذهب، بل تشبثت به وهتفت:

- لن تذهب حتى تخبرني!

ولما سمعت زوجة الابن صوتها خرجت ووقفت تنصت ثم قالت:

- أخبرها وإلا مرضت من الغضب.

وإذن فلم يجد الابن بدًّا من ا لكلام قائلًا:

- قال ابن عمي أنه رأى أخي في صباح اليوم بين كثيرين غيره مقيد اليدين بحبال من القنب ممزق الملابس يسير أمام السوق حيث كان ابن عمي يبيع الحشائش.

وقد كان أخي يسير في صف طويل مؤلف من عشرين أو ثلاثين رجلًا، ولما رأى ابن عمي حول نظره بعيدًا. لكن ابن عمي جعل يسأل، فقال الحراس الذين كانوا يسيرون معهم إنهم شيوعيون ذاهبون إلى السجن لكي يعدموا غدًا.

- إني سمعت هذه الكلمة، لكني لا أعرف معناها.

فأجاب الابن متباطئًا:

- إني ألقيت هذا السؤال على ابن عمي الذي سأل الحارس، فضحك منه وقال إن هذه الكلمة تدل على نوع جديد من اللصوص ظهر هذه الأيام.

عند ذلك تذكرت الأم اللفافة التي طال عليها الوقت تحت الفراش وأخذت تولول وطرحت رداءها فوق رأسها وجعلت تنتحب قائلة:

- كان يمكن أن أعرف الحقيقة في تلك الليلة... آه... إن اللفافة الموجودة تحت فراشي هي ما سرقه..

وعندئذ تشبث بها الابن وزوجته واقتاداها إلى البيت وقالا لها:

- ما قصدك يا أمي؟

ورفعت زوجة الابن الستار ونظرت إلى زوجها الذي تقدم إلى الأمام بينما أشارت العجوز إلى اللفافة وقالت وهي تنتحب:

- لا أعرف ما فيها، لكنه أحضرها إلى هنا ذات ليلة وأوصاني أن ألزم الكتمان يومًا أو يومين، لكنه لم يرجع أبدًا.

فذهب الرجل إلى الباب وأغلقه برفق وأوصده بالمزلاج، وعلقت الزوجة جلبابه في النافذة وحمل الاثنان اللفافة وفكا أربطتها..

وغمغمت الأم وهي تحدق فيها:

- أخبرني أن بها جلود غنم.

لكنهما لم ينبسا بكلمة ولم يؤمنا بشيء مما تقول، فقد يكون ما فيه شيئًا ذا قيمة، وخيل أو كاد يخيل إليهما حين لمسا ثقلها وصلابتها أن فيها ذهبًا.

على أنهما حين فتحا اللفافة لم يجدا بها غير كتب.

كانت طائفة كبيرة من الكتب، كلها صغيرة الحجم، وبينها أوراق كثيرة في بعضها صور تمثل أغرب المشاهد الدموية... منها ما يمثل الموت ومنها ما يمثل الجبابرة يضربون أقزامًا أو يمزقونهم بالخناجر.

فوقف الثلاثة يحدقون بعضهم في بعض دون أن يفقهوا شيئًا ودون أن يدركوا ماذا يدفع الإنسان إلى أن يسرق ويخفي مجرد أوراق مخططة بالمداد.

لكنهم لم يستطيعوا أن يفهموا شيئًا مما يرون، فلم يكن بينهم من يعرف القراءة، ولم يفهموا من الصور إلا أنها تمثل مشاهد دامية فيها رجال ممزقون بالخناجر ورجال يموتون وآخرون مقطعة أوصالهم قطعًا ذريعًا، وهي جميعًا مشاهد دموية ممقوتة لا تحدث إلا حيث يكون اللصوص وقطاع الطرق.

واستولى عليهم جميعًا رعب وجزع، فأما الأم فقد جزعت لمصير ابنها، وأما الزوجان فقد أشفقا أن يعرف الناس وجود هذه الأشياء في بيتهما. وقال الرجل:

- لنحزمها كما كانت ولننتظر حتى يأتي الليل، فنحملها إلى المطبخ لإحراقها.

لكن الزوجة كانت أكثر منه حرصًا، فقالت:

- لا يمكن أن نحرقها جملة واحدة وإلا رأى الناس الدخان الكثير وتساءلوا عن سببه. لا بد من حرقها واحدًا واحدًا ويومًا بعد يوم، فيحسب الناس أني أوقد الحشائش لطهي الطعام.

لكن الأم لم تحفل بهذا، فكل ما كان يعنيها الآن أن ابنها قد وقع في التهلكة، وقالت لولدها الأكبر:

- ما الذي تفعله لأخيك الأصغر يا ولدي؟ كيف تبحث عنه؟

فأجاب الرجل مكرهًا:

- إني أعرف مكانه، فقد قال ابن عمي إنهم أخذوه إلى سجن معين قرب باب البلدة الجنوبي، حيث يوجد ميدان للإعدام.

وفجأة هتف الرجل حين وقع نظره على وجه أمه الذي امتقع، ونادى زوجته فحملها الاثنان فيما بينهما وأرقداها فوق الفراش، حيث تمددت وأخذت تلهث وقد استحال وجهها إلى لون الطمي لفرط جزعها على الفتى المعتقل. وقالت لاهثة الأنفاس:

- ألا تذهب يا ولدي؟ أخوك...

فلا آنس الابن حالتها طرح جانبًا خوفه على نفسه، وقال وقد هزته الشفقة عليها:

- نعم يا أمي سأذهب... سأذهب.

وأبدل الرجل ملابسه ووضع حذاء في قدميه، وكان الوقت في حساب الأم يمر بطيئًا فلم تطق صبرًا، ولما أتم الابن استعداده نادته الأم إلى جانبها وأدنت رأسه منها وهمست في أذنه قائلة:

- لا تدخر مالًا يا ولدي، إن كان حقًّا في السجن فلابد من دفع مال لإخراجه. المال هو السبيل يا ولدي. من سمع أن سجنًا استعصى فتحه على المال؟ إني أملك مالًا قليلًا في تلك الحفرة ادخرته لأجله فأنفقه كله. أنفق كل ما نملك.

لم تتغير ملامح الرجل حين سمع هذا الكلام، وتبادل النظر مع زوجته وقال:

- سأعمل كل ما في وسعي لأجلك يا أمي.

لكن الأم هتفت:

- وما الفائدة مني؟ أنا عجوز على حافة القبر، افعل كل شيء لأجله.

بيد أن الرجل كان قد ذهب، ومشى إلى ابن عمه الذي شهد الحادث فرافقه إلى البلدة. ولم يكن في وسع الأم إلا أن تلجأ إلى الانتظار والترقب. لكن هذا كان أمر ألوان الانتظار التي عهدتها في حياتها. ولم تستطع أن تتمدد فوق الفراش ولا أن تقوى على النهوض لفرط ضعفها وإعيائها. وجزعت زوجة الابن أخيرًا من حال الأم ومن نظراتها ومن كلامها ومن ضربها على فخذيها النحيلين، فذهبت إلى العم وزوجته مستنجدة، فأقبلا إلى الدار وجلسا مع الأم العجوز.

والواقع أن الأم قد سرى عنها حين جاء الزوجان إلى جانبها، فإليهما وحدهما كانت تستطيع أن تتكلم وأن تفضي بذات نفسها. وراحت تبكي وتبدئ وتعيد قائلة:

- إذا كنت أذنبت في حياتي أفلم أنل من الأحزان ما يكفي؟ إذا كنت أذنبت فلم لا أموت وحدي وأضع حدًّا لكل شيء؟ لم يؤخذ أولادي واحدًا بعد الثاني، وسيؤخذ حفيدي أيضًا من غير شك؟ لا، لن يقدر لي أن أرى حفيدي، نعم لن أراه، ولن أكون أنا التي يجب أن ينفذ فيها حكم الموت.

وفجأة ضاق صدرها حنقًا بهذه الأحزان وهتفت غاضبة وهي ترسل الدموع:

- لكن أين هي المرأة الكاملة المبرأة من الذنوب؟ ولم أحتمل وحدي هذه الأحزان كلها؟

فلما سمعت زوجة العم هذا الكلام خافت أن تندفع الأم إلى الإفضاء بأكثر مما يجب وهي في سورة هذا الألم، فبادرتها قائلة:

- ثقي أن لنا جميعًا ذنوبنا، وإذا وجب أن نحاسب عن هذه الذنوب فلن يبقى لواحدة منا أولاد. انظري إلى أولادي وأحفادي، إني برغم وجودهم مخلوقة شريرة فاسدة، وأنا لم أذهب في حياتي إلى أحد المعابد ولا أسعى إلى الذهاب. وكنت إذا جاءتني كاهنة تحثني على التقرب إلى السماء وجدت من شواغل أولادي ما يحول دون قيامي بهذا الواجب. وحين تجيئني الآن كاهنة وتحضني على التوبة قبل فوات الأوان أقول إني بلغت من العمر حدًّا لا يثمر معه علم ولا تلقين ولا مفر من موتى مقصية عن حظيرة الدين إذا لم يمكن قبولي على علاتي.

بمثل هذا الكلام راحت زوجة العم تهون على الأم المضعضعة الحواس، وقال العم بدوره:

- انتظري يا بنت العم حتى نعرف الخبر. قد لا يكون هناك داع للحزن، فقد يفرجون عن ولدك في مقابل المال الذي يجب دفعه. وقد يجوز أن ابني أخطأ ورأى شخصًا آخر غير ولدك يسير أمامه مقيدًا.

وأما زوجة العم الحريصة فقد أمرت زوجة الابن أن تمضي لتدبير شئون البيت حتى لا يبدر من الأم البائسة كلام لا ينبغي أن تسمعه. ولو فعلت الآن بعد هذا الصمت الطويل لكان هذا من دواعي الرثاء حقًّا.

وهكذا جعل الثلاثة ينتظرون عودة الشابين، وكان الانتظار أخف

وقعًا على نفوسهم من انتظار الأم وحدها.

لكن أقبل الليل دون أن تشهد الأم عودة الشابين، وكانت قد جرت نفسها من الفراش جرًّا وزحفت إلى شجرة الصفصاف فجلست تحتها وجلس العم وزوجته قربها، وجعل ثلاثتهم يحدقون بأنظارهم في طريق القرية لعلهم يرون أحدًا قادمًا، إلا زوجة العم حين كانت تغفو غفواتها القصيرة التي ما كان الحزن نفسه يدفعها عنها.

ولما غربت الشمس أخيرًا رأتهما الأم عائدين، فنهضت وتوكأت على عصاها وظللت عينيها بيديها من أشعة الشمس الآفلة وصاحت:

- ها هما قد أقبلا.

وقد بدرت هذه الصيحة من الأم عالية مدوية، ورنت خطواتها في الشارع سريعة متلاحقة، حتى لقد خرج أهل القرية جميعًا من مساكنهم، فإنهم علموا بقصة الفتى المعتقل، ولكنهم لم يجسروا على المجيء علانية إلى بيت الأم خوفًا من تعرضهم للمؤاخذة والجزاء واستهدافهم للاعتقال أيضًا. وقد تفرقوا في النهار للقيام بأعمالهم وهم يتحرقون فضولًا وتشوقًا، ولكنهم كذلك خائفون متوجسون كشأن القرويين حين يتصل الأمر بموضوع السجون والأحكام. أما الآن فقد نفروا من دورهم وراحوا يتلكأون هنا وهناك عن بعد أيضًا وأخذوا يراقبون ما يجري.

ونهض العم كذلك وتبع الأم، بل قد همت زوجته أن تتكلف الذهاب لولا أنها أصبحت لا تسير إلا حين يجب المسير، وقد

رأت أن بوسعها أن تقف على جلية الخبر بعد قليل، وكانت المرأة تؤمن بوقوع الخير آخر الأمر، ولهذا كله وفرت على نفسها مؤونة الذهاب وجلست فوق مقعدها تنتظر.

أما الأم فقد تشبثت بذراع ولدها صائحة:

- ماذا جرى لابني؟

بيد أنها تفرست في وجهي الرجلين وهي تلقي هذا السؤال ورأت نذر السوء مرتسمة على ملامحهما. وتبادل كلاهما النظر ثم قال الابن أخيرًا برزانة:

- هو في السجن يا أمي.

وتبادلا النظر مرة ثانية، فحك ابن العم رأسه وتكلف البلاهة وتظاهر بأنه لا يعرف ما ينبغي أن يقال، فلم يجد الابن بدًّا من الكلام فقال:

- إني أشك يا أمي في إمكان إنقاذه، فقد حكم عليه مع عشرين شخصًا بالموت، وسينفذ الحكم في الصباح.

فصرخت الأم ورددت صرختها:

- الموت!! الموت!!

ولولا أنهم تلقوها لهوت على الأرض.

وذهب بها الرجلان إلى أقرب بيت ووضعا مقعدًا تحتها وأخذا يهونان عليها. أما هي قد جعلت تبكي وتصيح كالطفل. وكان فمها المغضن يرتجف والدموع تنحدر فوق وجهها غزيرة. وراحت تلطم ثدييها اليابسين بقبضتي يديها وأنشأت تصيح وتتهم ولدها

قائلة:

- أنت لم تقدم لهم مالًا كافيًا، قلت لك إني أملك هذا المبلغ اليسير وهو في جملته قطعة من الفضة وقطعتان أخريان أعطانيهما أخيرًا...

ولما رأت ابنها واقفًا منكس الرأس يسيل عرقه غزيرًا فوق جبينه وشفته بصقت عليه غضبًا وقالت:

- لن تؤخذ منها قطعة واحدة لك، لن تكون لك إذا مات، نعم. سأذهب وألقيها في النهر أولًا.

عند ذلك تكلم ابن العم دفاعًا عن صاحبه وإيثارًا للسلم، فقال وقد ارتسمت على وجهه أمارات الصدق في هذه الساعة العصيبة وإزاء هذه المهمة الصعبة:

- لا يا عمتي.. لا تلوميه، إنه عرض أكثر من ضعف مالك، إنه عرض مائة قطعة، عرضها على الكبير والصغير في السجن، إنه راح يرشو هذا وذاك، لكنهم لم يسمحوا له برؤية ولدك.

فصاحت ا لأم:

- إنه لم يعرض مالًا كافيًا، من سمع أن حراسًا في السجن يستحيل رشوتهم؟ لكني سأذهب وأحضر المال في هذه اللحظة. نعم، سأخرجه من الحفرة وأذهب بنفسي أنا العجوز، وأخرج ولدي من السجن وأعود به إلى البيت. ولن يتركني أبدًا مهما قال الناس.

فعاد الرجلان إلى تبادل النظر، وتوسل الابن إلى ابن عمه بعينيه أن يتكلم دفاعًا عنه مرة أخرى، فقال هذا:

- إنهم لن يسمحوا لك حتى برؤيته يا عمتي، وهم لم يأذنوا لنا أبدًا بالدخول. نعم لم يأذنوا لنا رغم أننا عرضنا عليهم نقودًا، وقد فسروا سبب هذا التشدد فقالوا إن الحاكم ناقم على الجريمة التي اتهم بها ولدك. هي جريمة جديدة في هذه الأيام، جريمة بشعة.

فصاحت الأم في كبرياء ورفعت عصاها وجعلت تهزها في وجه الرجل قائلة:

- ابني لم يرتكب جريمة في حياته، يوجد عدو هنا يدفع أكثر مما نملك لكي يبقى ولدي في السجن.

وجعلت تدير عينيها في الجمع الواقف حولها يلتهم هذه الأنباء التهامًا وقد فغر أفراده أفواههم وجعلوا يحدقون بأعينهم. ثم صاحت فيهم:

- هل رأى أحدكم ابني يرتكب جريمة؟

فأخذ الجميع يتفرسون بعضهم في بعض دون أن يقولوا شيئًا، ولما رأت الأم نظراتهم المستريبة تمزق قلبها وجعلت تبكي وهتفت:

- آه. كنت تكرهونه لجمال شكله؛ لأنه أحلى من أولادكم السود... الفلاحين، نعم، أنتم تكرهون كل من يكون أحسن منكم.

ونهضت الأم وسارت مترنحة إلى بيتها وهي تبكي بكاءً مرًّا.

على أنها حينما عادت إلى البيت ولم يبق معها سوى العم وزوجته وأولادهما كفكفت دموعها وقالت لولدها الأكبر في هدوء وفي لهجة المحموم أيضًا:

- لكن هذا ضياع للوقت، أخبرني بكل شيء، فقد تكون أمامنا

فرصة لإنقاذه، أمامنا الليل بطوله، ما هي جريمته؟ سنأخذ كل ما نملك ونسعى لإنقاذه.

فتبادل الابن وزوجته عند سماع هذا الكلام نظرة لا تنم عن الشر حقًّا، ولكنها شفت عن نفاد صبرهما واحتمالهما، ثم قال الابن:

- أنا لا أعرف ما هي جريمته تمامًا، لكنهم يسمونه «شيوعيًّا» كما قلت لك، وهي كلمة جديدة سمعتها كثيرًا. ولما سألت عن معناها قيل لي إنها لون جديد من اللصوصية، وقد سألت الحارس الواقف بباب السجن حاملًا بندقيته على كتفه، فأجابني بهذه الكلمات: «تسألني عن معنى «الشيوعي)؟ اعلم أيها الرجل الطيب أن الشيوعي هو الذي يسرق حتى أرضك. وهو رجل يتآمر على سلامة الدولة ولذلك وجب أن يموت مع رفاقه»، نعم يا أمي، هذه هي جريمته.

أنصتت الأم بعناية واهتمام شديدين إلى هذا التفسير وقد سقط ضوء الشمعة فوق وجهها الذي تلألأت فوقه قطرات الدموع، وقالت في صوت يشف عن الذهول وقد راحت تجهد أن تكسبه رنة الجلد والتماسك:

- لكني لا أظن أن هذا ممكن، أنا لم أسمعه أبدًا يقول كلمة في هذا الشأن، أنا لم أسمع أبدًا بمثل هذه الجريمة، إن قتل الإنسان، وسرقة البيوت، وتجويع الوالدين، هي الجرائم بمعناها. لكن كيف تسرق الأرض؟ هل يمكن أن يطويها كأنها قطعة من القماش، ويأخذها معه، ويخفيها في مكان ما؟

فأجاب الابن وقد نكس رأسه وتدلت يداه بين ركبتيه وهو جالس

فوق المقعد الصغير:

- لا أعرف يا أمي.

كان الابن لم يزل مرتديًا جلبابه الوحيد، بيد أنه دس طرفه في حزامه إذ لم يألف لبس الجلاليب، ثم استطرد في تؤدة:

- أنا لا أعرف ما قيل غير ذلك، فقد سمعنا كلامًا كثيرًا في البلدة هنا وهناك؛ لأنهم سيقتلون عددًا كبيرًا غدًا وسيكون يوم عطلة. ماذا قيل غير هذا يا ابن عمي؟

فحك ابن العم ذقنه وازدرد لعابه وتطلع في الوجوه التي حوله ثم قال:

- إن أهل البلدة قالوا كلامًا كثيرًا، لكني لم أجسر على الإكثار من الأسئلة؛ لأن أحد حراس السجن حين سمعني أسأل عن سبب الضجة السائدة وأدقق في السؤال التفت إليَّ قائلًا: «هل أنت واحد منهم أيضًا؟ وماذا يهمك إذا قتلوا؟» ولم أجسر على القول بأني ابن عم أحدهم... لكننا وجدنا أحد رؤساء السجانين وأعطيناه بعض النقود والتمسنا منه أن نحدثه على انفراد، فقادنا إلى إحدى زوايا السجن خلف بيته حيث أخبرناه بأننا من القرويين الأشراف وأننا نملك أرضًا صغيرة ونستأجر مساحات أخرى، وأن لنا بين المحكوم عليهم بالموت فتى يمت لنا بصلة القرابة البعيدة، وإننا إذا استطعنا إنقاذه لما ترددنا صونًا لواجب الشرف لأن أحدًا من أهل بيتنا لم يسبق أن مات تحت سكين الجلاد، لكن بشرط ألا ندفع مبلغًا كبيرًا لأننا أناس فقراء. فأخذ السجان النقود وسألنا عن أوصاف الفتى فأخبرناه بها، وعند ذلك أجابنا: «أظن أني أعرف

الفتى الذي تقصدون؛ لأنه متضايق من السجن وأعتقد أنه لا يتردد في الاعتراف بكل ما يعرفه لولا وجود فتاة من أشد الفتيات جرأة تثير نخوته وتحمله على الجلد والتشدد. نعم، يوجد بين المحكومين عليهم أناس صلاب أجرياء لا يحفلون كيف ولا متى يموتون. لكن هذا الفتى كثير الخوف، وأشك في أنه يقدر ما فعل أو يعرف سبب الحكم عليه بالموت؛ لأن مظهره يدل على أنه فتى قروي ساذج قد استخدموه لأغراضهم ومنوه بوعود عظيمة. وأعتقد أن جريمته نجمت عن تلبسه بحيازة كتب معينة كان يوزعها بين الناس مجانًا. وفي هذه الكتب كلام فاسد يحض على قلب الحكومة واقتسام كافة الأموال والأراضي بالمساواة».

فلما سمعت الأم ما نقله ابن العم عن السجان انهمرت دموعها من جديد وأخذت تئن وتتوجع والتفتت إلى ابنها قائلة:

- كنت أعرف أنه كان يجب أن تمنحه بعض الأرض، كان يمكن أن نستأجر أرضًا أخرى ونعطيه نصيبه منها. لكن ابني الأكبر وزوجته استأثرا بكل شيء وضنا عليه بكل شيء.

ففتح الابن فاه للكلام، لكن العم قال بهدوء:

- لا تتكلم يا بني، دع أمك تلومك وتخفف عن نفسها، نحن جميعًا نعرف أخلاقك وأخلاق أخيك، ونعلم أنه كان يمقت العمل في الأرض بل كان يكره العمل بتاتًا.

وإذن فقد لزم الابن الأكبر الصمت نزولًا على رأي العم، وأخيرًا استطرد ابن العم قائلًا:

- وقد سألنا السجان بعد ذلك كم ندفع للإفراج عن الفتى، فهز

السجان رأسه وقال إنه لو كان ذا مكانة كبيرة وولدًا لرجل غني عظيم ذي نفوذ فلا ريب أن المال كفيل بالإفراج عنه وإخلاء سبيله. أما هو ففتى قروي فقير، فما من رجل يعرض حياته للخطر في سبيله مهما عظمت المبالغ التي تدفعها. وهكذا لا مفر له من الموت.

فلما سمعت الأم هذا الكلام صرخت قائلة:

- وهل يموت لأنه ولدي وأنا فقيرة؟ إننا نملك أرضًا وسنبيعها لمنحه حريته. نعم، سنبيعها في هذه الليلة فورًا، يوجد في هذه القرية أناس.

لكن الابن الأكبر ما كاد يسمع حديث الأرض حتى قال:

- وكيف نعيش إذن؟ لا نكاد نستطيع العيش والأرض في حالتها الراهنة، وإذا استأجرنا أرضًا أخرى بهذه الأجور المخزية لأصبحنا من المتسولين. إن كل ما نملكه هو هذه الأرض اليسيرة المحدودة. ولن أبيعها يا أمي. لا، إن الأرض أرضي، ولن أبيعها.

ولما فاه الابن بهذا الكلام نطقت زوجته لأول مرة، إذ كانت جالسة في هدوء تنصت إلى ما يدور، فقالت برزانة:

- ولا بد من التفكير في أمر الجنين الذي أحمله الآن في أحشائي.

فلم تملك الأم إلا أن لزمت الصمت. أجل، لزمت الصمت وجلست تبكي. وكلما وجهت إليها كلمة واحدة طوال هذه الليلة كان جوابها الوحيد سفح الدموع واستئناف البكاء.

وجلس أصحاب هذا البيت ساهرين ليلتهم، ولما بزغ الفجر

الشاحب استجمعت الأم قوتها وقالت:

- سأذهب بنفسي، سأذهب مرة ثانية إلى البلدة وأنتظر رؤية ولدي إذا لم يكن مفر من خروجه إلى الموت.

فوضعوا أيديهم على ذراعها يسألونها ألا تذهب. وقال الابن بلهجة الجد:

- أمي، سأذهب لإحضاره فيما بعد، لأنك ستموتين إذا رأيت هذا المشهد.

لكنها قالت له:

- وماذا لو مت؟

وغسلت الأم وجهها ومشطت ما بقي لها من شعر أشيب يسير فوق رأسها ولبست رداء جديدًا كعادتها كلما قصدت إلى البلدة وقالت لابنها ببساطة:

- اذهب وأحضر حمار العم، هل تتركني أركبه يا عمي؟

فأجاب العم في كآبة ولم يسعه إلا أن ينزل على إرادتها:

- آه. نعم.

وإذن فقد ذهب الابن وابن العم وجاءا بالحمار وأركبا الأم فوق ظهره وسارا بجانبها قاصدين إلى البلدة وقد حمل الابن مصباحًا في يده إذ كان ضوء الفجر ضئيلًا.

وكانت الأم قد خارت قواها ولزمت الهدوء لفرط ما سكبت من الدمع، ومضت في طريقها لا تكاد تعي شيئًا، وقد تشبثت بظهر

الحمار ونكست رأسها ولم ترفع عينيها مرة لكي ترى مطلع الفجر، بل جعلت تحدق في الطريق الشاحب الترب الذي لا يكاد يبدو للعيان من خلال الظلام. ولزم الرجلان الصمت كذلك. وظلوا يواصلون السير في الطريق متجهين إلى الجنوب حتى وصلوا إلى باب البلدة الجنوبي الذي لم يكن قد فتح بعد في بكرة النهار.

لكنهم رأوا جمهورًا كبيرًا ينتظر عند الباب، فقد ذاع في أنحاء هذه الجهات أن أناسًا كثيرين سينفذ فيهم حكم الإعدام، وتقاطر أفراد عديدون للتفرج وجاءوا معهم بأولادهم.

وما كادت الأبواب تفتح حتى دخل الجميع يتزاحمون بالمناكب وبينهم الأم فوق الحمار ورفيقاها. وقصدوا جميعًا إلى أرض فضاء كائنة قرب سور البلدة، فرأوا في طلائع ضوء النهار جمهورًا حاشدًا ينتظر وقد تضام أفراده ولزموا الصمت رهبة من مشهد الموت الذي يوشكون أن يروه. وتشبث الأبناء بآبائهم في ذعر غير مفهوم.

وإذا صرخ أطفال ألزموا الصمت فورًا. وخيم السكون فوق هذا الجمع الحاشد الذي وقف ينتظر في نهم الجائع مستمتعًا متلذذًا ولكنه يذوب في نفس الوقت رعبًا وجزعًا مما يرتقب ويتطلع إليه.

لكن الأم وصاحبيها لم ينتظروا في غمار هذا الحشد، فقد همست الأم قائلة:

- لنذهب ونقف عند باب السجن.

فقد كانت المسكينة ترجو إذا رأت ولدها أن تحدث معجزة على

وجه من الوجوه وأن تلتمس وسيلة لإنقاذه.

وإذن فقد ذهب بها الرجلان إلى باب السجن ووقفوا ينتظرون عند بابه في السور المرتفع الذي غرست فوق قمته قطع الزجاج. وقد رأوا عند الباب حارسًا منتصب القامة وبجانبه مصباح به شمعة قصيرة مضاءة هبت عليها ريح الفجر القارسة فأطفأتها.

وقف الثلاثة ينتظرون في الشارع الترب، ونزلت الأم عن ظهر الحمار وجعلت ترتقب. وسرعان ما سمعوا خطوات كثيرة تسير فوق الأرض الحجرية، ثم صاح صائح:

- افتحوا الباب.

فوثب الحراس في أماكنهم منتصبين بجانب الباب شاهرين أسلحتهم، ثم فتح الباب بعد قليل.

هنالك اتأرت الأم عينيها لكي ترى ولدها، فخرج من الباب شبان كثيرون مقيدو الأيدي بحبال من القنب يسيرون اثنين اثنين وقد قيد كل اثنين إلى من يتقدمهما.

وقد بدا هؤلاء المسوقون لأول وهلة فتيانًا جميعًا. على أنه كان بينهم بعض الفتيات وإن تعذر تمييزهن بسهولة، فقد قصت شعورهن وارتدين مثل ملابس الفتيان ولم يكن هناك ما يدل عليهن إلا أن يحدق الإنسان بعينيه فيرى أثداءهن الضئيلة وخصورهن النحيلة. أما وجوههن فكانت مبتسمة بطابع الجرأة والغلظة مثل وجوه الفتيان.

تطلعت الأم إلى وجوههم جميعًا، وفجأة رأت فتاها، أجل، رأته

يسير أمامها منكس الرأس، مقيدًا إلى فتاة تسير إلى جانبه.

عند ذلك اندفعت الأم إلى الأمام وألقت نفسها عند قدميه وضمتهما وصرخت صرخة داوية:

- ولدي!

وتطلعت الأم إلى وجهه، فإذا هو شاحب بل أشد ما رأت من الوجوه شحوبًا، وإذا شفتاه ممتقعتان وعيناه متبلدتان.

ما كاد الفتى يرى أمه حتى اشتد شحوبه وامتقاع لونه وأوشك أن يسقط على الأرض لولا أنه كان مشدود الوثاق إلى الفتاة. والواقع أن هذه الفتاة جعلت تشده ولم تتركه يسقط، بل لم تتركه يتريث في مكانه، ولما وقع نظرها على المرأة العجوز ذات الشعر الأبيض الجاثية عند قدميه ضحكت ضحكة عالية تشف عن جرأة بالغة ومرح عظيم، وهتفت في صوت عال أجش:

- أيها الرفيق، تذكر الآن أنه ليس لك أم ولا أب.

وجذبته الفتاة في سيرها.

وفي هذه اللحظة أسرع أحد الحراس ورفع الأم من مكانها وألقاها جانبًا فبقيت في سقطتها في التراب. وتقدم أفراد الفريق وواصلوا السير حتى غابوا عن نظرها متجهين شطر الباب الجنوبي.

وجاء الرجلان أخيرًا وهما برفع الأم عن الأرض لولا أنها لم تتركهما يفعلان. وتمددت فوق التراب وقتًا وهي تئن وتنصت في ذهول إلى وقع الخطا المتباعدة.

على أنه لم يفسح لها طويلًا في مجال التوجع والأنين، فقد خرج

من باب السجن حارس ووكزها ببندقيته في غلظة شديدة وصرخ فيها قائلًا:

- امشي يا عجوز.

فخاف الرجلان وأوقفا الأم على قدميها وأركباها فوق الحمار وسارا بها متجهين إلى البيت، على أنهم وقفوا قرب جدار قبل أن يصلوا إلى الباب الجنوبي وجعلوا ينتظرون.

وفيما كانوا ينتظرون سمعوا صراخًا عظيمًا، فتبادل الرجلان النظر وتطلعا إلى الأم العجوز. وسواء كانت الأم قد سمعت هذا الصراخ أو أدركت معناه فإنها لم تبد أدنى إشارة، بل جلست فوق ظهر الحمار مطرقة الرأس تحدق في التراب تحت قدميها.

ثم استأنفوا سيرهم، وقابلوا في الطريق أفراد الجمهور الذي انفض وتفرق وراح أفراده يتبادلون الكلام بأصوات عالية، فلم ينبس الرجلان بكلمة ولم يبد من حالة الأم أنها منصتة لما يقال. لكن أحدهم هتف قائلًا:

- هل رأيت ذلك الفتى الذي تفجر دمه الأحمر حتى لوث قدم الجلاد وجعله يسب ويلعن؟

ومن الناس من يضحك وقد تورد وجهه، ومنهم من علاه الشحوب، وفيما كان الرجلان والأم يخرجون من باب البلدة رأوا شابًّا ممتقع اللون مستندًا إلى الجدار مستسلمًا للقيء.

وسواء رأت الأم هذه المشاهد أو سمعت هذه العبارات فإنها لم تنبس بكلمة. أجل، فقد علمت أن الفتى قد صار في عداد الأموات.

ولا ينفع مال ولا لوم إن كان في وسعها أن تلوم. وقد ساورها في هذا الوقت تلهف إلى العودة والتماس ذلك القبر المهدم حيث تسكب فوقه عبراتها وقد حز في نفسها أنها حرمت حتى قبرًا خاصًّا بولدها الميت تبكي فوقه كما تبكي النساء فوق قبور أبنائهن... ولا مفر لها من البكاء فوق قبر مجهول شفاء لما في قلبها وتخفيفًا للوعتها. على أن هذا الألم تلاشى من نفسها وأصبحت تتلهف للبكاء وحده وتسكين ما بها.

ولما وصلت الأم إلى باب بيتها نزلت عن الحمار وتوسلت إلى ولدها قائلة:

- اذهب بي إلى خارج القرية، لا بد من البكاء.

وكانت زوجة العم قريبة وسمعت هذا الرجاء، فهزت رأسها وقالت برفق وهي تكفكف دموعها بكمها:

- نعم، دع هذه المسكينة تبكي قليلًا، فهذا أفضل ما تفعل.

فلم يسع الابن إلا أن يذهب بها في سكون إلى القبر حيث مهد لها مجلسًا كساه ببعض الحشائش، فجلست الأم وأسندت رأسها إلى القبر وتطلعت إلى الابن ممتقعة الوجه وقالت له:

- اذهب واتركني وقتًا حتى أبكي.

ولما تردد الابن كررت قولها في حرارة وانفعال:

- اتركني. إما أن أبكي أو أموت.

فذهب الابن عنها وهو يقول:

- سأعود بعد قليل لمرافقتك يا أمي.

والواقع أنه كره أن يتركها وحيدة في مثل هذا المكان.

وجلست الأم إلى القبر ترقب مطلع النهار وانتشار الضوء. ورأت الشمس تشرق وتسطع فوق الأرض وكأنه لم يمت أحد في هذا اليوم. وكانت النباتات قد نضجت وأينعت واكتست الحقول بأشعة الشمس الذهبية. وجعلت الأم ترتقب أن يفيض حزنها ويستحيل إلى دموع تخفف عن قلبها المحطم. وراحت تستعرض حياتها وتفكر في موتاها وتحصي ما في هذه الحياة من أفراح ضئيلة، فجاشت الأحزان في قلبها.

استسلمت الأم لهذه الأحزان دون أن تغضب الآن أو تثور. وتركت هذه الأحزان تطغى عليها وتستأثر بنفسها، وتمددت فوق التراب وتمرغت في الرغام، ثم أدارت وجهها إلى السماء وهتفت في ألم موجع:

- أهذا هو التكفير المنشود؟ ألم أنل كفايتي من العقاب؟

ثم تفجرت الدموع من عينيها أخيرًا، فأسندت رأسها فوق القبر ودست وجهها بين الحشائش الكبيرة واستسلمت للبكاء.

جعلت الأم تبكي وتمعن في البكاء في هذا الصباح المشرق الباسم وراحت تستعيد كل ما مر بها من الأحزان صغيرها وكبيرها. تذكرت كيف تشاجر زوجها معها وذهب عنها، وتذكرت أنه لا توجد فتاة صغيرة تأتي إليها وتناديها وتصحبها إلى البيت. وتذكرت كيف رأت فتاها مقيدًا إلى تلك الفتاة عندما شاهدته لآخر مرة.

وهكذا جعلت في هذا اليوم تبكي لكل ما مر بها في حياتها.

وفيما هي في هذا البكاء جاء ولدها راكضًا، فكان يلوح بذراعيه ويصيح موجهًا كلامه إليها، لكنها لم تتبين ما يقول، فسمعته قائلًا:

- أمي! أمي! جاء ولدي. حفيدك يا أمي.

أجل، سمعت الأم هذه الصيحة في أتم وضوح وجلاء، فانقطعت دموعها دون وعي منها، ونهضت من مكانها وسارت للقائه مترنحة هاتفة:

- متى؟ متى؟

- الآن فقط! ولد في هذه اللحظة، وهو ولد لم أر في حياتي طفلًا في حجمه وصياحه، وكأنه ابن سنة.

فوضعت الأم يدها على ذراعه وأخذت تضحك ضحكًا يسيرًا ممتزجًا بالبكاء، ثم اتكأت عليه وتحاملت على قدميها وسارت مسرعة وقد نسيت نفسها.

وذهب كلاهما إلى البيت ودخلا إلى تلك الغرفة حيث تمددت الأم الجديدة فوق الفراش. وكانت الغرفة مكتظة بنساء القرية اللاتي جئن من بيوتهن للوقوف على هذا النبأ. وجاءت بينهم الأرملة الثرثارة وقد قوست الأعوام ظهرها وأصمها الكبر. لكنها لم تشأ أن تترك هذه المناسبة تفوتها وأصرت على الحضور. وما كادت ترى الأم العجوز حتى راحت تقول بلهجتها المهدمة:

- أنت امرأة موفقة، وكنت أحسب أن حظك ذهب إلى الأبد. لكنك الآن ترزقين بحفيد. وهأنذا لا أملك سوى جثتي العتيقة الفانية وأسقامي العديدة.

لكن الأم العجوز لم تقل كلمة واحدة ولم تنظر إلى أحد، بل تقدمت إلى الفراش ونظرت إليه، فإذا الطفل ممدد، وهو مولود ذكر، وإذا هو يصيح كما وصفه أبوه، وإذا هي تراه فاغر الفم جميل الصورة قوي البنية كأجمل وأقوى طفل رأته عيناها. فانحنت ورفعته بين ذراعيها وأمسكته إلى صدرها وأحست بالحياة تتدفق في كيانه حارة موفورة.

وراحت تنظر إليه من رأسه إلى قدميه وتضحك وتعاود النظر.. وأخيرًا دارت بعينيها في أرجاء الغرفة تلتمس زوجة العم، فإذا هي واقفة بين النساء وقد تعلق بها بعض أحفادها لرؤية هذا المشهد.

وما كادت الأم العجوز ترى زوجة العم حتى رفعت الطفل بيديها لكي تراه صاحبتها، وهتفت وهي تضحك عاليًا وقد نسيت امتلاء الغرفة بالنساء وبدت عيناها منتفختين من أثر البكاء المتصل:

- انظري يا بنت عمي. إني أشك في امتلاء نفسي بالذنوب كما خيل إليَّ فيما مضى، هل رأيت حفيدي؟

تمت

الفهرس

مكتبة Telegram Network

مقدمة

الفصل الأول

الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الفصل السادس

الفصل السابع

الفصل الثامن

الفصل التاسع

الفصل العاشر

الفصل الحادي عشر

الفصل الثاني عشر

الفصل الثالث عشر

الفصل الرابع عشر

الفصل الخامس عشر